تم تصدير هذا الكتاب آليا بواسطة المكتبة الشاملة

(اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المكتبة الشاملة على الإنترنت)

الكتاب : مجلة البحوث الإسلامية

المؤلف : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء

الناشر : الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء

عدد الأجزاء : ٧٣

مصدر الكتاب : موقع الإفتاء – ملتقى أهل الحديث

[ضمن مجموعة كتب من موقع الإفتاء، ترقيمها مطابق للمطبوع ، ومذيلة بالحواشي]

* اعتنى به أسامة بن الزهراء – عفا الله عنه – اعتمادا على ملف الكتروني نشره مركز ملتقى أهل الحديث للكتاب الإلكتروني جزاهم الله خيرا

حول هذا الكتاب

الكتاب : مجموع فتاوى ومقالات ابن باز

المؤلف : عبد العزيز بن عبد الله بن باز

الناشر : الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء

عدد الأجزاء : ٢٧

مصدر الكتاب : موقع الإفتاء – ملتقى أهل الحديث

[ضمن مجموعة كتب من موقع الإفتاء، ترقيمها مطابق للمطبوع ، ومذيلة بالحواشي]

* تخريج الآيات، الأحاديث، الآثار وأقوال الأئمة والعلماء متداخلة مع نصوص الكتاب فينبغي مراعاة هذا.

* اعتنى به أسامة بن الزهراء – عفا الله عنه – اعتمادا على ملف الكتروني نشره مركز ملتقى أهل الحديث للكتاب الإلكتروني جزاهم الله خيرا

العدد الأول – الإصدار : من رجب إلى رمضان لسنة ١٣٩٥هـ

العدد الثاني – الإصدار : من شوال إلى ربيع الأول لسنة ١٣٩٥هـ ١٣٩٦هـ

العدد الثالث – الإصدار : من رجب إلى ذو الحجة لسنة ١٣٩٧هـ

العدد الرابع – الإصدار : من المحرم إلى جمادى الثانية لسنة ١٣٩٨هـ

العدد الخامس – الإصدار : من المحرم إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٠هـ

العدد السادس – الإصدار : من ربيع الثاني إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٢هـ

العدد السابع – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٠٣هـ

العدد الثامن – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤٠٣هـ ١٤٠٤هـ
العدد التاسع – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٤هـ
العدد العاشر – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٠٤هـ
العدد الحادي عشر – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤٠٥هـ
العدد الثاني عشر – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٥هـ
العدد الثالث عشر – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٠٥هـ
العدد الرابع عشر – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤٠٥هـ ١٤٠٦هـ
العدد الخامس عشر – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٦هـ
العدد السادس عشر – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٠٦هـ
العدد السابع عشر – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤٠٦هـ ١٤٠٧هـ
العدد الثامن عشر – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٧هـ
العدد التاسع عشر – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٠٧هـ
العدد العشرون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤٠٧هـ ١٤٠٨هـ
العدد الحادي والعشرون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٨هـ
العدد الثاني والعشرون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٠٨هـ
العدد الثالث والعشرون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤٠٨هـ ١٤٠٩هـ
العدد الرابع والعشرون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٠٩هـ
العدد الخامس والعشرون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٠٩هـ
العدد السادس والعشرون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤١٠هـ
العدد السابع والعشرون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤١٠هـ
العدد الثامن والعشرون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤١٠هـ
العدد التاسع والعشرون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤١٠هـ ١٤١١هـ
العدد الثلاثون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤١١هـ
العدد الحادي والثلاثون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤١١هـ
العدد الثاني والثلاثون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤١٢هـ
العدد الثالث والثلاثون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤١٢هـ
العدد الرابع والثلاثون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤١٢هـ
العدد الخامس والثلاثون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤١٢هـ ١٤١٣هـ
العدد السادس والثلاثون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤١٣هـ
العدد السابع والثلاثون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤١٣هـ
العدد الثامن والثلاثون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤١٣هـ ١٤١٤هـ

العدد التاسع والثلاثون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤١٤هـ

العدد الأربعون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤١٤هـ

العدد الحادي والأربعون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤١٤هـ ١٤١٥هـ

العدد الثاني والأربعون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤١٥هـ

العدد الثالث والأربعون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤١٥هـ

العدد الرابع والأربعون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤١٥هـ ١٤١٦هـ

العدد الخامس والأربعون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الأولى لسنة ١٤١٦هـ

العدد السادس والأربعون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤١٦هـ

العدد السابع والأربعون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤١٦هـ ١٤١٧هـ

العدد الثامن والأربعون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤١٧هـ

العدد التاسع والأربعون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤١٧هـ

العدد الخمسون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤١٧هـ ١٤١٨هـ

العدد الحادي والخمسون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤١٨هـ

العدد الثاني والخمسون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤١٨هـ

العدد الثالث والخمسون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤١٨هـ

العدد الرابع والخمسون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤١٩هـ

العدد الخامس والخمسون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤١٩هـ

العدد السادس والخمسون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤١٩هـ ١٤٢٠هـ

العدد السابع والخمسون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٢٠هـ

العدد الثامن والخمسون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٢٠هـ

العدد التاسع والخمسون – الإصدار : من ذو القعدة إلى المحرم لسنة ١٤٢٠هـ

العدد الستون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٢١هـ

العدد الحادي والستون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٢١هـ

العدد الثاني والستون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤٢١هـ ١٤٢٢هـ

العدد الثالث والستون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٢٢هـ

العدد الرابع والستون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٢٢هـ

العدد الخامس والستون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤٢٢هـ ١٤٢٣هـ

العدد السادس والستون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٢٣هـ

العدد السابع والستون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٢٣هـ

العدد الثامن والستون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤٢٢هـ ١٤٢٣هـ

العدد التاسع والستون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٢٤هـ

العدد السبعون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٢٤هـ

العدد الحادي والسبعون – الإصدار : من ذو القعدة إلى صفر لسنة ١٤٢٤هـ

العدد الثاني والسبعون – الإصدار : من ربيع الأول إلى جمادى الثانية لسنة ١٤٢٥هـ

العدد الثالث والسبعون – الإصدار : من رجب إلى شوال لسنة ١٤٢٥هـ

(١/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١)

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

سورة فاطر الآية ٢٨

(٢/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢)

لجنة الإشراف ... سماحة الشيخ إبراهيم بن محمد أل الشيخ

فضيلة الشيخ محمد بن عودة

فضيلة الشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع

فضيلة الشيخ عثمان الصالح

أشرف على التحرير ... جمال النهرى

عبد الله البعادى

عبد العزيز الفارس

المراسلات : رئيس التحرير

مجلة البحوث الإسلامية

المملكة العربية السعودية – شارع الرياض

جنوب شارع عسير

تليفون : ٤٣٥٩٧١٢ – ٤٥٩٦٠٦٢

(٣/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٣)

مجلة البحوث الإسلامية / مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – الرياض

رئيس التحرير

عثمان الصالح

الإشراف الفنى

جمال النهرى

مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة أشهر

رجب شعبان رمضان

١٣٩٥ هـ

(٤/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٦)

سورة الأنعام الآية ١٥٣

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ

(٥/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٧)

من كلمات جلالة الملك فيصل رحمه الله

إننا في حاجة كبرى إلى التفقه في ديننا

وإلى التعمق في أصول شريعتنا . .

لنعلم المزايا التي تحتوي عليها هذه الشريعة المطهرة

فحينما نتعلم ونتفقه في ديننا وشريعتنا نعلم ويتبين لنا أننا الحائزون على كل فضيلة

وعلى كل شرف . . وأن شريعتنا هي المحققة

للعدالة . . والحرية . . والمساواة . .

وللمحبة . . وللأخوة . .

(٦/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٨)

من كلمات جلالة الملك خالد بن عبد العزيز حفظه الله

كانت الشريعة الإسلامية . .

وستظل إن شاء الله . .

الراية التي نستظل بها . .

والمنطلق الذي نسير منه . .

والهدف الذي نسعى إليه . .

نحتكم لمبادئها . .

ونستضيء بنبراسها . .

ونعض عليها بالنواجذ . .

لا تأخذنا فيها لومة لائم . .

ولا تصدنا عنها عراقيل الزمن . .

نجد فيها جوهر العدل . .

والعدل أساس الحكم

خالد بن عبد العزيز حفظه الله

(٧/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٩)

لن نحتمي إلا بالله . . ثم محبة الناس . .

من كلمات سمو ولي العهد . . الأمير فهد بن عبد العزيز حفظه الله :

إنها ليست مجرد تقاليد . .

بل هي فلسفة حكم . .

فإما أن ينعزل الحاكم ويغلق بابه عن الشعب . .

وفي ذلك خطر موت للناس . . واغتيال حقوقهم . .
وغفلة الحاكم عن المظالم والانحراف . . لأن المظلوم لا يستطيع أن يرفع شكواه ، لولي الأمر . .
والمنحرف لا يخشى المحاسبة .
وإما أن يسقط الحجاب بين الراعي والرعية
ولقد كان عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– ينهى الحكام عن إغلاق الأبواب . . وقتل عمر –
رضي الله عنه– . . وقيل : فتح موته ثغرة في الإسلام . .
وفي اعتقادي :
أن احتجاب الحكام . .
وعزلتهم عن الشعب . .
وقيام نظام بوليسي . .
أكثر خطرا على الأمم . .
وعلى قيمنا . .
ثم . . هل حمت تلك الإجراءات ؟ أو ردت قضاء !!
سيستمر بابنا مفتوحا
ولن نحتمي إلا بالله . .
ثم محبة الناس . .
فهد بن عبد العزيز

(٨/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٠)
رسالة إلى العلماء والمفكرين المسلمين
في العالم
يوجهها
سماحة الشيخ
إبراهيم بن محمد آل الشيخ
رئيس إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد
العلماء ورثة الأنبياء وهم المسؤولون عن تبليغ الرسالة
نحتاج للتخطيط والتنظيم لنشر الدعوة
أعداء الإسلام سلكوا في كل السبل ويضعون في الحاضر المخططات

والتنظيمات للكفر والإلحاد مستغلين المنافقين والمأجورين
واجب خدمة الشريعة بروح العصر
الجهاد بالكتابة والإقناع
والدعوة في عصر بعد عن العاطفة ، واقترب من العقل
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١١)
شريعة الإسلام
وواجب العلماء نحوها
الحمد لله : الشريعة الإسلامية شريعة مطهرة كاملة ضمنت مصالح البشرية في دنياها وأخراها . وهي الصراط المستقيم الذي من سار عليه نجا . من حاد عنه وسار في طريق آخر سواه هلك وهوى . معصومة من الباطل . بعيدة عن الجور والظلم . كفيلة بعلاج مشاكل البشرية والأخذ بيدها إلى ما فيه سعادتها وفلاحها . وقد وفق الله ممن اختارهم من العلماء المخلصين صفوة بذلوا جهودهم . وسخروا أقلامهم لخدمتها وإبراز محاسنها . وشرح أحكامها . وبيان معانيها وإحاطتها بجميع شئون الناس في العقائد والعبادات والمعاملات والسياسة والحكم وغير ذلك . وإنها هي المنظمة لصلة الأفراد في داخل الأمة . وصلة الأمة بغيرها في حالة السلم والحرب .

يجب علينا في هذا الزمان أن نسير على ما سار عليه سلفنا الصالح وأئمتنا المهتدون من خدمة هذه الشريعة . وبيان هذه المعاني . بالأسلوب الذي يعرفه أبناء
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٢)
هذا العصر وشرح هذه الأحكام بالطريقة التي يفهمونها . والتي لا تخرجها عما أراده الله منها . وإبراز محاسنها للبشرية وأن فيها علاج أدوائها ودحض شبه أعدائها والمتربصين بها .

إنا لنأمل أن تكون مجلتنا هذه منبرا لعلمائنا ومفكرينا يضيئون بواسطته طريق الحق ومشعل الهداية وسبيل الرشاد وأن تكون ميدانا فسيحا للبحث والمناقشة في سائر العلوم وفي شتى المجالات والعلماء هم ورثة الأنبياء فهم الذين ورثوا عنهم العلم وأتمنهم الله عليه .
وهم المسئولون عن تبليغه للأمة صافيا نقيا . بعيدا عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين . وتأويل الجاهلين . ورد شبهات أعداء الله وشرعه من اللئفار والمنافقين الذين مرضت قلوبهم فلم يخالط الإيمان بشاشتها ولم يستضيئوا بنورها الساطع .
ولم يهتدوا بهديها القويم فنصبوا من أنفسهم أعداء ألداء لها . وسلكوا شتى الطرق . وبذلوا كل

الجهود . واستعملوا مختلف الوسائل لمصادمتها والنيل منها . وتفضيل الحكم بغيرها على الحكم بما جاءت به من تشريعات سامية وأحكام عادلة .

لقد حرص أعداء الإسلام حديثا كما حرص أسلافهم قديما على الكيد للإسلام وشريعة الإسلام فسلكوا في الماضي كل السبل لصد المسلمين عن دينهم وإبعادهم عن معينه الصافي وتشريعه الحكيم . وحاولوا أن يصرفوا المسلمين عن دينهم وكتابهم ويسلكوا تلك السبل التي تستوجب غضب الله وعقابه . حاولوا ذلك بكل ما أوتوا من قوة وخبث ولكن الله حفظ دينه وكتابه ورد كيد أعداء هذا الدين والمتربصين به من الكفار والمنافقين في نحورهم وبقيت شريعة الله محفوظة لم يؤثر فيها كيد الكائدين ومكر الماكرين .

وقد سلك هؤلاء الأعداء طرقا أخرى يرون أنها أجدى لبلوغ أهدافهم ونيل مآربهم الخبيثة واستغلوا كافة الوسائل التي لم تكن موجودة عند أسلافهم

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٣)

(١٠/١)

وخططوا ونظموا للدعوة إلى باطلهم وكفرهم وإلحادهم ووجدوا من ضعاف النفوس وقليلي الإيمان ممن ينتسبون للإسلام من المنافقين والمأجورين من يدعو إلى باطلهم وينفذ مخططاتهم واتخذوا منهم معاول هدم للإيمان والأخلاق الفاضلة والمثل العليا التي جاءت بها الشريعة السمحة العادلة الكفيلة بمصالح البشرية في معاشها ومعادها .

إننا بحاجة إلى تنظيم وتخطيط لنشر دعوتنا وبيان أحكام شريعتنا للناس . وبحاجة إلى بذل الجهود في الكفاح والذود عن حياض هذه الشريعة بكل ما أوتينا من قوة .

وللجهاد مراتب فتارة يكون بالسيف والسنان وتارة باللسان والبيان .

والجهاد عن طريق الكتابة والإقناع والدعوة له تأثير كبير وخاصة في زمننا الذي بدأ كثير من الناس فيه يبعدون عن العاطفة ويبحثون عن الحقيقة ويتلمسون ما يقنع عقولهم ويخرجهم من حيرتهم ويقودهم إلى شاطئ السلامة والنجاة .

الصحافة الإسلامية وحشد الطاقات العلمية الصالحة

والصحافة الإسلامية القوية من أنجح الوسائل لتحقيق هذه الغاية ومن أكثرها تأثيرا إذا ما أحسن استعمالها واشتملت على علاج الأدواء التي اجتاحت مجتمعات البشرية واستمدت هذا العلاج من هدي القرآن ومن معين السنة النبوية .

وهذا العلاج يتطلب حشد جميع الطاقات العلمية الصالحة التي تفهم معاني النصوص وفق ما أراده الله منها لإصلاح البشرية في معاشها ومعادها . وهذا هو الوسيلة المثلى للدعوة إلى الله والرد على أعداء الإسلام الذين يزعمون أن أحكام الشريعة لا تفي بمتطلبات العصر ولا تصلح لمعالجة المشاكل التي لم تكن موجودة في زمن سلفنا الصالح

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٤)

فبحشد الطاقات العلمية التي أشرنا إليها يتبين للمعاندين والمغرضين صلاحية هذه الشريعة لكل زمان ومكان .

(١١/١)

وإني لأرجو أن يجد قارئ هذه المجلة في هذا المجال ما يثلج صدره ويكشف عما قد يعرض له من شبهات . أرجو من الله أن يوفق القائمين على هذه المجلة الإسلامية لإبرازها على المستوى اللائق بها والذي قصده المسئولون من إصدارها وأن فيما يبذله رئيس تحريرها الأستاذ الكريم عثمان الصالح من جهود مشكورة واهتمام بالغ نحوها لأعظم وسيلة لنجاحها بإذن الله والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

(١٢/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٥)

سلاح العصر يحمل لواء الدعوة

فضيلة الشيخ محمد بن عودة

الأمين العام لهيئة كبار العلماء

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

وبعد : فبين يدي العدد الأول من مجلة (البحوث الإسلامية) يطيب لي أن أتحدث إليك أيها القارئ الكريم عن موضوع إيجاد هذه المجلة ويشرفني أن أكون الأمين العام لهيئة كبار العلماء وأن يكون لي دور في صدور المجلة وانتظامها بحول الله وقوته تحت إشراف وتوجيه سماحة رئيس إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الشيخ إبراهيم بن محمد آل الشيخ الذي أولاها كبير عنايته وفائق رعايته وأريد بحديثي هذا أن أدعوك للمساهمة في تغذية هذه المجلة ولتكون عضوا في أسرتها

فمن أجلك يكتب الكاتب ويسهر الإداري ومن حقك إذا أن تعلم بما دار في مراحل الإعداد والإصدار وما تعتزم المجلة اتباعه – إن شاء الله – مع نبذة مختصرة عن هيئة كبار العلماء .

(١٣/١)

المجلة بين الكتاب والصحيفة اليومية

ومن موازنة بسيطة نلحظ أن العبارة المسموعة موقوتة الغرض منتهية بانتهاء مجالها وزمن التلفظ بها أما العبارة المقروءة فهي أبقى على الزمن وأعيا على الفناء في متناول الباحث عن الفائدة في كل وقت ثم إن المجلة تأتي – في نظرنا – في الدرجة الأولى بين ما يحمل العبارة المقروءة من وسائل الإعلام ذلك أنها جاءت وسطا بين الكتاب وبين الصحيفة اليومية فالكتاب سجل يبقى زمنا ولا يفقد من جدته الشيء الكثير والصحيفة تحمل بريد الصباح أو أنباء المساء وهي تطبع في اليوم الواحد مرات متعددة .

وفي كل طبعة تحمل الصفحة الأولى آخر الأنباء أو أهمها ومع ذلك كثيرا ما تتضمن الصحيفة اليومية مقالات قيمة أو أنباء حاضرة عاجلة ولها أصداء تتجاوب في يوم تال أو في أيام تجيء ومن ثم ابتدع المنظمون أوضاعا تلائم هذه الحال منها إنشاء (الأرشيف) الذي يبتنى من قصاصات الصحف اليومية ثم يصنف

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٩)

(١٤/١)

ويبوب ويقوم على خدمته موظفون متخصصون ومع تقدم الأيام يتحول هذا الأرشيف المكون من قصاصات الصحف إلى مكتبة زاخرة بالمادة الجديرة بالمراجعة من وقت لآخر وقد تحفظ هذه المادة في أشرطة فوتوغرافية وقد يدخل عليها من الأجهزة المكتبية ما يجعل الكشف عن الواقعة أو الخبر أمرا ميسورا بأجهزة إليكترونية بأسرع مما يتصوره الناس عادة لأن هذه كلها مستحدثات في أجهزة الإعلام تجعل نفعها للرأي العام أقرب وأعلى من حيث الكفاءة فالمجلة إذا هي أداة العصر لا سيما في ميدان الدعوة وما كانت العناية اليوم بالعبارة المقروءة بدعة . لهذا ستكون هذه المجلة إن شاء الله قوة تحمل لواء الدعوة وستقدم البحوث العلمية الناضجة مع الحرص على إضافة الكلمات والتعقيبات النافعة وستعنى بنشر الوعي والثقافة الإسلاميين وسيكون فيها التوجيه الذي يخرج إلى القارئ من مادتها توجيها سليما وسوف لا نألو جهدا في رفع قدرتها على الإفادة وندعو الله أن نكون

جميعا ممن قال الله تعالى في حقهم : سورة الحج الآية ٢٤ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ

(١٥/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٠)

سورة الإسراء الآية ١

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ

(١٦/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢١)

دعاة أمناء لرسالة عظمى

عقيدة يحميها سيف وسيف تحميه عقيدة

فضيلة الشيخ عثمان الصالح رئيس التحرير

بسم الله نبدأ وبحمده نضرع وبه نستعين وعليه نعتمد وبعد .

فإن الإسلام الذي رضيه الله لنا دينا وللبشر سعادة وللمجتمعات هناء وجعل من الرسول الكريم مبلغا هذه الرسالة للأحمر والأسود والأبيض والأصفر . . . . . .

وجعل حملة الرسالة وواعيها ومبلغيها ورثة الأنبياء ويقومون بالهداية والإصلاح جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ويؤدون هذه المهمة منة من الله على عباده ونعمة منه عليهم .

ومن هذه الجزيرة " المملكة العربية السعودية " انطلق دعاة أمناء أخيار وعلماء أبرار هدي النبوة مشكاتهم ونبراس الرسالة العظمى ضياؤهم . .

واتخذوا من هذه الأسرة الكريمة الأسرة السعودية سيوفا تحمي هذه الغاية وعرينا يتحصنون فيه لحراسة الحق ونصره . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٢)

وهؤلاء الدعاة المخلصون في التبليغ لا تأخذهم في الله لومة لائم في أن يكون هذا الدين كما أراد الله ورسوله .

قوة في محاربة الانحراف في المبدأ والفساد في العقيدة هداية للعباد وليحملوا راية الإصلاح والصلاح إلى يوم المعاد وليجعلوا من الأخلاق الإسلامية والخصال الكريمة . . أخلاقا وخصالا مغروسة في

ناشئة الشعوب ونابتة البلاد في كافة ديار الإسلام ومواطنه وليجتثوا فساد المجتمعات .
ومن " المملكة العربية السعودية " ومن أقداسها ينطلق كل مصلح ويجاهد كل مناد للسلام والإسلام وما زالت ولا تزال ولن تزال هذه الدولة بقيادتها الرائدة وآمالها الصاعدة ونظراتها الصائبة لسانا وسيفا :

لسانا يوضح الحق بالأدلة والبراهين . . .
وسيفا يجندل المعتدين والبغاة
ويفتت الباطل الذي يقف أمام جيش الإسلام وجنوده المخلصين
ولهذا
ومن أجله . . . !
بزغت شمس التضامن الإسلامي وأطلت أعلامه يقدمها النصر
يحملها صاحب الجلالة الملك فيصل رحمه الله
والذي كان الصوت المدوي

(١٧/١)

وله المكانة العظمى والمنزلة العليا في كل شبر من الأرض يرفرف عليها لواء الإسلام
وله الاحترام والإجلال في كل مكان من الدنيا لما له من الحكمة والحجى الذي به يستضاء بهما ويستنار بهداهما
ثم كان له من حسن الاختيار من المنابع الأصيلة ومعادننا الجليلة في هذا البلد الكريم
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٣)
وفيها العلماء الأجلاء والرجال الصلحاء الذين هم نبع صاف سداه التقى ولحمته الصدق . .
على قاعدة سميكة من الإيمان والدعوة إلى الله بالكلمة الحق والجهاد في سبيل الله وإلى دينه القويم وشريعته الغراء في هذا الزمان الذي يقوم مقام الجهاد فيه بالسيف والسنان .
ومن هذه المعاقل التي تذب عن حمى الدين وهو منها في حصن حصين ومعقل أمين هذه الرئاسة للدعوة والإرشاد والإفتاء والبحوث العلمية التي جعل جلالته عليها سماحة الشيخ إبراهيم سليل محمد بن إبراهيم آل الشيخ المفتي الكبير للديار السعودية الراحل وحفيد الشيخ والإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ومن هذه الإدارات ومن مناهلها العذبة ومن أفكار رجالها المؤمنين ودعاتها الأفذاذ ينطلق صوت مسموع يهفو له المسلم في أنحاء العالم وينجذب إليه المفكر المصلح في أرجاء الدنيا .
يشرف على ذلك هيئة كبار العلماء الذين اختيروا من ذوي التحقيق والوعي والإدراك ولهم البحث

العميق والكلمة الراشدة والمقالة السديدة والفتوى التي تعتمد على ضوء القرآن ونور الحديث .
كل ذلك وأكثر منه من هؤلاء وأولئك ينبثق من " مجلة البحوث الإسلامية " – العدد الأول – يحمل بين طياته أقباسا من الهدى والإيمان استضاء بكتاب الله وسنة رسوله تطبيقا وفهما واستنباطا وقياسا بجانب ما يجلى من علوم القرآن والحديث وأصول الفقه والتراجم آملين أن يكون من ذلك الفائدة التي تعود بالخير العميم على مجتمعنا والهداية التي تنعم بها نفس المسلم ويسعد بها المؤمن .

(١٨/١)

سورة آل عمران الآية ١١٠ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ صدق الله العظيم

(١٩/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٤)
الشيخ عثمان الصالح
* ولد عام ١٣٣٥ في مدينة المجمعة قاعدة منطقة سدير بنواحي " الرياض " عاصمة المملكة العربية السعودية .
* تلقى العلم في كتابها الوحيد حيث تعلم المبادئ الأولية للقراءة على يدي الشيخ أحمد الصانع – رحمه الله– .
* وفي عام ١٣٤٧ انتقل إلى " عنيزة " إحدى مدن القصيم الكبرى ومن أثقف المدن النجدية .
* درس على يدي الشيخ الأديب " صالح الناصر الصالح " مدير المدرسة الأهلية التي تضم الأقسام الثلاثة الابتدائي والمتوسط والثانوي .
* تخرج منها في عام ١٣٥٤ هـ بعد أن تدرب على التدريس فيها لمدة عامين دارسا ومدرسا.
* افتتح في مسقط رأسه مدرسة أهلية .
* انتقل عام ١٣٥٦ إلى أول مدرسة سعودية بالمنطقة حيث كان فيها أول مدرس وطني .
* ترفع عام ١٣٥٨ إلى معاون مدير المدرسة .
* وفي ١٣٥٩ انتقل مديرا لمدرسة أبناء الأمير عبد الله عبد الرحمن .
* وفي عام ١٣٦٥ طلبته الدولة لتأسيس " مدرسة الأنجال " وليكون مديرا لها .
* تطورت المدرسة التي ظلت تحت إدارته ٢٦ عاما حتى شملت أقسام الروضة والابتدائي

والمتوسط والثانوي .

* بلغ تعداد المدرسة خلال ربع القرن الذي أمضاه مديرا لها ألفي طالب وشغلت مساحتها مليون متر مربع " حاليا تسمى معهد العاصمة " النموذجي . .

* رغب في الإحالة على التقاعد عام ١٣٩٠

* شغل في عالم الصحافة منصب المدير العام لمؤسسة الجزيرة ورئيس تحريرها .

* يشغل حاليا منصب رئيس تحرير مجلة البحوث الإسلامية كما يشغل إلى جانب ذلك :

- عضو مجلس الأوقاف الأعلى بالمملكة العربية السعودية
- رئيس مجلس الأوقاف الفرعي " بالرياض " .
- عضو مجلس إدارة الهلال الأحمر السعودي
- عضو مؤسس في مؤسسة الجزيرة الصحافية .

(٢٠/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٥)

القدس . . والفيصل . . والإسلام

ثمة ما هو أهم من " القدس "

أهم من " ثاني القبلتين "

ذلك أن الأرض تذهب وتجيء ؟

هذا هو السؤال

لماذا تصيبنا النكبات ؟

لماذا نتعرض للعدوان ؟ من خطبة جلالة الملك فيصل رحمه الله في حج عام ١٣٩٠ هـ .

هذا هو السؤال . . وهكذا تساءل الفيصل حيث يقول -رحمه الله-

" هذا ما سببناه لأنفسنا نحن "

" ولم يرضه الله سبحانه وتعالى لنا "

هكذا أجاب الفيصل رحمه الله

لا بد أن هناك " فينا "

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٦)

" وفي أنفسنا "

" ما يستوجب أن نصاب بهذه النكبات "

وهو سبحانه وتعالى " إنما رضي لنا

" العزة . .

" والكرامة . .

والقوة . .

إذا نحن أخلصنا العبادة وتمسكنا بما أمرنا به سبحانه وتعالى

" واتبعنا سبيل نبيا صلوات الله وسلامه عليه من خطبة جلالة الملك فيصل -رحمه الله- في حج عام ١٣٨٤ هـ هكذا أجاب الفيصل رحمه الله . . !!

لقد كان العرب والناس معهم على شفا " حفرة من النار "

متشاكسون . . . . . .

متنافرون . . . . . .

متحاربون سنين طويلة . . من أجل " ناقة " !!

فتنزلت الآيات

قيل لهم تحابوا . . . فتحابوا

قيل لهم تآخوا . . . فتآخوا

ثم قيل لهم انفروا . . . فهبوا خفافا وثقالا .

تنزلت الآيات . . . .

فقالوا : سمعنا وأطعنا . . . .

مؤمنو مكة على اختلاف قبائلهم – ما عرفنا لهم اسما في التاريخ إلا " المهاجرين " و " مؤمنو المدينة " – على اختلاف قبائلهم – ما عرفنا لهم اسما في التاريخ إلا " الأنصار " تمسكوا بحبل الله المتين . فإذا بالفرقاء المتشاكسين " دولة " .

وإذا بالدولة التي خرجت من بيضة الجزيرة الطاهرة طائر عظيم حمل " دولة عالمية " رفعت الإنسانية دون تمييز بين أجناسها إلى أعلى عليين .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٧)

دقت أبواب مدائن الدولتين العظميين – الفرس والروم – فأخرجتهم من عبادة الناس إلى عبادة الله .

وإذا بالقوة الإسلامية – قوة السلام والعدالة – تلون خريطة العالم فتزهر بلونها الأخضر النامي من شرقه إلى غربه . . من الولايات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي حتى المغرب العربي على المحيط

الهادي .
ومن شماله إلى جنوبه . . من القسطنطينية . . وعلى مشارف " باريس " حتى أندونيسيا وجزر ماليزيا تلك حقيقة عظمى ترتكز على مجموعة حقائق ساطعة صافية .

وإذا كانت المملكة العربية السعودية قد روعت بفقد عاهلها العظيم في الحادث الأثيم ثم امتدت دوائر الحزن والألم من مركزها الروحي لتغلف العالم الإسلامي .
بل العالم أجمع . .
وإذا كانت أمنية الفيصل –رحمه الله– التي همس بها فترددت في آذان العالم .
" أريد أن أصلي في القدس ركعتين . . "
فإنها كانت أمنية موجهة للمسلمين قبل أن توجه إلى أعدائهم
" ودعاء " و " دعوة " لهم أن يتمسكوا بقانون القوة والعزة والكرامة .
وأسمع الملك الراحل يقول بحق
" لقد مرت على الإسلام والمسلمين حقب تناسى الناس فيها ما هو مطلوب منهم تجاه ربهم "
" وتساهلوا فيما يجب عليهم "
" وتهاونوا وتغافلوا "
" ولهذا . . . .
" فإننا نرى اليوم أن الشعوب الإسلامية في كل الأقطار قد ينظر إليها نظرة احتقار أو ازدراء "
وهذا أيها الأخوة ، ما سببناه لأنفسنا نحن . . . !
ولم يرضه الله سبحانه وتعالى لنا . . .
وإنما . . . رضي لنا
العزة . . .
والكرامة . . .
والقوة . . .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٨)
إذا نحن أخلصنا العبادة . . .
وتمسكنا بما أمرنا به سبحانه تعالى .
واتبعنا سبيل نبينا صلوات الله وسلامه عليه خطبة الحج عام ١٣٨٤ هـ. .
هل ثمة ما هو أوضح من ذلك تبيانا لطريق القوة وأسباب فقدانها ؟
وإذا كان ثمة من أسباب لضياع القدس . . أو غيرها مما يصيبنا من نكبات فاسمعوا تساؤلاته واضحة –رحمه الله– :
" أيها الأخوة

إننا في حاجة قصوى إلى محاسبة أنفسنا
يجب علينا أن نعود إلى أنفسنا
ونحاسبها لماذا تصيبنا النكبات ؟ ؟ ؟

(٢٢/١)

ولماذا نتعرض للعدوان من أعداء الإسلام ؟ ؟ ؟
وأعداء البشرية . . .
وأعداء الإنسانية . . .
علينا أن نحاسب أنفسنا . . .
فلا بد أن هناك " فينا "
وفي " أنفسنا "
ما يستوجب أن نصاب بهذه النكبات
فإننا نرى اليوم في عالمنا الإسلامي من يتنكب عن " الإيمان " ، وعن " العقيدة الإسلامية " خطبة الحج عام ١٣٩٠ هـ .
هل ثمة محاسبة ذاتية للنفس أشد من هذه المحاسبة ؟ ؟
تربط النكبات بأسبابها . . .
وترد العدوان إلى أسبابه فنرى فينا وفي أنفسنا الأسباب الحقيقية لهذا العدوان .
هل ثمة شك أن منابع القوة مصدرها الوحدة والتآخي ؟
وهل يجوز شك في أن الخلافات والأحقاد والتنابذ . . طريق الضياع والتمزق ؟
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٩)
ألا يتحتم كما يقول جلالته -رحمه الله- على " كل دولة أن تترك خلافاتها ومشاكلها على الرف . . " ويسعون إلى توحيد صفوفهم .
وابتداء من " البلد الواحدة " عليه أن يوحد صفوفه .
" وتحل فيه
" الوحدة "
و " التعاطف "
و " الإخاء " بين أبنائه
ثم الوحدة الإسلامية للجهاد في سبيل الله خطبة الحج عام ١٣٨٨ هـ. .

هذا . . . وسواء كنا ننشد " مكة "
أم كنا نستهدف " القدس "
" فلا طريق إليهما . . إلا عن طريق قلوبنا ثم عقولنا . . نطهرهما ونثقفهما بما سنه الدين الحنيف من المبادئ فهما منبع الداء وأصل الدواء .
" نتجه إلى أنفسنا فنربيها " فحين نتعلم ونتفقه في ديننا وفي شريعتنا نعلم ويتبين لنا
" أننا الحائزون على كل فضيلة
" وعلى كل شرف
" وأن شريعتنا هي المحققة للعدالة وللحرية والمساواة وللمحبة والأخوة خطبة الحج عام ١٣٨٤ هـ. ، بحسب كلام جلالته –رحمه الله– .
هذا ما أحب البعض أن يطلق عليه مؤخرا طريق " الفيصل " أو الفيصلية " وهو ذاته طريق الإسلام الذي جدد الدعوة إليه الإمام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– وأبناؤه وأحفاده من بعده هداهم الله وهدى بهم .

(٢٣/١)

ولقد شاءت حكمته تبارك وتعالى أن لا تغيب شمس القائد الكريم –رحمه الله– إلا بعد أن هيأ لنا من مدرسته رجالا في السياسة والكياسة والقيادة وبعد أن تمت البيعة قام جلالة الملك خالد بن عبد العزيز –حفظه الله– وسمو ولي عهده الأمير فهد بن عبد العزيز –وفقه الله– ليحملا زمام القيادة في فترة من أدق الفترات في تاريخ المملكة وتاريخ العالم العربي والإسلامي وذلك على هدى من كتاب الله وشريعته التي عاشها وأحياها معهم أستاذهم الراحل جلالة الفيصل –رحمه الله– .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٣٠)
وذلك – وكما يقول جلالة الملك خالد –حفظه الله– في بيان نعي القائد إلى أمته " بعد أن انتقل بالمملكة العربية السعودية إلى مصاف الدول المتطورة في كل المجالات مع الحفظ على ديننا ومثلنا وتقاليدنا " .
وكما يقول جلالته في الخطاب الذي ألقاه سمو ولي عهده :
" وعلى الرغم من أن سياسة الملك الراحل الداخلية والخارجية معروفة للقاصي قبل الداني ، فإن حكومتنا تجد من واجبها أن تعيد ذكر أهم أركانها وأسسها .
مؤمنة أن في تطبيقها والاستمرار في تنفيذها عزاء لنفوس المؤمنين الصابرين على فقده وسعادة لروح الفيصل –رحمه الله – عند بارئها :
وفي المجال الداخلي كانت الشريعة الإسلامية ، وستظل –إن شاء الله– ، الراية التي نستظل بها ،

والمنطق الذي نسير منه ، والهدف الذي نسعى إليه ، نحتكم لمبادئها ونستضيء بنبراسها . ونعض عليها بالنواجذ لا تأخذنا فيها لومة لائم ، ولا تصدنا عنها عراقيل الزمن .

نجد فيها

جوهر العدل . . .

والعدل أساس الملك من حديث جلالة الملك خالد بن عبد العزيز حفظه الله في الرياض ٢٠ / ٤ / ١٣٩٥ هـ . .

وإذا كان لنا أن نلملم أحزاننا ونكفكف دموعنا فإنما نفعل ما هدانا إليه الإسلام .

(٢٤/١)

ثم نسارع كما يقول سمو الأمير فهد ولي العهد الأمين " إلى رضى الله ، الله أولا وقبل كل شيء " ثم إلى أداء الواجب كما رسمه لنا مؤسسا هذه الدولة جلالة المغفور له الملك عبد العزيز وجلالة المغفور له الملك فيصل –رحمه الله – " .

ولي العهد الذي سئل عما يتمناه لأكبر أبنائه وهو ما يتمناه لأبناء أمته .

" أريده كأبيه ، كجده ، كأعمامه ، كسيوف أسرته ، كلها مشهرة لخدمة الله ، والأرض ، والناس ، وأريد منه أن ينقل ذلك لأبنائه " .

فإذا سئل هل في كل ذلك ما أرضاك ، أو ما يرضيك عن نفسك ؟

أجاب :

" رضاي من رضا ربي علي

وويلي وويل أبي – كما كان يدعو الله عمر بن الخطاب خليفة المسلمين – إن لم يغفر لي ربي أو لم يرض عني "

فيقال له : نحس بأنك تصبو صوب (عمر) أو يهفو بك الشوق إلى ذكراه ؟

فيقول :

" وهل مثل عمر في عدله وإنصافه ؟ ؟

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٣١)

إنه أقرب الخلفاء المسلمين إلى قلبي .

بل هو مثل عمر في حزمه وحسن إدارته ؟ إنه عبقري . . !

ويسأل عمن هو أقرب إليه من قادة فتوحات المسلمين

فيقول :

" رواد الأندلس وبناة امبراطورية المسلمين في دنيا أسبانيا : موسى بن نصير . وطارق بن زياد الحوادث ١٨ / ١٠ / ١٩٧٤. وهكذا تلتف الأمة الإسلامية فيه حول قيادة تتخذ الإسلام مثلا أعلى لحياتها وفي سلوكها .

وهكذا تدعم الأمة الإسلامية قيادتها .

وهنا تكون الأمة على موعد مع ينابيع قوتها .

" في وقت حرج تكالبت فيه قوى الشر على العرب وعلى قضيتهم .

ولكن ما هو الواجب علينا في هذه الفترات التاريخية ؟ ؟

إن الواجب " على كل فرد من أفراد هذه الأمة أن يخلصوا في أعمالهم ويشعروا بالمسئولية نحو دينهم ومليكهم وبلادهم وأمنهم حتى تصل هذه البلاد إلى ما يحبه الله لها في دينها ودنياها حتى تصل إلى الهدف الذي سعى الفقيد الراحل –رحمه الله– إلى أن يوصلها إليه . . " .

(٢٥/١)

" . . إن هذه البلاد هي مركز الإسلام وهي الدعامة القوية لنشر العقيدة والدعوة إليها وإن أعداء الإسلام ما فتئوا ولا يزالون كذلك لينالوا من هذه البلاد لقصد القضاء على الإسلام أو إضعافه ولكنهم بحول الله فشلوا في الماضي .

وسيفشلون في المستقبل . . . !

وسيبقى الإسلام صامدا في وجوه أعدائه رغم كل المحاولات والدسائس والمؤامرات .

ونحن في هذه البلاد المقدسة مؤمنون حقا " .

" نقابل هذه الفادحة والمصاب بنفوس واثقة بأن الله –سبحانه وتعالى– حفظ لهذه الأمة كيانها وللأمة الإسلامية مجدها وعزتها " .

" نعم : إننا خسرنا فيصلا رحمه الله في أحلك الساعات وأدق الظروف . .

" وإنه وإن ترك فراغا في قلوبنا ولوعة في نفوسنا فإنه لم يترك فراغا في بلاده ولا ثغرة في دولته وإنه وإن ترك فإن خليفته

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٣٢)

العظيم خالد بن عبد العزيز –حفظه الله– وولي عهده العظيم فهد بن عبد العزيز –رعاه الله– يحملان الأمانة التي كان فيصلنا رحمه الله الراحل يحملها .

يحملانها بجدارة وقدرة وكفاية يشرف دولتنا وترفع مستوى شعبنا إلى أعلى مراقي العظمة بين الأمم .

ولا نجد ما نختم به تعليقنا على الحادث الأثيم الذي وقع والمجلة ماثلة للطباعة أفضل من إجابة

سمو ولي العهد الأمير فهد بن عبد العزيز على سؤال كان قد وجه إليه حول الحادث .
قال : " لعلك عرفت الجواب من البيعة العامة التي حضرتها الكل دخل والكل صافح الملك إنها ليست تقاليد . .
بل هي فلسفة حكم . .
فأما أن ينعزل الحاكم ويغلق بابه عن الشعب وفي ذلك خطر موت الناس واغتيال حقوقهم وغفلة الحاكم عن المظالم والانحراف لأن المظلوم لا يستطيع أن يرفع شكواه لولي الأمر والمنحرف لا يخشى المحاسبة .
وأما أن يسقط الحجاب بين الراعي والرعية وقد كان عمر بن الخطاب ينهى الحكام عن إغلاق الأبواب وقتل عمر –رضي الله عنه–
وقيل : قد فتح ثغرة في الإسلام

(٢٦/١)

وفي اعتقادي إن احتجاب الحكام وعزلتهم عن الشعب وقيام نظام بوليسي أكثر خطرا على الأمم وعلى قيمنا .
ثم هل حمت تلك الإجراءات أو ردت قضاء ؟
سيستمر بابنا مفتوحا . .
ولن نحتمي إلا بالله .
ثم محبة الناس .
وقد لمسها كل من عاش معنا هذه الأيام الحزينة تصريح سمو ولي العهد الأمير فهد بن عبد العزيز للأنوار اللبنانية في ٢٠ / ٣ / ١٣٩٥ هـ .

(٢٧/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٣٣)
مجلة
البحوث الإسلامية
تقديم
لعله توفيق الله سبحانه أن هدانا لاختيار اسم لهذه المجلة " البحوث الإسلامية " وأن هذا الاسم لم

يأت رمية من غير رام وإنما قد استلهمنا فيه روح العصر حتى نتمكن من مخاطبته .
العصر الذي اقتضت طبيعته البحث والتخصص .
تخصص استوجبه تنوع في فروع المعرفة حتى كل فرع يتعمق في معالجة شئون فرعه ليتمكن من حل معضلاته ومشاكله .
ولقد شهدنا ذلك أوضح ما تكون الشهادة في عصرنا هذا . . !
شهدناه في مجال الهندسة . ذهبوا للتخصص فيها : عمارة ، وميكانيكا ، وكهرباء ، وإليكترونات وهندسة فضاء .
وشهدناه أيضا في مجال الطب . حتى لقد أصبحت إجازة الطب العامة لا تعني في مفهوم صاحبها بل حتى في مفهوم العامة من الناس إلا مجرد خطوة في طريق الطب الطويل .
خطوة ينبغي أن نتبعها خطوات أخرى يتخصص بها الطبيب في معالجة هذا الجزء أو ذاك من أجزاء الجسد فتخصص هذا في " شئون القلب " .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٣٤)
وذاك " للأعصاب " . وآخر " للعظام " . بل لقد أصبح للعالم بعد إطلاق " سفن الفضاء " . . طب متخصص لرواد الفضاء . . ؟
هكذا اقتضت طبيعة العصر . . !
وأصبح " للتقدم أحكام وشروط لا بد من استيفائها . وكان خلف هذا التقدم تخصص قدم أبحاثا ، وأبحاث تراكمت بنظام حقق وثبات شاهقة في مختلف المجالات .
فإذا سألوك عن معجزة خلف هذه الوثبات فقل ليس في الأمر أسرار ومعجزات ولكنه النظام . . . والتخصص والأبحاث . . !
جعلت عبور مئات الآلاف من الكيلومترات في زمن يسير أمرا ممكنا . .

(٢٨/١)

ولقد عجب بعض الناس للتطور الهائل الذي طرأ على العلم ولكن الراسخين في العلم كانوا يتجهون بعقولهم إلى " القاعدة " التي طورت هذا العلم فأوسعوا هذه القاعدة بحثا وتأملا . . ولقد علموا أن هذه القاعدة قد احتوت : علماء وأبحاثا وزمنا وتفرغا وجهدا متفانيا ومالا . . وقبل ذلك كله إيمان قد انعقد على اكتشاف كون سخره الله للإنسان .
ولقد عرفنا نحن التخصص منذ فتحنا الكتاب الكريم وسمعنا موسى –عليه السلام– يدعو الله سبحانه فيقول : سورة القصص الآية ٣٤ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ويستجيب له سبحانه فيقول : سورة القصص الآية ٣٥ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ

ونحن قد عرفنا قيمة " الكلمة " .
وعرفنا قيمة " الإقناع " بها . . !
عرفناه . . ثم كان من بعد المعرفة وعي باستخدامها .
وافتح المصحف الذي بين يديك . ورتل ما شاء الله لك أن ترتل من آياته ثم تعال إلى هذه الآيات الكريمة من سورة طه تترك ذلك معنا أكثر وأكثر . .
فها هي المعجزات تتوالى يؤيد بها الله سبحانه موسى –عليه السلام– .
سورة طه الآية ١٩ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ! "
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٣٥)

(٢٩/١)

سورة طه الآية ٢٠ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى سورة طه الآية ٢٢ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ! سورة طه الآية ٢٢ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ " حتى إذا أمره الله سبحانه : سورة طه الآية ٢٤ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قال موسى –عليه السلام– سورة طه الآية ٢٥ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي سورة طه الآية ٢٦ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي سورة طه الآية ٢٧ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي !! سورة طه الآية ٢٨ يَفْقَهُوا قَوْلِي ! سورة طه الآية ٢٩ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي سورة طه الآية ٣٠ هَارُونَ أَخِي و " هارون " هو الذي أخبرناك بأمره من قبل حين وصفه موسى عليه السلام بقوله : سورة القصص الآية ٣٤ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا يوظف بذلك الكفاءات المتخصصة لصالح الرسالة ولأجل إعلاء كلمة الله . . !
يطلب موسى تأييد " الكلمة " وهو المؤيد " بالمعجزات " !

وهكذا كان الدرس . . .
نتلقاه من قديم في الإعلام فما تفوت حكمته على المؤمن حين تمر السنين فتمر بالمئات. .
والآلاف !
إننا في أمس الحاجة لارتياد الكلمات المقدسة التي تنزلت بها عقيدتنا بأعماقها الحكيمة وكما يقول جلاله الملك فيصل –رحمه الله – : في إشارته التاريخية لتحديد مسارات الثقافة الإسلامية .
أرى أن أول شيء يجب القيام به أن نثقف أنفسنا .
في عقيدتنا . . .
في شريعتنا . . .
وديننا . . .

فالكثير منا " الآن " . . يجهل مزايا الشريعة الإسلامية ، والعقيدة الإسلامية لأننا نمر عليها مرورا " سطحيا . . . !

لم نتعمق في مزاياها ، ومنافعها ، وخيراتها للدنيا والدين .

وأنا على يقين ثابت أن إخواننا المسلمين في جميع الأقطار إذا تثقفوا بالثقافة الإسلامية وتفهموا معاني شريعتهم

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٣٦)

وعقيدتهم ، فلن ينصاعوا إلى أي شعارات أو كلمات رنانة " من خطبة جلالة الملك فيصل وفقه الله في موسم حج ١٣٨٩ هـ. .

(٣٠/١)

وكما يشير سماحة الشيخ إبراهيم بن محمد آل الشيخ في خطابه العميق إلى علماء المسلمين ومفكريهم فيقول إن . " للجهاد مراتب . .

فتارة يكون بالسيف والسنان

وتارة باللسان والبيان .

والجهاد عن طريق الكتابة والإقناع والدعوة له تأثير كبير وخاصة في زمننا الذي بدأ كثير من الناس فيه يبعدون عن العاطفة ويبحثون عن الحقيقة ويتلمسون ما يقنع عقولهم" . .

ثم يتحدث عما يحتاجه العلاج فيقول إنه " يتطلب حشد جميع الطاقات العلمية الصالحة . . ! " "

فبحشد الطاقات العلمية التي أشرنا إليها يتبين " للمعاندين " و " المغرضين " صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان " ولهذا يقول سماحة الشيخ محمد بن عودة الأمين العام لهيئة كبار العلماء في كلمته الدقيقة وهو يجيب على ذلك التساؤل الملح :

" هل الأمة الإسلامية تحتاج اليوم إلى مزيد من الكلام المقروء والمسموع عبر وسائل الأعلام؟

فيجيب: " الحق ان الداعية اليوم – هو كأي مؤمن ضالته الحكمة أينما وجدها فهو أحق بها – بحاجة إلى النوعين من الاتصال المباشر لأنهما اليوم جانبان متكاملان يدعم كل منهما الآخر.

إذا استعمال هذا السلاح – أعني أجهزة الاعلام – مهم في معركتنا وأهم من ذلك أن نستعمل هذا السلاح بكل مقدرة وحنكة وذكاء . "

ويقول في موقع آخر " ليس من الحكمة في شيء أن يهملها الداعي ويترك للأعداء فرصة الانفراد بالاستفادة بها " .

وينطلق الدعاة .. حاملين مشكاة النبوة لا تأخذهم في الله لومة لائم ..
كما يقول فضيلة رئيس التحرير الشيخ عثمان الصالح ومن "المملكة العربية السعودية" ومن أقداسها ينطلق كل مصلح ويجاهد كل مناد للسلام والإسلام وما زالت
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٣٧)
ولن تزال هذه الدولة بقيادتها الرائدة وآمالها الصائبة ونظراتها لسانا وسيفا . . " كما اتخذ الدعاة " من هذه الأسرة الكريمة – الأسرة السعودية – سيوفا تحمي هذه الغاية وعرينا يتحصنون فيه لحراسة الحق ونصره . . " .

(٣١/١)

وهكذا كان الأمر حينما فكرنا إصدار " مجلتكم البحوث الإسلامية " في عصر تتصارع فيه أجهزة الإعلام على عقل الإنسان وروحه .
وهكذا اقتضى أمر النزول إلى حلبة الصراع دفاعا عن الإسلام وكلمة الله إلى خلقه . . حتى تكون هي العليا وهكذا كان ميلاد " الخطة " أو قل " فكرة الخطة " لهذه المجلة .
نرجو أن تتكامل ملامحها خلال الأعداد المقبلة من خلال جهد نبذله فنخلص في بذله ما وسعنا الجهد .
" وشورى " نسعى إليها ونتلمس حكمتها أنى وجدناها . .
" وتخصص " نطالب أصحابه بالكتابة إلينا ونحن ندرك ما يحتاجه التخصص من بحث متقن يتطلب جهدا ومراجعة وإخلاصا ومشغلة . .
تلك أمور لا نغفلها ولا نبخل عليها ولا تخرج عن دائرة اهتماماتنا المتصلة .
ثم نحن نأتي بالأبحاث فنعرضها ثم نخرجها في ثوب يليق بالعصر الذي نعيشه . .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٣٨)
مجلة
البحوث الإسلامية
وفي البحث الأول من العدد الأول من مجلتكم تعرضنا " للدين والتدين " وهو أمر غرسه الله في فطرة الإنسان منذ وجد آدمي على أرضنا . . وهي باقية فينا ما شاء الله لنا أن تبقى على هذه الأرض . .
ثم هي في " أنسالنا " حتى يرث الله الأرض ومن عليها .
سورة الأعراف الآية ١٧٢ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ

هذه بداية منطقية . . بدأنا بها .
فما من جماعة بشرية على مدى التاريخ الطويل . . وعلى خلاف بينها كان في بداوة أم حضارة وتخلف أو ارتقاء إلا عرفت الدين .
فهناك من عبد " الشمس " . . . . . .
وذاك من عبد " القمر " . . . . . .
ووجد من عبد " النار "
بل عرفت البشرية من عبد " الشجر " و " البقر " . . و " الثور " . . !!
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٣٩)

(٣٢/١)

وقبل هذا . . وبعده . . ! عبد الناس الناس حتى لقد قالها فرعون يوما : سورة القصص الآية ٣٨ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي وقال لوزيره هامان : سورة القصص الآية ٣٨ فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ؟ " ثم علمت العقول من بعد أن هذه كلها " مخلوقات " . لا تملك لهم " ضرا " ولا " نفعا " ولا " موتا " ولا " حياة " ولا نشورا . ومع ذلك فإن العقول التي وصلت بفطرتها إلى الله ، لا تستطيع أن تستقل استقلالا تاما بمعرفة الله لهذا اقتضت حكمته تعالى أن يرسل للناس رسلا مبشرين ومنذرين . فكان هؤلاء بالنسبة لأممهم بمنزلة العقول من الأشخاص . ولكن على أي صورة بدأت العقيدة الدينية ؟ وهل بدأت الديانات السماوية واستمرت تنزل ديانة إثر ديانة على نمط واحد ثم انتهت وهي على هذا النمط دون تغير ولا تطور ؟ أم أنها بدأت على نمط خاص ثم تطورت إلى أنماط مختلفة ، ثم انتهت بنمط آخر هو نسيج وحده ؟ ثم . . . لماذا اتحدت الشرائع السماوية في أصولها واختلف في فروعها ؟
ثم . . . لم كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، بل وللإنس والجن جميعا ؟
وما موقف البشر من الديانات ومدى تمسكهم بها ؟
وهنا يقدم لنا فضيلة الشيخ محمد حسين الذهبي إجاباته باسترسال منطقي مركز وأسلوب علمي يتماشى مع إيقاع العقل خطوة بخطوة . . في بحثه عن الدين والتدين .

وإذا تأملنا ما أصاب حياتنا البشرية سواء في تاريخها المتناهي قدما أم في تاريخها الحديث من شرور عظمى في اجتماعها أو اقتصادها أو طريقة حكمها أم في حروبها الضارية الفتاكة .
إذا تأملنا كل ذلك فأحسنا تأمله فلا بد أنا رادوه لعدم تطبيق شريعة الله في خلق الله فالله سبحانه وتعالى أدرى بخلقه وما يصلح لهم .

وما من مصيبة تحيق بالناس إلا وهم قد وضعوا بذرتها فأنزلت عليهم حجارة من سجيل وما جرى في حياة الناس من شر ثم استوى فاستغلظ إلا لأنهم ابتعدوا عن تحكيم شريعته .

تلك عمومية لا بد من استقرارها وإقرارها في الأنفس . . ثم تأتي من بعد كل التفاصيل على مهل .

ولذلك يؤكد فضيلة الشيخ مناع القطان في بحثه القيم " وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية " ما حدده الإسلام

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٤٠)

من أن غاية الإنسان في الحياة تتضح من قوله تعالى : سورة الذاريات الآية ٥٦ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم . .

كالحياة . . . . . .

والسمع . . . . . .

والبصر . . . . . .

وكما يعرف الإمام الجليل ابن تيمية العبادة فيقول " العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة " .

إنها الإذعان لله . بينما يعني الخضوع لأي سلطة أخرى خضوعا للطاغوت .

وبهذا يكون " الحكم " بغير ما أنزل الله طاغوتا . .

ويكون " الحاكم " الذي يحكم بغير ما أنزل الله طاغوتا . .

ويكون الخضوع لهذا الحاكم أو لذلك الحكم " عبادة للطاغوت . .

ولا يغرب عن البال أن فهم أمور ديننا يرتبط ارتباطا وثيقا بحسن فهم اللغة العربية فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين . . وكان الحديث النبوي بأفصح بيان عربي .

من هنا تفهم خطورة المحافظة على اللغة العربية . . ومن هنا أيضا تفهم كل المحاولات التي تبذل من أنصار " العامية " للقفز على سور اللغة الإستراتيجي يريدونها خطوة . . !

يعقبها خطوات لهدم هذا الدين وتفريق اللسان العربي الواحد ألسنة شتى . وحاشا لله أن يصلوا لأغراضهم ولهذا فإن النشاط المعادي للإسلام عمد إلى الترويج للهجات العامية لتصبح لغة التأليف والكتابة وخاصة في وسائل المخاطبة الحديثة التي توجه للملايين من جماهير المسلمين . في الصحافة والإذاعة والتليفيزيون وهذا النشاط المعادي إنما " يعمل لهدم اللغة العربية بحسبانها لسان الدين الإسلامي " كما يقول الأستاذ الفاضل أحمد محمد جمال كما أن هؤلاء الأعداء كانوا يفهمون " حقيقة التلازم القوي بين انتشار الإسلام بالعربية وانتشار العربية بالإسلام " . ولقد عدد الكاتب في بحثه خمسة عشر محاولة بين مستشرق ومن سماهم بحق من " العرب المستغربة " للقضاء على " لغة القرآن " و " لغة السنة النبوية " .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٤١)
ومن نفس المنطق اللغوي نقرأ بحث الأستاذ الدكتور مصطفى الزرقا في التفرقة بين أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الحديث النبوي .
وهو يتحدث عن هذا التمايز فيقول : إنه إذا كان من المسلم به لدى أهل البصر الأدبي أنه يتعذر على الشخص الواحد أن يكون له أسلوبان في بيانه يختلفان اختلافا كبيرا فإن ذلك يرد على زعم بعض الأجانب الذين يدعون أن القرآن هو مجموعة من تأليف النبي –عليه الصلاة والسلام– .

(٣٥/١)

ولقد أنزل الله هذا الكتاب الكريم على قلب نبيه . . فهل أنزله ليكون كتابا للجدل والمناقشة ؟ أم جاء ليكون هدى للناس كافة . . يعيشون به نماذج تمشي على الأرض تسكب في جنباتها العدالة والبر والتقوى . لقد جاء القرآن ليتمثل الناس آياته أخلاقا عملية وفي الحديث عن السيدة عائشة أنها سئلت عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت صحيح مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٤٦). كان خلقه القرآن . رواه مسلم . كما في تفسير القرطبي للآية الكريمة سورة القلم الآية ٤ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ وإذن فالقضية قضية أتباع واتباع . . أناس يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وبلغة العصر يعيشون في المعامل والجامعات وفي المزارع والمصانع . . ويسلكون في شئون العلوم والإدارة وفي السلم والحرب وفي المالية والاقتصاد بأخلاق القرآن وتعاليم القرآن .
من هنا تأتي أهمية التراجم :
وكعب بن مالك هذا الذي نقدمه أو قل الذي يقدمه لنا الدكتور محمد محمد خليفة قد أسلم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وافتدى الإسلام بسيفه قبل قلمه . .

فمنذ التقى بالرسول صلى الله عليه وسلم وعرفه به العباس قائلا : هذا كعب بن مالك ! !
فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الشاعر ! ؟
منذ ذلك التاريخ وكعب مع حركة المد الإسلامي حتى وفاته . .
ولكن شاعرنا هذا بطل السيف والقلم لما جرت به الحياة كما تجري بالناس وقعت الدنيا في قلبه . .
!
وكان أن تخلف عن غزوة تبوك . .
وهو إذا تخلف كان بارزا . . بارزا في صدقه . . يقول :
ما تخلفت عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أني كنت قد تخلفت في غزوة بدر ، وكانت غزوة لم يعاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا تخلف عنها ، وتخلفت في تبوك و " كنت قويا ميسورا ! "
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٤٢)

(٣٦/١)

فانظر – وإنا لنتأمل معك – كيف يكون النموذج الصادق مع نفسه ومجتمعه . إنه لا يتسربل برداء الإسلام ثم يزيد من إحكام مظاهره حول نفسه كلما بعد عن تطبيقه في نفسه وسلوكه . . ! ؟
ولقد استمعت إلى حواره مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأني أشهد مجلسهما بعد عودته صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك يقول : يا رسول الله . . لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بضرر ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب لترضين عني وليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه ، إني لأرجو عقباي من الله " .
وإننا لنتلفت من حولنا ، ونتأمل ما يجري في عالمنا فنزداد يقينا – نعتقد أنكم تشاركوننا فيه – بأن المجتمع العالمي لا يمكن أن تصلح حاله إلا بمثل هذه التربية تغوص وتستقر في أعماق الضمائر .

ثم تنتقل بنا الرؤيا إلى درة من الدرر التي صاغها الإسلام في عقده الفريد .
" مسلمة بن عبد الملك " .
جندي . . قائد جيش . . تربى وروى الحديث عن عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين . .
فإذا اقترن اسمه باسمه عمر . . فكيف تظنون سيرته بعد ذلك ؟
ظل أبو سعيد مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي الأموي الدمشقي يحمل سلاحه أكثر من خمسين عاما يصون به حرمات المسلمين . وكان كما يقول الدكتور أحمد الشرباصي نقلا عن

ابن كثير " كان في زمانه نظير خالد بن الوليد في أيامه ، وحينما أوصى عبد الملك بن مروان أولاده وفيهم مسلمة قال عنه " يا بني أخوكم مسلمة ، نابكم الذي تفترون عنه ، ومجنكم الذي تستجنون به ، أصدروا عن رأيه " .
وقبل أن نعد المعارك التي دخلها وهي كثيرة لا بد لنا أن نتأمل حقيقة الصلة التي ربطت بينه وبين الخليفة الراشد فقد كانت السبب الجوهري في تكوينه على هذا المنوال . حتى آخر لقاء بينه وبين عمر –رضي الله عنه– على فراش موته .

(٣٧/١)

وتمر الأيام . . يداولها الله بين الناس فيتلقى منهم من شاء له الله الهداية من مرورها وتداولها ما شاء من الحكمة . . سورة البقرة الآية ٢٦٩ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ! وكان من فضله علينا ألا يعامل هذه الأمة
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٤٣)
كما عامل اليهود حين قست قلوبهم . . إذ حملوا التوراة ثم لم يحملوها . . ؟ فيرسل الله من يذكر هذه الأمة بدينها . . ففي بلدة العينية ومن بيت علم محافظ ولد الشيخ المصلح محمد بن عبد الوهاب عام ١١١٥ هـ ١٧٠٣ ميلادية حتى إذا شب نهل المعرفة وطلب العلم في الحجاز والعراق . ويشب فيلقى ما يلقى من عنت واضطهاد وهو يصلح ما أفسده تقادم العهد على شريعة السماء . ويضيق عليه وتصادر حريته حتى ينزح بعد سلسلة الاضطهادات إلى بلدة الدرعية عاصمة ملك آل سعود (شمال الرياض) ويتعاقد مع أميرها محمد بن سعود على نشر تعاليمه التي هي في الواقع تعاليم الإسلام الصحيح وكانت النتيجة المنطقية لهذا التحالف بين السيف والكتاب أن اتسع نطاق الإصلاح تحت ظلال العلم الأخضر الذي يحمل شعار الإسلام وكلمته .
وإذ يتوفى المصلح سنة ١٢٠٦ هـ – ١٧٨٧ م تستمر الدعوة على يد ذريته من بعده بأفضل شريعة جاءت من السماء . ويشاء الله سبحانه إذ يتوفى رأس الدولة السعودية الأولى محمد بن سعود أن يظل سيف الله مسلولا بيد أبنائه من بعده يناصرون به الحركة الإصلاحية الدينية . ويعاضدون خلفاء المصلح حتى الوقت الحاضر . رافعين رايات الإسلام في زمن يتطلع فيه أكثر من سبعمائة مليون مسلم إلى مكانتهم في عالم تجتاحه الردة والإلحاد والأنشطة المعادية للإسلام .

وقبل أن تقوم المجلة بعرض مجموعة الفتاوي القيمة الصادرة عن هيئة كبار العلماء في ثلاثة أقسام رئيسية .
* في العبادات .

* في الاقتصاد .
* في الفنون والآداب .

(٣٨/١)

فإننا نعرض للبحث القيم الذي قام به وأعده الأستاذ عبد العزيز الربيعة المدرس بكلية اللغة العربية حول المفتي في الشريعة الإسلامية . " ذلك المنصب العظيم ، الذي يتصدى صاحبه لتوضيح ما يغمض على العامة من أمور دينهم ، ويرشدهم إلى المناهج المستقيمة ، التي في سلوكهم لها فلاحهم ونجاحهم ، ولهذا سموا أولي الأمر ، وأمر الناس بطاعتهم . . . ولكي يتبعهم الناس فإنه ينبغي أن يتحلوا بحسن السيرة والورع والعفةعن كل ما يخدش الكرامة وأن يكون المفتي كما يقول الإمام القرافي (–رحمه الله–) . . .
" قليل الطمع . .
كثير الورع . .
فما أفلح مستكثر من الدنيا ، ومعظم أهلها وحطامها " .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٤٤)
بل إنه ينبغي له أن يتجاوز صفاء الجوهر إلى حسن المظهر وجمال الزي الذي يتناسب مع الوضع الشرعي إذ الخلق مجبولة على تعظيم الصورة الظاهرة . . ! ورحم الله عمر بن الخطاب إذ يقول : " أحب إلي أن أنظر القارئ أبيض الثياب . . أي ليعظم في نفوس الناس ، فيعظم في نفوسهم ما لديه من الحق . . أما من ناحية التطبيق فمن البديهي أن يبدأ المفتي بنفسه في كل خير يفتي به فذلك أدعى لقبول أقواله لدى سامعيه .
وليس أدل على أهمية موضوع المفتي من قول الأستاذ عبد العزيز الربيعة : " كان الواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية في أفرادها ، ومن يتصدر للفتيا في دين الله ، سبب قوي جعلني أفكر في موضوع هذا البحث . . . كما كان لبعض جوانبه أثر في نفس أقوى من الجوانب الأخرى ، تلك هي ما يتصل بالأسس الأصيلة التي ينبغي عليها تكوين المفتي ، والمطالب الهامة التي ينبغي أن يتصف بها ويترسمها في حياته العامة . . "

وبهذا يكون قد آن الأوان لنقدم لك مجموعة الفتاوي الهامة التي تقدمها اللجنة الدائمة للبحوث العلمية وهي ثلاثة رتبناها على النحو التالي .
البحث الأول في العبادات : عن حكم السعي فوق سقف المسعى .

والبحث الثاني في الاقتصاد : عن حكم الأوراق النقدية .
والبحث الثالث في الفنون والآداب : ويتناول حكم تمثيل الصحابةفي فيلم أو مسرحية .

والسعي فوق سقف المسعى يأخذ حكمه من الآتي : إذا كان حكم أعلى الأرض وأسفلها تابع لحكمها في التملك والاختصاص فيمكن أن يقال تبعا لذلك أن السعي فوق الطابق الذي جعل سقفا لأرض المسعى له حكم السعي على أرض المسعى .
ويستفاد من رواية أم سلمة حين اشتكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : صحيح البخاري الصلاة (٤٥٢)،صحيح مسلم الحج (١٢٧٦)،سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٢٥)،سنن أبو داود المناسك (١٨٨٢)،سنن ابن ماجه المناسك (٢٩٦١)،مسند أحمد بن حنبل (٣١٩/٦)،موطأ مالك الحج (٨٣٢)،سنن الدارمي الطهارة (٧٤٢). طوفي وأنت راكبة وغير ذلك من الأدلة التي ساقها البحث . فإنه إذا جاز للحاج أن يطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة راكبا لعذر باتفاق . بل إذا جاز لغير المعذور أن يسعى راكبا وإن كان المشي له أفضل وفيها خلاف إن كان يجزئه وعليه شيء أو لا شيء عليه فمن باب أولى القول بجواز السعي فوق سقف المسعى . .
وهكذا يستطرد البحث في سرد الأدلة على جواز السعي على هذه الصورة .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٤٥)
وأما البحث الثاني فيتناول ما قيل من أقوال فقهية في حقيقة الأوراق النقدية من حيث اعتبارها أسنادا أو عروضا أو فلوسا أو بدلا عن ذهب أو فضة أو نقدا مستقلا وما يترتب على ذلك من أحكام شرعية . كما استمعت هيئة كبار العلماء إلى آراء بعض المتخصصين في النقد والعلوم الاقتصادية .
وقد انتهت الهيئة بأكثريتها من ذلك إلى القول بأن الورق النقدي يعتبر نقدا قائما بذاته كقيام النقدية في الذهب والفضة وغيرهما من الأثمان . ويترتب على ذلك أحكام هامة انتهى إليها البحث وعلى سبيل المثال فإننا نذكر منها :
١ – جريان الربا بنوعيه فيها كما يجري في الذهب والفضة وما يترتب على ذلك من أحكام .

٢ – وجوب زكاتها إذا بلغت قيمتها أدنى النصابين من ذهب أو فضة وكانت تكمل النصاب مع غيرها من الأثمان والعروض المعدة للتجارة إذا كانت مملوكة لأهل وجوبها .

إذ ننتهي من ذلك البحث القيم فإننا ننتقل لبحث كثر فيه الجدل وتناولته أجهزة الإعلام وتداوله الناس في مجالسهم . . عن حكم تمثيل الصحابة في شكل رواية أو مسرحية أو فيلم سينمائي . فيتعرض البحث لمكانة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ويتحدث عن مشاهدة التمثيل . وحال محترفي التمثيل . وأغراض التمثيل والمؤلفات التاريخية كما يتعرض لفتاوي الشيخ رشيد رضا –رحمه الله– . وقرار رابطة العالم الإسلامي . وحكم اشتغال المرأة المسلمة بالتمثيل ثم تطرق إلى السؤال : هل يمكن تمثيل الأنبياء ؟
كما ورد في البحث فتوى لجنة الفتوى بالأزهر الشريف عن حكم تمثيل الشخصيات الإسلامية .
وتبتدي أهمية البحث لما له من اتصال يومي عملي بمصالح ملايين المسلمين في مواجهة " الغزو الإعلامي المنظم للنفسية الإسلامية " . .
الأمر الذي دعا أحد الديبلوماسيين المصريين وكان قد شاهد بعض الأفلام المصرية في أندونيسيا إلى القول لقد " كان لتفاهتها أسوأ الأثر في نفوس الذين شاهدوها لدرجة اضطرت معها سفارتنا هناك إلى التدخل والنصح باتباع سياسة معينة في هذا الشأن " .
ويقول الأستاذ محمد علي ناصف مجلة الأزهر المحرم ١٣٨٢ (قصص الأنبياء في السينما) " إن بعض الأفلام الدينية التي رخصنا بصنعها ولا تزال تعرض حتى الآن لا يرغب أعداء المسلمين في أكثر من الحصول على حق توزيعها . . فقد نلنا من شخصية خالد بن الوليد في هذا الفيلم ما عجز عن نيله الروم والفرس . . . ! ! " .
بل لقد بلغ الأمر أن المخرج سيسيل دي ميل كان يبحث عن ممثل يسند إليه القيام بتسجيل " صوت الله " باللغة
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٤٦)
العربية في الطبعة التي ستوزع من فيلم الوصايا العشر في البلاد الإسلامية . . . ؟ ؟

(٤١/١)

فإذا انتهينا من ذلك فإننا نقدم موضوعا للأستاذ عبد الفتاح الحلو عن تراجم الفقهاء . . يعقبه كتاب العدد عن الفقيه الإمام أبو داود . . فعن طريق معرفة حياة الفقيه الخاصة والعلمية وما لقيه في حياته من يسر أو عسر ، وأساتذته الذين درس عليهم ، ورحلاته . . . إلخ . عن طريق كل ذلك كما جاء في موضوع تراجم الفقهاء . . تتاح لنا الرؤية الصحيحة لعلم الفقيه ، كما تكشف في نفس

الوقت المصدر الأصلي لكل قول في المسائل الفقهية التي ندرسها ، كما أن هذه الكتب تعرض فيما تعرض مثلا عليا عاش عليها الفقهاء ، وسلوكا رائعا في مواجهة من يريدون طمس الحق ، أو تزوير العدالة وفي تقديم مثل هذه التراجم – وهو ما حدث في كتاب العدد الذي قام به فضيلة الشيخ محمد الصباغ خير قيام ما ينشئ الأجيال على أسس راسخة قوية لا تستغني أمة تريد البقاء عنها .

ورغبة من المجلة في تسجيل أهم الأحداث العلمية في المملكة حتى يتسنى للعلماء المسلمين خارج المملكة أن يطلعوا عليها وأن يتصلوا بمصادرها الأصلية إن شاءوا دراسة كاملة لها . فقد حرصنا أن نقدم موجزا عن ثلاثة مؤتمرات :

١) المؤتمر العربي لشئون المخدرات وقد انعقد في الفترة من ٢٥ – ٣٠ شوال بالرياض .

٢) مؤتمر رسالة الجامعة من ٢ – ١١ – ١٣٩٤ إلى ٥ – ١١ – ١٣٩٤هـ .

٣) المؤتمر الاقتصادي العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي وينعقد في شهر ربيع الأول ١٣٩٥ بجامعة الملك عبد العزيز .

ويكفي للدلالة على النهضة العلمية التي تضطرم بها جنبات المملكة في عهد جلالة الملك فيصل – رحمه الله – .

إن مؤتمر المخدرات قد اشترك فيه ست وعشرون دولة وأربع عشرة منظمة عربية ودولية وثماني جامعات عربية ومركز للأبحاث عدا سبع جامعات من المملكة وحدها وقد استضافته المملكة رغم أنه " لا تزال ظاهرة استعمال

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٤٧)

(٤٢/١)

المخدرات لدينا محدودة بفضل ما تتمتع به المملكة من وضع اجتماعي مستقر ومن تطبيق للشريعة الإسلامية السمحة " . كما صرح بذلك صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز نائب وزير الداخلية في حفل افتتاح مؤتمر المخدرات .

أما مؤتمر رسالة الجامعة فقد اشترك فيه ٢٤٩ عضوا من أساتذة الجامعات والباحثين وكبار الموظفين في مختلف وزارات الدولة وأجهزتها وبفضل الإخلاص والتنظيم العلمي فقد بحثت موضوعات على جانب كبير من الأهمية واستطاع المؤتمرون أن يخرجوا بمائة وست وثلاثين توصية سوف يكون لها أثرها العميق في تطوير رسالة الجامعة وفي تقدم المملكة العربية السعودية في ظل رائدها القائد الإسلامي المحنك جلالة الملك فيصل –رحمه الله – .

أما المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي فيكفي للدلالة على أهميته أنه يعتبر المؤتمر الأول

من نوعه في العالم .
وأنه يقوم بعبء رسالة من أجل الرسالات وفي مقر الرسالة الأول ومبعثها في مكة المكرمة نسأل الله التوفيق .
ونسأله أن نكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .
التحرير

(٤٣/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٤٨)
سورة الأعراف الآية ٥٨
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ

(٤٤/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٤٩)
محمد حسين الذهبي
أمين عام مجمع البحوث الإسلامية –أستاذ بكلية أصول الدين– جامعة الأزهر .
الدين والتدين
مفهوم الدين
لفظ الدين يطلق في اللغة العربية على معان متعددة :
فيطلق تارة ويراد منه الجزاء ، ومنه قوله تعالى : سورة الفاتحة الآية ٤ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ أي يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة .
ويطلق تارة ثانية ويراد منه الحكم والسلطان ، ومنه قوله تعالى : سورة يوسف الآية ٧٦ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ أي في حكمه وسلطانه .
ويطلق ثالثة ويراد منه العادة والشأن ، ومنه قول الشاعر :
تقول وقد ذرأت لها وضيني ... أهذا دينه أبدا ودِيني ؟
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٥٠)
أي شأنه وشأني .
ويطلق رابعة ويراد منه الطاعة والانقياد ، يقال : دان له دينا وديانة : أي خضع ، وذل ، وأطاع .

ويطلق خامسة ويراد منه ما يتدين به الإنسان ، يقال : دان بكذا ، أي اتخذه دينا وتعبد به انظر مادة (دين) في القاموس المحيط ، والمعجم الوسيط . .

وكلامنا في هذا البحث عن الدين بالمعنى الأخير ، وهو ما يتدين به الإنسان ، ولا شك أنه بهذا المعنى يدخل في مفهومه المعنى الذي قبله مباشرة ، وهو الخضوع والذل والطاعة ؛ لأن من دان بدين يخضع لتعاليمه ، وينقاد لها ، ولا يحيد عنها ، كما أنه ليس بعيدا عن سائر المعاني الأخرى ؛ لأنها كلها تدور حول معنى واحد ، هو الانقياد والخضوع لسلطان معين .

أما الدين في نظر علماء الأديان ، فقد عرفه بعضهم بأنه : " وضع إلهي سائق لذوي العقول – باختيارهم إياه – إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل ، وهذا يشمل العقائد والأعمال " دائرة المعارف للبستاني مادة (دين). .

(٤٥/١)

ومعنى هذا ، أن لفظ الدين عند هؤلاء ، لا يتناول إلا الأديان السماوية : كاليهودية والمسيحية والإسلام ، أما غيرها من الأديان التي اصطلح عليها بعض الناس دون أن يكون لها صلة بالسماء ، فليست دينا في نظرهم .

ويرى فريق آخر من العلماء : أن الدين هو " عبارة عن الإيمان والعبادة مهما كانا ، فإيمان الوثنيين دين . أو هو عبارة عن الإيمان بقوة أو قوات سائدة تحكم الأرض ، وعن عبادة تلك القوة أو القوات ، فيقال : دين حق ، ودين باطل " المرجع السابق. .

ومعنى هذا : أن الدين عند هؤلاء يشمل الأديان السماوية وغيرها من الأديان التي هي من صنع البشر ، ولا تمت إلى الله بسبب ، وقد يشهد لهذا ، أن الله سمى الديانات غير الحقة دينا فقال : سورة آل عمران الآية ٨٥ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين ، وقال : فيما أمر به نبيه محمدا – صلى الله عليه وسلم – أن يقوله لكفار قريش : سورة الكافرون الآية ٦ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين . والواقع أنه لا خلاف بين الفريقين : فالفريق الأول نظر نظرة خاصة ، والفريق الثاني نظر نظرة عامة ، ونحن في بحثنا عن الدين والتدين كظاهرة اجتماعية لا نقصد المعنى الخاص ، لا موسعا بحيث يشمل الأديان السماوية كلها ، ولا مضيقا بحيث يقتصر على الإسلام وحده ، وإنما نقصد المعنى العام الذي يشمل الأديان كلها : سماويها وأرضيها .

(٤٦/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٥١)

مفهوم التدين

أما التدين ، فهو التمسك بعقيدة معينة ، يلتزمها الإنسان في سلوكه ، فلا يؤمن إلا بها ، ولا يخضع إلا لها ، ولا يأخذ إلا بتعاليمها ، ولا يحيد عن سننها وهديها . ويتفاوت الناس في ذلك قوة وضعفا ، حتى إذا ما بلغ الضعف غايته ، عد ذلك خروجا عن الدين وتمردا عليه .

الدين والتدين كظاهرة اجتماعية :

وظاهرة الدين والتدين ، وجدت في المجتمعات الإنسانية من أول وجود الإنسان ، وبقيت إلى يومنا هذا ، وستبقى بعد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا أردنا أن نعرف كيف بدأت هذه الظاهرة ؟ وكيف تطورت ؟ وإلى أي وضع انتهت ؟ فلست أجد خيرا – في هذا الباب – من كلمة أنقلها عن رسالة التوحيد ، للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، لتنير أمامنا الطريق لمعرفة هذا كله ، ولتكون ركيزة نعتمد عليها في تجلية هذا الموضوع وتوضيحه .

قال –رحمه الله– " كل إنسان – مهما علا فكره وقوي عقله ، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته – يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة من أنس منه الغلبة عليه مما حوله ، وأنه محكوم بإرادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم في وجوه قد لا تعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرق إليها إرادة المختارين ، تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى ، فتطلبها من حسها تارة ، ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها إلا الطريق التي حددت لنوعها ، وهي طريق النظر ، فذهب كل في طلبها وراء رائد الفكر : فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات ، لكثرة نفعها ، أو شدة ضررها ، ومنهم من تمثلت له في بعض الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حجبته الأشجار والأحجار لاعتبارات له فيها ، ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة في أنواع متفرقة تتماثل في أفراد كل نوع ، وتتخالف بتخالف الأنواع ، فجعل لكل نوع إلها " .

(٤٧/١)

" ولكن كلما رق الوجدان ، ولطفت الأذهان ، ونفذت البصائر ، ارتفع الفكر وجلت النتائج ، فوصل من بلغ به علمه المنازل من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة ، واهتدى إلى أنها قدرة واجب الوجود ، غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه فلم يسلم من الخبط فيه ، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة في قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه ، فبقي الخلاف ذائعا ، والرشد ضائعا " .

" اتفق الناس في الإذعان لما فاق قدرهم ، وعلا متناول استطاعتهم ، لكنهم اختلفوا في فهم ما تلجئهم الفطرة إلى الإذعان له اختلافا كان أشد أثرا في التقاطع بينهم ، وإثارة أعاصير الشقاق فيهم ،

مع اختلافهم في فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم " .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٥٢)
إن كان الإنسان قد فطر على أن يعيش في جملة ، ولم يمنح من تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل – مثلا – من الإلهام الهادي إلى ما يلزم لذلك ، وإنما ترك إلى فكره يتصرف به على نحو ما سبق ، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته ، ولم يفض عليه – مع ذلك الشعور – عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته ، وإنما ألقي به في مطارح النظر تحمله الأفكار في مجاريها ، وترمي به إلى حيث يدري ولا يدري ، وفي كل ذلك الويل على جامعته ، والخطر على وجوده " .
" أفهل مني هذا النوع بالنقص ، ورزئ بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها في منازل الوجود ؟ نعم هو كذلك ، لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه " .
" الإنسان عجيب في شأنه : يصعد بقوة عقله إلى أعلا مراتب الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ، ويسامي بقوته ما يعظم أن يسامي من قوى الكون الأعظم ، ثم يصغر ويتضاءل إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ، ذلك لسر عرفه المستبصرون ، واستشعرته نفوس الناس أجمعين " .

(٤٨/١)

" من ذلك الضعف قيد إلى هداه ، ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى شرف سعادته . . فأقام (الله) زدنا على النص لفظ الجلالة ليستقيم الكلام بعد حذف بعض عبارات رأينا إمكان الاستغناء عنها. له من بين أفراده مرشدين هادين ، وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم ، وأيد ذلك – زيادة في الإقناع – بآيات باهرات ، تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذي الطامح ، ويذل الجامح ، ويصطدم بها عقل العاقل ، فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه ، يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الأذهان له ، ويستوي في الركون لما يجيئون به المالك والمملوك ، والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضول والفاضل ، فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري ، يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يعلموه من شؤون ذاته وكمال صفاته ، وأولئك هم الأنبياء والمرسلون رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٨٠ – ٨٣. .

(٤٩/١)

معنى هذا باختصار

أولا : أن ظاهرة الدين والتدين ظاهرة عامة تشترك فيها كل الجماعات البشرية على مدى تاريخها الطويل ،

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٥٣)

وعلى اختلاف ما بينها من بداوة وحضارة ، وتخلف وارتقاء .

ثانيا : أن مبعث هذه الظاهرة ، إحساس كل فرد في جماعة بأن هناك قدرة أو قدرا تتصرف فيه وفيما حوله تصرفا يلفت النظر ويبهر العقل ، فيستشعر من نفسه ميلا قويا لمعرفة مصدر هذه القدرة التي لها عليه وعلى غيره هذا الأثر العجيب .

ثالثا : أن العقول حينما تبحث عن الحقيقة دون أن يكون لها مدد من السماء ، لا يمكن أن تتفق على شيء واحد تؤمن به وتخضع له ، وإنما تتشعب بها السبل ، فإذا هي مختلفة في ذلك اختلافا كبيرا :

هناك عقول مشت على فطرتها فوصلت إلى مءرفة الله ، وهناك عقول مشت على غير فطرتها فنظرت نظرة ساذجة إلى ما حولها من مصادر القوة والتأثير فيها أو فيما يحيط بها ، فإذا بجماعة تعبد الشمس وأخرى تعبد القمر ، وثالثة تعبد النار ، ورابعة تعبد الشجر ، وخامسة تعبد البقر . . وغير هؤلاء كثيرون يعبدون آلهة شتى ، وكلها مخلوقات لله ، لا تملك لهم ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا .

رابعا : أن هذه العقول التي وصلت بفطرتها إلى الحقيقة الحقة وهي الله ، لا تستطيع – مهما سمت وارتقت – أن تستقل استقلالا تاما بمعرفة كل ما يتصل بالله ، وما غيبه عنها من عالم الآخرة التي نوقن أنه نهاية المطاف بعد هذه الحياة الدنيا ، كما أنها لا تستقل بمعرفة الخير والشر ، وما يجب أن يلتزم به الإنسان في حياته الدنيا : من عبادات ، ومعاملات ، وأخلاق ، حتى لا يضل ولا يشقى .

خامسا : لما تقدم ، اقتضت حكمة الله – تعالى – ورحمته بعباده ، أن يرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين ، يدعونهم إلى الدين الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

(٥٠/١)

هؤلاء الرسل بالنسبة لأممهم – كما يقول الأستاذ الإمام – بمنزلة العقول من الأشخاص رسالة التوحيد ص ٩١ . ، وأزيد على هذا فأقول : إنها العقول الهادية التي لا تضل ، والواعية التي لا

تغفل ، لأنها عقول أعدها الله وهيأها لتخليص البشرية من أباطيلها وأوهامها ، وإنقاذها من شرورها وآثامها ، وهدايتها إلى ما فيه خيرها وسعادتها .

ولكن على أية صورة بدأت العقيدة الدينية ؟ هل بدأت ساذجة فكانت خرافة ووثنية ؟ أو بدأت واعية مدركة للحقيقة الإلهية ؟

لقد افترق الباحثون في تاريخ الأديان في ذلك إلى فريقين :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٥٤)

* فريق منهم " يذهب إلى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد ، كما تدرج نحو الكمال في علومه وصناعته .

هذه النظرية نادى بها أنصار مذهب (التطور التقدمي أو التصاعدي) الذي ساد في أوربا في القرن التاسع عشر في أكثر من فرع من فروع العلوم ، وحاول تطبيقه على تاريخ الأديان عدد من العلماء الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٠٢. " .

* وفريق آخر " يقرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب ، ويثبت بالعكس أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر ، مستدلا بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ، فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة ، أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة . وهذه هي نظرية (فطرية التوحيد وأصالته) التي انتصر لها جمهور من علماء الأجناس ، وعلماء الإنسان ، وعلم النفس المرجع السابق. " . ولا نريد أن نطيل بذكر مناقشة هذا المذهب أو ذاك ، فقد تولى هذه المناقشة أستاذنا الفاضل المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (الدين) ص١٠٣ – ١٠٨ بأسلوب شيق ومنطق بارع . وكلمة الفصل في هذا الموضوع هي قوله في نهاية المطاف :

" هكذا عجزت وسائل العلوم أن تقدم لنا بيانا شافيا يطمئن إليه القلب عن ديانة الإنسان الأول . أما من أحب أن يسترشد بنصوص الكتب السماوية ، فإنه سوف يجد فيها ما يشد أزر القائلين بأولية العقيدة الإلهية الصحيحة ، لا في الغريزة فحسب سورة الروم الآية ٣٠ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا بل في التطور الزماني كذلك ، فهذه النصوص تنادي بأن الناس بدأوا حياتهم مستقيمين على الحق ، مؤتلفين عليه ، وأن الانحراف والاختلاف إنما جاء عرضا طارئا بعد ذلك سورة يونس الآية ١٩ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وأن استمرار هذا الاختلاف واتساع شقته إنما كان

بتأثير الوراثة ، وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين فيه صحيح البخاري الجنائز (١٢٩٢)،صحيح مسلم القدر (٢٦٥٨)،سنن الترمذي القدر (٢١٣٨)،سنن أبو داود السنة (٤٧١٤)،مسند أحمد بن حنبل (٢٧٥/٢)،موطأ مالك الجنائز (٥٦٩). كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه إلى ذلك كله فإن الكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك وشأنها ، تستلهم غرائزها وحدها بغير مرشد ومذكر ، بل تعهدتها السماء بنور الوحي من أول يوم ، فكان أبو البشر هو أول الأفذاذ الملهمين ، وأول المؤمنين الموحدين ، وأول المتضرعين الأوابين الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٠٨. .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٥٥)

وإذا كانت النتيجة هي أن الديانات السماوية هي الأصل ، وأن لها السبق في الوجود الديني ، وأن ما اعتراها من شوب أو خلل وما زاحمها من ديانات وضعية باطلة ، إنما هو محض شذوذ وانحراف صدر عن فئات ضالة مضلة . . إذا كانت النتيجة هي هذا ، فلنا أن نتساءل :

هل بدأت هذه الديانات السماوية واستمرت تتنزل ديانة إثر ديانة على نمط واحد ، ثم انتهت وهي على هذا النمط دون تغير ولا تطور ؟

(٥٢/١)

أو أنها بدأت على نمط خاص ، ثم تطورت إلى أنماط مختلفة ، ثم انتهت بنمط آخر هو نسيج وحده ؟

الواقع أن الأديان السماوية كلها جاءت متفقة ومختلفة : متفقة في أصولها ، مختلفة في فروعها ، كلها يتفق على الجوهر والحقيقة . . على أصول العقيدة ، وأصول الشريعة : فهي جميعا تدعو إلى الإيمان بالله وحده ، والإيمان بكل ما جاء عنه ، والأخذ بكل ما يصل بالإنسان إلى الخير ويباعد بينه وبين الشر .

والقرآن الكريم يصرح بوحدة الديانات السماوية كلها في الأصل والجوهر ، فيقول :

سورة الشورى الآية ١٣ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .

أما فروع الشرائع وتفاصيلها ، وسورها وطقوسها ، فتختلف فيها الديانات السماوية اختلافا ظاهرا .

فمثلا فريضة الصلاة ، جاءت بها كل الشرائع السماوية ، ولكنها تختلف صورها من شريعة إلى شريعة : فهي في الشريعة الإسلامية قيام ، وقراءة ، وركوع ، وسجود على كيفية معروفة ، وفي الشريعة المسيحية ترانيم وتراتيل تتلى على هيئة خاصة .

ومثلا فريضة الصيام : جاءت بها كل الشرائع السماوية ، كما يصرح بذلك قوله تعالى : سورة البقرة الآية ١٨٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون ، ولكنها تختلف صورتها من شريعة إلى شريعة ، فالصوم في الشريعة الإسلامية : إمساك عن الطعام والشراب والنساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، وفي الشريعة المسيحية : إمساك عن أكل كل ذي روح من الحيوان وما يتولد منه في وقت معين . . . .

(٥٣/١)

وهكذا تختلف الشرائع السماوية في أمور كثيرة كلها فرعية غير أصلية وذلك في الحقيقة – كما أوضحناه – اختلاف في الأسلوب والمنهج لا في الجوهر والهدف ، وقد جاء ذلك صريحا في قوله تعالى :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٥٦)

سورة المائدة الآية ٤٨ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .

أما لماذا اتحدت الشرائع السماوية في أصولها واختلفت في فروعها ؟ فذلك لأن الأصول ثابتة لا تتغير بحال من الأحوال ، فالله – سبحانه – هو الله بذاته وصفاته لا يتغير ولا يتحول أبدا ، والرسل – في كل أمة – هم الرسل بما يجب لهم وما يجوز في حقهم ، والكتب المنزلة – على مدى تاريخ الرسالات – هي الكتب المنزلة بما لها من قداسة وتعظيم ، وكل ما جاء عن الله حق ثابت ، وصدق لا ينقض ، وأصول الأخلاق ، والعبادات ، والمعاملات ، أدب متبع وطاعة ملتزمة ، ولا يحيد عن ذلك إلا ضال هالك .

أما الفروع : فهي التي يعتريها التغير والتبديل ، ويتناولها التعديل والتطوير ، لأنها ليست أكثر من تطبيق للأصول في صور شتى ، ولا بد لهذه الصور أن تختلف تبعا لاختلاف أحوال المكلفين واستعدادهم ، وما يحيط بهم من عوامل وظروف كثيرا ما يكون لها دخل في التكاليف : فما يصلح لزمان قد لا يصلح لزمان آخر ، وما يلائم طبيعة قوم قد لا يلائم طبيعة قوم آخرين .

وإذا نحن تتبعنا الأطوار التي مرت بها البشرية في مراحلها المختلفة ، نجد أنها أشبه ما تكون بالأطوار التي يمر بها الإنسان في حياته ، فهو يبدأ بمرحلة الطفولة ، ثم يتدرج في مراحل أخرى ، ينمو فيها جسمه وعقله حتى يصل إلى مرحلة الرجولة الكاملة والنضج التام .

(٥٤/١)

والبشرية في أول مراحلها بدأت كالطفل : فيها ما فيه من الضعف وعدم الاحتمال ، فكان لا بد لها في هذه المرحلة من غذاء روحي يتناسب مع طبيعتها وقدرتها على تقبل هذا الغذاء وهضمه ، ثم هي بعد ذلك تمر – متدرجة في مراتب الكمال – بمراحل متتابعة كل مرحلة تزيد فيها عن سابقتها نموا وقدرة وتقبلا ، وهي في كل مرحلة من هذه المراحل تحتاج إلى نوع من الغذاء الروحي يتناسب مع ما هي عليه من درجة النمو والقدرة والتقبل . . . وأخيرا تبلغ البشرية تمام نضجها وغاية رشدها فتحتاج في هذه المرحلة الأخيرة إلى غذاء روحي يلائمها كما ونضجا .

هذا الغذاء الروحي الذي أمد الله به البشرية في أطوارها ومراحلها المختلفة هو الدين ، وحملة هذا الدين إلى البشرية هم الأنبياء والمرسلون ، ومجموعة هذه الرسل – كما صورهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في حديث له – بناة بيت واحد يؤسس سابقهم للاحقهم ، ويشيد لاحقهم على أساس سابقهم الإسلام عقيدة وشريعة للمرحوم الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ص ٣٧. " . .

صورهم الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا في حديث له فقال : صحيح البخاري المناقب (٣٣٤٢)،صحيح مسلم الفضائل (٢٢٨٦)،مسند أحمد بن حنبل (٣١٢/٢). مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة . قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٥٧)

(٥٥/١)

ومعنى هذا : أن الديانات السماوية تكون في مجموعها صرحا واحدا ، اشترك الأنبياء جميعا في بنائه ، فما من نبي بعث إلا وقد وضع فيه لبنة ، حتى إذا شارف البنيان النهاية ولم يبق منه إلا موضع لبنة بها يتم صلاحه ويكمل حسنه ، بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم مبشرا بالإسلام وداعيا له ، فكان –عليه الصلاة والسلام– بما جاء به من الدين الإسلامي – اللبنة المتممة للبناء ، المكملة لحسنه وجماله ، وبه أتم الله صرح الديانات التي تعاقبت جيلا بعد جيل .

وهكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بدين أعلى ما يكون هداية وإرشادا ، وأسمى ما يكون تشريعا وتبصيرا ، وختم الله برسالة محمد صلى الله عليه وسلم الرسالات ، وجعلها للناس كافة ولم تكن لقومه خاصة .

ولكن لم كانت رسالة محمد هي خاتم الرسالات ؟ ولم كانت للناس كافة ولم تكن لقومه خاصة ؟ . .

نجيب على ذلك فنقول :

أما لم كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسالات ؟

فذلك أمر بدهي وطبعي ، فما دمنا قد عرفنا أن الإسلام قد بلغ الغاية في هدايته وتشريعه ، ضرورة أنه جاء لإسعاد البشرية في أرقى مراحلها وأوج كمالها ، فأي شئ يرجى للبشرية بعد ذلك ؟ . . . أي شئ يرجى لها بعد الكمال الذي لا كمال بعده ؟ . . . لا شيء إلا أن تمشي البشرية معتصمة به إلى نهايتها إذ ليس بعد الكمال غاية ، ولا بعد بلوغ المنتهى نهاية ، والله تعالى يقول : سورة المائدة الآية ٣ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .

(٥٦/١)

وفي تقرير أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين يقول الله عز وجل : سورة الأحزاب الآية ٤٠ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّين . ويقول –عليه الصلاة والسلام– : إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي .

وأما لم كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة ، بل وللإنس والجن جميعا ؟ فذلك لعدة أمور :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٥٨)

أولا :

أن الإسلام جاء دينا وسطا بين غيره من الأديان السماوية ، فيه من كل دين أيسره وأحسنه ، وأكثره ملائمة وتمشيا مع الطبائع المختلفة لبني الإنسان ، فمثلا عقوبة القتل العمد في الشريعة اليهودية القصاص ولا بد ، وفي الشريعة المسيحية العفو ، وأكاد أقول ولا بد ، فجاءت شريعة الإسلام تخير ولي الدم بين القصاص والعفو ، وكان هذا أمرا وسطا ، يتمشى مع الطبائع المختلفة : فمن طبائع الناس طبائع لا يشفي غلها إلا القصاص ، ومنها طبائع هينة لينة ، تميل إلى التسامح وتأخذ بالعفو ، وفي شريعة الإسلام ما يساير طبيعة هؤلاء وأولئك .

ومثلا : الزواج ، أطلقته الشريعة اليهودية ، ولم تقيده التوراة بعدد معين من النساء ، وقصرته الشريعة المسيحية على امرأة واحدة ، لأن الأصل فيها هو التبتل ، فإذا كان ولا بد فزوجة واحدة تكفي .

أما الشريعة الإسلامية ، فقد جاءت بتشريع وسط بين هذا وذاك ، تشريع يرضي رغبة من يريد التعدد ، ولكن بحدود وقيود ، فأباحت له أن يجمع بين أربع زوجات ولا يزيد ، بشرط أن يعدل بينهن ولا يجور ، وقصرت من لا يأمن على نفسه الجور على زوجة واحدة فقط .

ولقد يشهد لوسطية الإسلام في تشريعه قوله تعالى : سورة البقرة الآية ١٤٣ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا وقوله سورة آل عمران الآية ١١٠ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس مع ما استقر في العقول من

أن خير الأمور أوسطها .

ثانيا :

(٥٧/١)

أن البشرية – كما قلنا – قد بلغت رشدها فأصبحت تقاد بالعقل وحده ، ولم يعد ينفع معها مجرد الخوارق والقوارع الملجئة أو شبه الملجئة ، فجاء الإسلام دينا منطقيا ، رفع من قيمة العقل ، وأعطى للإنسان الحرية التامة في التأمل والتدبر في كل ما يكلف به ، فلا يؤمن بعقيدة يدعى إليها إلا بعد ترو واقتناع ، ولا يتبع تشريعا يشرع له إلا بعد نظر يهديه إلى سلامة التشريع واستناده إلى المنطق السليم والدليل القويم ، ثم هو بعد ذلك يذم التقليد وينعي على المقلدين لآبائهم وأحبارهم ورهبانهم ، فيقول عز من قائل :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٥٩)

سورة البقرة الآية ١٧٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ويقول عن بعض أهل الكتاب : سورة التوبة الآية ٣١ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّه ولا يعني باتخاذهم أربابا إلا طاعتهم طاعة عمياء والتسليم لهم في كل ما يأمرونهم به ويوجهونهم إليه ، فكأنهم – في نظرهم – آلهة تأمر فتطاع ، لأنها تصيب دائما ولا تخطئ .

وليس من شك في أن دينا هذا شأنه وذلك منهجه ، يصلح لكل جيل وقبيل من لدن نزوله وإلى أن تقوم الساعة .

ثالثا :

أن الدين الإسلامي دين واسع الأفق ، وفيه من المرونة واليسر ما يجعله صالحا لكل الجامعات الإنسانية على اختلاف ألوانها ، وأجناسها وبيئتها ، وظروفها " فهو يتسع للحرية الفكرية العاقلة ، ولا يقف – فيما وراء عقائده الأصلية وأصول تشريعه – على لون واحد من التفكير ، أو منهج واحد من التشريع ، وهو بتلك الحرية يساير جميع أنواع الثقافات الصحية ، والحضارات النافعة ، التي يتفتق عنها العقل البشري في صلاح البشرية وتقدمها مهما ارتقى العقل ونمت الحياة" الإسلام عقيدة وشريعة ص ١١ مع تصرف يسير في عبارة الأصل. .

(٥٨/١)

وعلى الجملة فالإسلام – كما يقول أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة – " دين العقل ، فما من أمر جاء به إلا كان موافقا للعقل يدركه ويصدقه . . سئل أعرابي : لماذا آمنت بمحمد ؟ فقال : ما رأيت محمدا يقول في أمر : افعل ، والعقل يقول : لا تفعل ، وما رأيت محمدا يقول في أمر : لا تفعل ، والعقل يقول : افعل . . . وإن النظم التي سنها الإسلام لا تزال برونقها وصفائها أعدل من كل ما اهتدى إليه العقل البشري من نظم ، سواء أكان ذلك في نظام الحكم ، أم في نظام المال ، أم في نظام الأسرة . . . فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يصلح لحكم الإنسانية ، وفيه علاج أدوائها المجتمع الإنساني في ظل الإسلام للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة . " .

ومما يشهد للدين الإسلامي بأنه دين عام للثقلين جميعا قوله تعالى مخاطبا نبيه محمدا –عليه الصلاة والسلام– : سورة الأعراف الآية ١٥٨ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا وقوله : سورة سبأ الآية ٢٨ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . وقوله على لسان نبيه : سورة الأنعام الآية ١٩ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغ .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٦٠)

هذا ، ولا ينبغي أن يفهم بحال من الأحوال ، أن قولنا عن الإسلام : إنه أرقى الأديان السماوية وأسماها ، وأكملها وأوفاها ، وأن تشريعاته وتوجيهاته قد بلغت القمة التي لم تبلغها شريعة من قبل ، فيه انتقاص لغيره من الشرائع السماوية ، معاذ الله أن يكون ذلك قصدنا ، فليس مؤمنا ولا مسلما من ينتقص شريعة سماوية أنزلها الله على رسول من رسله ، الله تعالى : يخاطب أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله :

سورة البقرة الآية ١٣٦ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . ويقول مثنيا على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وعلى من اتبعه من المؤمنين : سورة البقرة الآية ٢٨٥ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

والذي يجب أن يفهم : هو أن كل شريعة من الشرائع السماوية تعتبر في وقتها – بالنسبة لأتباعها – في منتهى الكمال ؛ لأنه لا يصدر عن الله تعالى إلا الكمال المطلق ، ولأن كل شريعة – كما قلنا – جاءت مطابقة لحاجات المخاطبين بها ، ولو أنها انحطت عن مستواها ، لعد ذلك قصورا فيها ، لأنها تكون دون الحاجة ، كما أنها لو ارتفعت إلى مستوى شريعة تجيء بعدها لعد ذلك مجافيا

للحكمة والصواب ، لأنها تكون فوق الحاجة ، والحكمة كل الحكمة هو الملاءمة بين احتياجات كل أمة وما يشرع لها ، كما يلائم الطبيب الماهر بين علة المريض وما يصف له من دواء .

(٦٠/١)

موقف البشر من الديانات ومدى تمسكهم بها

وبعد فما هو موقف البشر من الديانات ، وما مبلغ تمسكهم بها ؟

هل استجابت كل أمة لرسولها ؟

وهل وقف أتباع كل دين عند حدوده والتزموا بتعاليمه التي دعا إليها ، وتشريعاته التي نص عليها ؟ أو أنهم ارتكسوا في حمأة الغي والضلال ، ونكصوا على أعقابهم عائدين إلى نزعات أهوائهم ونزوات شهواتهم ؟

الواقع : أن البشر أمام هذه الديانات فرق شتى :

ففريق لزم الجادة

فاتخذ دينه الذي هداه الله إليه سبيله في الحياة ، لا يحيد عنه ولا يميل ، فسعد وشق طريقه إلى ما فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٦١)

وفريق ثان

آمن بدينه الذي أرشده الله إليه ، ولكنه رغم إيمانه به انحرف عنه في سلوكه ظاهرا وباطنا ، وجاهر بالمخالفة ، وبارز الله بالمعصية في غير مبالاة ولا حياء ، فشقي في حياته الدنيا ، وعرض نفسه لسخط الله وعقابه .

وفريق ثالث

آمن بدينه الذي ارتضى الله له ، ولكنه نافق واتخذ التدين شعارا زائفا يموه به على العامة ، ويخدع به من ينطلي عليهم زوره وبهتانه ، وقد تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الصنف من المنافقين ، وبين مآلهم وعاقبة أمرهم فقال .

سنن الترمذي الزهد (٢٤٠٤). يخرج في آخر الزمان رجال يختلون – أي يطلبون – الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله عز وجل . أبي يغترون ؟ أم علي يجترئون ؟ فبي حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم حيران .

وفريق رابع

جحد الأديان كلها ، وزعم أنها جميعا أوهام وأباطيل مستحدثة ، يقول أستاذنا المرحوم الدكتور محمد

عبد الله دراز في كتابه (الدين) ص ٧٣ وما بعدها :
" ذهب بعض كتاب القرن الثامن عشر الذين مهدوا للثورة الفرنسية إلى أن الديانات والقوانين ما هي إلا منظمات مستحدثة ، وأعراض طارئة على البشرية ،

(٦١/١)

حتى قال (فولتير) : إن الإنسانية لا بد أن تكون قد عاشت قرونا متطاولة في حياة مادية خالصة ، قوامها الحرث ، والنحت ، والبناء ، والحدادة ، والنجارة . . . قبل أن تفكر في مسائل الديانات والروحانيات ، بل قال : إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون ، من الكهنة ، والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء " .
ثم بين –رحمه الله– أن هذه النظرة الساخرة إلى الأديان ليست مبتكرة ، وإنما هي ترديد لصدى مجون قديم كان يتفكه به أهل السفسطة من اليونان ، وكانوا يروجونه فيما روجوه من المغالطات والتشكيكات .
ثم قال : " إنه لم ينقض القرن الثامن عشر حتى ظهر خطأ هذه المزاعم : حيث كثرت الرحلات إلى خارج أوربا ، واكتشفت العوائد ، والعقائد ، والأساطير المختلفة ، وتبين من مقارنتها أن فكرة التدين (الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٦٢)
فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ، رغم تفاوتهم في مدارج الرقي ودركات الهمجية " .
ثم قال : " . . . ولسنا ننكر أن تكون هناك عقيدة معينة قد استحدثت في عصر ما ، أو أن يكون ثمة وضع خاص من أوضاع العبادات قد جاء مجلوبا مصنوعا ، فذلك سائغ في العقل ، بل واقع بالفعل ، أما فكرة التدين في جوهرها ، فليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان " .
. . . وأخيرا هناك فريق خامس .
هو فريق العلمانيين الماديين ، الذين لم يستطيعوا أن ينكروا أن هناك ديانات عريقة في القدم ، ولكنهم زعموا – زورا وبهتانا – أنها شاخت بمرور الزمن ، ولم تعد صالحة في وقت بلغت البشرية فيه ما بلغت من تقدم في العلم ورقي في الحضارة .

(٦٢/١)

يقول أصحاب هذا المذهب وعلى رأسهم (أوجست كونت) : " إن العقلية الإنسانية قد مرت بأدوار ثلاثة : دور الفلسفة الدينية ، ثم دور الفلسفة التجريدية ، ثم دور الفلسفة الواقعية ، وهذا الدور – في نظره – هو آخر الأطوار وأسماها ، فبعد أن كان الناس يعللون الظواهر الكونية بقوة أو قوى إرادية خارجة عنها ، انتقلوا إلى تفسيرها بمعان عامة ، وخصائص طبيعية كامنة فيها ، كقوة النمو ، والمرونة ، والحيوية . . . إلخ ، ثم انتهوا إلى رفض كل تفسير خارجي أو داخلي ، واكتفوا بتسجيل الحوادث كما هي ، ومعرفة ما بينها من ترابط وجودي ، بقطع النظر عن أسبابها وغاياتها ، وعلى هذا يكون دور التفكير الديني يمثل الحال البدائية التي تلهت بها الإنسانية في مرحلة طفولتها ، فلما شبت عن الطوق خلعتها لتستبدل بها ثوبا وسطا في دور مراهقتها ، حتى إذا بلغت أشدها ، واكتمل رشدها أخذت حلتها الأخيرة من العلوم التجريبية " الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٧٧. .

ويعلق على هذا المذهب أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز فيقول : " نقطة الخطأ البارزة في هذا المذهب التطوري ، هي أن أنصاره جعلوا مرهم قانونا يستوعب التاريخ كله في شوط واحد ، قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل ، ونفضت أو كادت تنفض يدها منهما إلى غير رجعة ، فلن تعود إليهما إلا أن يعود الكهل إلى طفولته وشبابه " الدين ص ٧٧. .

ثم يمضي في مناقشة هذا المذهب مبينا أن الأدوار الثلاثة المذكورة " لا تمثل أدوارا تاريخية متعاقبة ، بل تصور نزعات وتيارات متعاصرة في كل الشعوب ، وليست كلها دائما على درجة واحدة من الازدهار أو الخمول في شعب ما ، ولكنها تتقلب بها الأقدار بين بؤسى ونعمى ، ونحوس وسعود المرجع السابق ص ٧٨. " .

(٦٣/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٦٣)

مستحيل أن تزول الديانات وتتلاشى ظاهرة التدين أمام تيار المادية

كل ما يقوله الماديون من أن الديانات سوف تزول ، وأن ظاهرة التدين سوف تتلاشى أمام تيار المادية الجارف ، وإعصار العلم العاصف ، ليس إلا وهما باطلا وخيالا صوره لهم خداع الغرور العلمي الذي غطى على كثير من العقول .

قال العلماء الماديون ما قالوا في تقرير هذه الفكرة الحمقاء وتبريرها ، ونقول لهم : أي دليل مادي أو عقلي أمكنكم أن تقيموه على صحة ما تدعون؟ ليس هناك إلى اليوم دليل واحد يؤيد ما تقولون من أن العلم والدين نقيضان لا يجتمعان فلا بد أن يزول الثاني بوجود الأول ، بل على العكس من ذلك قامت أدلة كثيرة مادية وعقلية على أن الدين يساير العلم ولا يناقضه .

بل كلما تقدم العلم خطوة كان الدين عندها ، وكلما كشف العلم عن سر من أسرار الكون ، كلما

برزت حقيقة الألوهية المبدعة جلية واضحة ، وازداد العقلاء المتدينون إيمانا فوق إيمانهم ، بل وكثيرا ما رجع المفتونون بالعلم والمادة عن فتونهم فآمنوا بأن للكون مبدعا يجب أن تتعلق به القلوب وتذل له الجباه .

ولقد أشار القرآن في وضوح إلى أنه لا تنافي بين العلم والدين ، بل نراه في أكثر من آية يوقظ العقول من رقدتها ، وينبه القلوب من غفلتها ويصيح بالناس في لهجة الآمر الصارم أو المنكر اللائم سورة يونس الآية ١٠١ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

سورة الذاريات الآية ٢٠ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ سورة الذاريات الآية ٢١ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ .

سورة الأعراف الآية ١٨٥ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ .

(٦٤/١)

وأخيرا يفتح أمامها كتاب الكون بما حواه من أسرار العلم وعجائب المعرفة التي لا يزال يظهر منها كل يوم جديد وغريب فيقول : سورة فصلت الآية ٥٣ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .

ولقد أنصف بعض علماء الغرب وفلاسفتهم فأكدوا أن هذه النظرية القائلة باضمحلال الدين والتدين أمام تقدم العلم ، نظرية باطلة ، وقرروا أن العلم يخدم الدين ويدعمه ، يقول الدكتور (ماكس نوردوه) عن الديانات :" أنها ستبقى ما بقيت الإنسانية ، وستتطور بتطورها ، وستتجاوب دائما مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٠ " .

ويقول (آرنست رينان) : " إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال (الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٦٤)

العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٠ " .

ويعلق المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدي على قول رينان السابق فيقول :

" نعم مستحيل أن تتلاشى فطرة التدين في الإنسان ، لأنها أشرف ميول النفس ، وأكرم عواطفها ، . . ففطرة التدين ستلازم الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به القبح والجمال ، وروية يجيلها في الكون والكائنات ، وستزداد فيه هذه الفطرة حياة وقوة على نسبة علو مداركه ، وسمو معارفه دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ محمد فريد وجدي ، في مادة (دين) . " . . . .

وبعد فقد انتهى المبشرون بالمذهب المادي إلى الحقيقة الناصعة ، وقعدوا يلهثون بعد ما أتعبوا أنفسهم في تدعيم مذهبهم والترويج له ، وإذا بهم يرون أنفسهم وعلومهم لا شيء أمام هذا المذهب المحجب بحجب كثيفة وكثيرة ، فلا يكاد العلم يرفع لهم حجابا إلا ويجدون من ورائه حجبا ، ولا ينفك البحث يصل بهم إلى حقيقة إلا ويلمحون من وراء الغيب حقائق أخرى وأعظم . . . وأخيرا يستسلمون أخيرا لمن هو وراء هذه الحجب والمغيبات ، يديرها بعلمه وعلى مقتضى حكمته .

نعم رأينا زعماء هذا المذهب المادي يستسلمون أخيرا لواهب الوجود ، ويلوذون برواق الدين هربا من ماديتهم المتخبطة ، وعلمانيتهم المحيرة ، فهذا (كونت) الذي كان يتنبأ بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية الحتمية لتقدم العلوم ، قد عاد في آخر أمره متصوفا عجيبا ، وكلل حياته بوضع ديانة جديدة طبعها على غرار النظام الكنسي للديانة الكاثوليكية : في عقائدها ، وطقوسها ، وأعيادها ، وطبقات قساوستها ، رواية كاملة أعاد فصولها ولم يغير إلا أشخاصها " الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٧ . .

" وهذا سبنسر ، ينتهي بأن يقول عن المجهول : (إنه تلك القوة التي لا تخضع لشيء في العقول ، بل هي مبدأ كل معقول ، وهي المنبع الذي يفيض عنه كل شيء في الوجود) . . أليس هذا المجهول هو بعينه موضوع الديانات ، يجيئنا الآن باسم آخر على لسان العلم ؟ " المرجع السابق .

.

أثر الدين في حياة الفرد والمجتمع .

قلنا فيما تقدم : أن نزعة الدين في النفوس نزعة فطرية ، ونقول الآن : إن ما فطرت عليه النفوس لا يمكن لها بسهولة أن تنفك عنه ، ولو انفكت عنه لكان معنى ذلك أنها انتكست وتردت إلى مستوى الحيوان الأعجم الذي لا يملك عقلا ولا نظرا ولا بصيرة .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٦٥)

وإذا كنا نرى أناسا قد انحرفوا عن الدين ، فليس معنى ذلك أنهم انسلخوا من فطرتهم ، وإنما هو مجرد ضعف طارئ أمام مغريات المال أو الجسد تارة ، ونزعات العقل تارة أخرى ، ووساوس الوهم تارة ثالثة ، ثم لا يلبث أن يزول هذا العرض الطارئ عن جوهر الفطرة فإذا بها نقية طاهرة على نحو ما فطر الله الناس عليها .

ولقد نعلم أن القرآن الكريم أشار في أكثر من آية إلى أصالة هذه الفطرة في جميع بني الإنسان وأن ما طرأ عليها ليس إلا انحرافا ، لا يلبثون أن يرجعوا عنه عندما تكتنفهم الخطوب ، وتنزل بهم الكروب ، يقول الله تعالى : سورة الإسراء الآية ٦٧ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا " .

ويقول : سورة يونس الآية ٢٢ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ سورة يونس الآية ٢٣ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .

(٦٧/١)

معنى ذلك أن الدين يحقق الكمال الإنساني للبشرية ، فإذا هي حادت عنه ، أو تنكرت له فقد حادت عن الكمال إلى النقص ، وتنكرت لما هو مصدر خيرها ومورد سعادتها .

نعم إن الدين يحقق الكمال ويوفر الخير والسعادة للبشرية كلها أفرادا وجماعات ، ونوضح ذلك فيما يلي :

أما بالنسبة للفرد .

١ – فالدين عنصر ضروري لتكميل القوة النظرية في الإنسان ، فهو يخرج بالعقل والفكر عن سجن الماديات والمحسوسات إلى مجال الغيب الفسيح الذي يجد العقل فيه متعته ولذته من غير حدود ولا قيود ، وبهذا تتسع مدارك الإنسان ويتفتح عقله على معارف شتى تشق أمامه الطريق إلى ما فيه خيره وسعادته .

٢ – والدين عنصر ضروري لتكميل الوجدان ، حيث يدعو إلى تعلق المخلوق بالخالق ، وعرفان ماله عليه من فضل ومنه ، ومراقبته في السر لاعتقاده أنه يراه ، وبهذا تقوى عند الإنسان عاطفة الحب ، والشكر ، والإخلاص ، والحياء ، والأمل ، وغيرها من العواطف التي قد لا تجد لها في دنيا الناس معينا يغذيها وينميها . وبهذا تسمو عاطفة الإنسان نحو الخير دائما ، فيستقيم على الجادة ، ويمضي في حياته طاهر القلب نقي الوجدان .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٦٦)

٣ – والدين عنصر ضروري لقوة الإرادة عند الإنسان ، فهو يمدها بأعظم البواعث والدوافع لعمل الواجب ، ويحصنها بأقوى الوسائل لدفع اليأس ومقاومة القنوط ، وبهذا يمضي الإنسان في طريقه إلى ما تطمح له نفسه من أماني وآمال وهو لا يلوي على شيء .

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانبا

وأما بالنسبة للمجتمع .

(٦٨/١)

---

١ – فالدين بما حواه من هداية إلهية وتشريعات سماوية ، يكفل للمجتمع الإنساني كل عوامل السعادة والأمن والاستقرار ، ولا يكون ذلك أبدا عن تشريع وضعي وضعه فرد أو جماعة لأمة معينة؛ ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره ونضج عقله لا يمكن أن يحيط خبرا بكل ما يوفر للإنسانية سعادتها وأمنها واستقرارها ، لأنه – لاعتبارات وملابسات شتى– قد يرى الحسن قبيحا ، والقبيح حسنا ، وقد يظن النافع ضارا ، والضار نافعا ، وقد يشرع على وفق ميوله وهواه دون مراعاة للمصلحة العامة ، وينتهي به الأمر إلى تشريع يقوض ولا ينظم ، ويدمر ولا يعمر ،ومن وراء ذلك ضياعه وضياع الجماعة التي يعيش بينها .

والله الذي خلق الإنسان ، وركب فيه طبائعه ونوازعه ، وآماله وآلامه ، وإيثاره وأثرته ، ورغباته وشهوته ، هو الخبير بكل علله وأدوائه ، والعليم بوسائل شفائه ، وناجع دوائه ، فهو وحده الذي يقدر أن يضع للجماعات الإنسانية من الشرائع والقوانين ما يحقق لها أسباب السعادة ، ويوفر لها عوامل العزة والمنعة ، ويهيئ لها كل وسائل الأمن والاستقرار ، وذلك يكون في نطاق دين يدعوها إليه على لسان رسول منها ، ويتعبدها به على أنه الدين الحق الذي لا يحيد عنه إلا هالك .

٢ – والدين بعد ذلك هو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به ، يحملهم على الأخذ بتعاليمه ، ويدفعهم إلى القيام بما سنه لهم من تشريع وتنظيم ، ويدفعهم إلى التحلي بالفضائل ، ويحول بينهم وبين ارتكاب الرذائل ، وليس هناك وراء الدين شيء يهيمن على النفوس ، فلا العقوبات المادية تغني ، ولا سلطان الحاكمين يجدي ، وحرمة النظم والقوانين أيا كانت لا يكفلها شيء من ذلك ، وإنما يكفلها ويرعاها شيء واحد هو الضمير الديني الذي ينبع من قرارة النفوس المؤمنة التي تراقب الله في سرها وعلنها .

(٦٩/١)

---

٣ – والدين يجعل الجماعة الإنسانية على قلب رجل واحد ، يجمعهم على الخير والبر ، ويؤلف بين قلوبهم حتى يكونوا إخوة متحابين متناصحين ، متعاونين ، متكافلين ، كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٦٧)
هذه الأخوة الدينية هي الأخوة الشاملة الكاملة ، التي تجمع بين أجناس شتى : تباعدت أوطانهم ، وتباينت لغاتهم ، وتعددت ألوانهم . . .
أما الأخوة التي تقوم على وحدة الوطن أو وحدة اللغة ، أو وحدة اللون أو الجنس فتلك أخوة ضئيلة هزيلة ، بل هي في الواقع محض عصبية وعنجهية ، ومجرد تكاتف على الأثرة والأنانية وحب الذات وكراهية الغير !! .

(٧٠/١)

الخلاصة
والخلاصة : " أن الدين – كما يقول أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز – " يضع للإنسانية المنهج السوي الذي يجب أن يسير عليه الفرد والجماعة ، ويضفي عليه صبغة القدسية ، بحيث يصبح سلوك هذا المنهج ضربا من ضروب الدين ، وبابا من أبواب القربات والعبادات ، فضلا عن كونه تحقيقا لمبدأ العدالة ، وتلبية لداعي الفطرة السليمة " .
" وليست قوانين الجماعات ، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة ، تحترم فيها الحقوق ، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل ، فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط ، أو السجن ، أو العقوبة المادية ، لا يلبث أن يهمله عن اطمئنان إلى أنه سيفلت من طائلة القانون " .
" ومن الخطأ البين أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضمانا للسلام والرخاء ، وعوضا عن التربية والتهذيب الخلقي ، ذلك أن العلم سلاح ذو حدين : يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ، ولا بد في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي ، يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض ، لا إلى نشر الشر والفساد ، ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان " .
" غير أن الإيمان على ضربين : إيمان بقيمة الفضيلة ، وكرامة الإنسانية ، وما إلى ذلك من المعاني المجردة ، التي تستحيي النفوس العالية من مخالفة دواعيها ولو أعفيت من التبعات الخارجية والأجزية المادية .
وإيمان بذات علوية رقيبة على السرائر ، يستمد القانون سلطانه الأدبي من أمرها ونهيها ، وتلتهب المشاعر بالحياء منها ، أو بمحبتها ، أو بخشيتها ، ولا ريب أن هذا الضرب هو أقوى الضربين سلطانا على النفس الإنسانية ، وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواصف وأسرعهما نفاذا في قلوب الخاصة والعامة " .
" من أجل ذلك كان هذا الدين خير ضمان لقيام التعاون بين الناس على قواعد العدالة والنصفة ،

وكان ذلك ضرورة اجتماعية ، كما هو فطرة إنسانية الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٩٢ – ٩٣ " .

(٧١/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٦٨)

لا إله إلا الله محمد رسول الله

(٧٢/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٦٩)

مناع خليل القطان

وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية في شئون الحياة كلها

لقد وردت آيات كثيرة في وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية في كل شأن من شئون الحياة البشرية وهي نصوص قطعية صريحة لا مجال للرأي فيها . واقترنت هذه الآيات ببيان المبادئ والأسس التي تقتضي التحاكم إلى شرع الله ، واعتبار هذا من مقتضيات عقيدة الإيمان ، كما اقترنت ببيان بواعث الخروج عن تحكيم الشريعة الإسلامية .

أولا : المبادئ والأسس التي تقتضي التحاكم إلى شرع الله .

تحقيق معنى العبودية لله تعالى .

حدد الإسلام غاية الإنسان في الحياة بقوله تعالى: سورة الذاريات الآية ٥٦ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ وإذا عرفنا معنى العبادة في اللغة أمكننا أن ندرك تمام الإدراك أن حياة المسلم لا ينبغي أن تخرج عن معنى العبودية بحال من الأحوال .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٧٠)

فالعبادة معناها : الخضوع والتذلل والاستكانة وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة – طاعة كان للمعبود أو غير طاعة – وكل طاعة لله على وجه الخضوع والتذلل فهي عبادة ، والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم كالحياة والسمع والبصر والعقل ، وأي نوع من أنواع العبادة مهما كان في نظر الإنسان يسيرا فإنه لا يستحقه إلا من كان له أعلى جنس من النعمة ، فذلك لا يستحق العبادة إلا الله .

قال الراغب : العبودية إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الأفضال . وهو الله تعالى ، ولهذا قال :

سورة يوسف الآية ٤٠ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وذكر الطبري عند تأويل قوله تعالى في استكبار فرعون وملائه على موسى وهارون سورة المؤمنون الآية ٤٧ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ يعنون أنهم لهم مطيعون متذللون ، يأتمرون بأمرهم ويدينون لهم . والعرب تسمي كل من دان لملك عابدا له ، وذكر عند تأويل قوله تعالى : سورة الشعراء الآية ٢٢ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أي اتخذتهم عبيدا لك .

ويعرف ابن تيمية العبادة فيقول : (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة) .

فمقتضى العبادة على هذا أن يذعن العبد لله إذعانا كاملا في كل ما يأتي وما يذر في ذلة وخضوع ، وأن يجعل حياته كلها رهن أوامر الله ونواهيه ، وهي دعوة الأنبياء والمرسلين .

سورة الأنبياء الآية ٢٥ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ

ويذكر القرآن الكريم في مقابل هذا الانقياد لله الانقياد للطاغوت سورة النحل الآية ٣٦ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ وهذه المقابلة تعني أن الخضوع لأي سلطة أخرى خضوع للطاغوت ، سواء كان هذا الخضوع للأهواء والشهوات ، أم لقوة أرضية أخرى ، عاقلة كانت كبني الإنسان ممن يعطون لأنفسهم صفة التشريع لأمتهم ، أو غير عاقلة كاتخاذ الأصنام والأوثان .

وهذا ما فسر به الطبري كلمة الطاغوت حيث يقول بعد أن ذكر طائفة من أقوال العلماء (والصواب من القول عندي أن كل ذي طغيان على الله فعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده ، وإما بطاعة من عبده له إنسانا كان ذلك المعبود .

أو شيطانا أو وثنا أو صنما أو كائنا ما كان من شيء .

وبهذا يكون " الحكم " بغير ما أنزل الله طاغوتا . . .

ويكون " الحاكم " الذي يحكم بغير ما أنزل الله كذلك طاغوتا . . .

ويكون " الخضوع " لهذا الحاكم أو لذلك الحكم عبادة للطاغوت ،

قال تعالى : سورة النساء الآية ٦٠ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا

(٧٥/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٧١)

التسخير الكوني والتسخير الشرعي :

الانقياد لله تسخيرا طوعا أو كرها في كائنات الله يقتضي انقياد الناس لدينه حتى يتم التناسق بين الخلائق في الكون كله .

إنك إذا نظرت إلى كائنات الله في السماء من شمس وقمر ونجوم وما أودعه الله في قوى العالم السماوي وجدتها تسير على سنن الله المحكمة . لا يختل توازنها ، ولا يعتريها اضطراب ، تؤدي وظائفها في الحياة على نهج دقيق يدهش العقول ، وتخر لعظمته الجباه صاغرة إكبارا للخالق المدبر ، ذلك لأنها مسخرة بأمر الله سورة النحل الآية ١٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

سورة النور الآية ٤٣ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ سورة النور الآية ٤٤ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ

وإذا نظرت إلى الأرض وما عليها من كائنات مختلفة الخلق سوى الإنسان كالنبات والطير والأنعام والدواب واليابس والماء والسهول والجبال وما في العالم الأرضي من قوى متنوعة ، وجدت هذه العوالم كلها تسير على سنن الله المحكمة كذلك ، مسخرة لأداء وظائفها في عمارة الأرض والانتفاع بخيراتها ، بما يشهد لله الخالق بالكمال والإجلال .

(٧٦/١)

سورة النور الآية ٤٥ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

سورة النحل الآية ١٠ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ سورة النحل الآية ١١ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

وهذا الإنسان إذا استثنينا أعماله الاختيارية وجدناه كذلك خاضعا لله تسخيرا في جهازه العصبي وجهازه التنفسي ، وحركته الدموية ، وأفعاله الاضطرارية بالقيام بوظائفه العضوية قياما ينطق بالعبودية لله .

سورة السجدة الآية ٧ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ سورة السجدة الآية ٨ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ سورة السجدة الآية ٩ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ

وما كان للعالم السماوي ، أو العالم الأرضي ، أو الجانب الاضطراري في الإنسان أن يخرج عن سنة الله في إرادته الكونية .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٧٢)

ولكن الجانب الإرادي في الإنسان – وإن كان خاضعا لقدر الله – هو وحده الذي تمرد على شرع الله .

فإن الله سبحانه وتعالى قد بعث رسله وشرع شرائعه لتكون أفعال الإنسان الاختيارية خاضعة لأمر الله الشرعي حتى يتم انقياد الخلائق كلها لله قدرا وشرعا سورة الذاريات الآية ٥٦ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

(٧٧/١)

وهدف الشريعة الإسلامية أن ترد الناس من هذا التمرد الكفري إلى الله وحده بخضوع شئون حياتهم كلها اعتقادا وسلوكا لشرعه عز وجل ، وبهذا يتحقق معنى شهادة (لا إله إلا الله) بإفراده سبحانه بالربوبية والألوهية ، والتشريع من خصائص الألوهية ، وسبيل ذلك ما جاء به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهذا معنى شهادة (أن محمدا رسول الله) أما أن ينتسب المرء إلى الإسلام ، ثم يدين لغير الله في أفعاله الاختيارية ، وشئون حياته الإرادية بالخضوع للقوانين الوضعية ، فتلك هي انتكاسة الفطرة البشرية التي بعث رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم – من أجلها حتى يصير الكون خالصا لله .

إنه لا بد من خضوع الناس في أفعالهم الاختيارية لشرع الله حتى يتم التناسق في الكون كله بخضوع الكائنات كلها لله ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى : سورة آل عمران الآية ٨٣ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ

(٧٨/١)

تحكيم شريعة الله من أركان الإيمان

الإيمان عقيدة وعمل ، إذ لا أثر للعقيدة يدل على صدق صاحبها إلا إذا أقام سلوكه عليها ، ووقف عند حدودها ، والتزم بما فيها ، وبقدر ما يكون العمل تكون درجة الإيمان قوة وضعفا ، وزيادة ونقصا .

والشريعة الإسلامية تنبثق من عقيدة الإسلام تنظيم حياة الفرد وحياة الأمة ، والعمل بها من أركان الإيمان ومقتضيات توحيد الله عز وجل ، وما كان للمؤمنين في حياة رسول الله –صلى الله عليه وسلم – أن يتصفوا بالإيمان وهم لا يتحاكمون إلى رسول الله في كل أمر من الأمور يستوي في هذا ما يتعلق بالعبادات ، وما يتعلق بالمعاملات ، فإن تحكيم رسول الله –صلى الله عليه وسلم – في كل شأن من شئون الحياة مع التسليم والرضا من صميم الإيمان ، ويكون هذا بعد مماته بتحكيم شريعته ، قال تعالى : سورة النساء الآية ٦٥ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٧٣)

ويأتي بيان هذه الحقيقة في صورة القسم المؤكد بالنفي ، فإن دخول لا النافية على القسم إذا كان جواب القسم منفيا يؤكد نفي الجواب ، والجواب هنا نفي الإيمان (لا يؤمنون) .

كما سيأتي شاملا لأي شجار ، فإن (ما) في قوله تعالى : سورة النساء الآية ٦٥ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ من صيغ العموم فتشمل أي خلاف في أي شأن من الشئون ، والتقييد بعدم الحرج يؤكد ضرورة الرضا حتى يكون التحاكم من صميم القلب سورة النساء الآية ٦٥ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ

ويجب أن يكون الانقياد لحكم الشريعة ظاهرا وباطنا ، فيأتي التعبير بالتسليم مؤكدا بالمصدر في قوله: سورة النساء الآية ٦٥ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا فلا يثبت الإيمان لعبد حتى يقع منه ذلك .

(٧٩/١)

وإذا كان تحكيم الشريعة الإسلامية بهذه المثابة اتباعا لما جاء به الرسول –صلى الله عليه وسلم – . فإن الوقوف عند ذلك هو سبيل المؤمنين ، لأنه دينهم ، أما مخالفة ما جاء به رسول الله –صلى الله عليه وسلم – بعد أن ظهرت البراهين الدالة على رسالته وسلوك طريق غير طريق المؤمنين وما هم عليه من دين الإسلام والعمل بأحكامه فهو موالاة للضلال وخروج عن الدين يصلى أصحابه نار الجحيم ، يستوي في هذا أن تكون المخالفة عامة في كل شيء أم في بعض الأمور دون بعض ،

حيث تكون المشاقة ، فإن أصل معناها كونك في شق غير شق صاحبك ، وهذا هو معنى قوله تعالى : سورة النساء الآية ١١٥ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا

ذلك لأن التشريع من خصائص الألوهية . فإقرار تشريع لسلطة بشرية في فرد أو جماعة شرك بالله ، وهذا ما يدل عليه تعليل مصير المشاقين في الآية السابقة بقوله تعالى : سورة النساء الآية ١١٦ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا وقد قال الله في اليهود والنصارى سورة التوبة الآية ٣١ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

ولم يكونوا عبدوهم مع الله ، وإنما اعترفوا لهم بحق التشريع من دون الله فأحلوا لهم وحرموا عليهم :

(٨٠/١)

عن عدي بن حاتم قال : سنن الترمذي تفسير القرآن (٣٠٩٥). سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقرأ هذه الآية سورة التوبة الآية ٣١ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ الآية فقلت له : إنا لسنا نعبدهم .

قال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه . ويحلون ما حرمه الله فتحلونه ؟

فقلت : بلى .

قال : فتلك عبادتهم .

ونفى الله تعالى الإيمان عن اليهود الذين جاءوا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – متحاكمين إليه

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٧٤)

طمعا في أن يوافق حكمه أهواءهم وتحريفهم للتوراة ، فلما حكم بينهم بالحق تولوا وأعرضوا ، إذ لا يجتمع الإيمان مع عدم تحكيم شريعة الله ، بل مع عدم الرضا بحكمها كذلك ، لأن عدم الرضا من التولي قال تعالى : سورة المائدة الآية ٤٣ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ

إن حقيقة الإيمان هي التصديق القلبي الذي يظهر أثره في السلوك العلمي ، ودعوى الإيمان باللسان مع التولي والإعراض عن تحكيم الشريعة دعوى كاذبة لدى المنافقين . سورة النور الآية ٤٧ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ

أما سلوك الإيمان لدى ذويه فهو السمع والطاعة لما جاء عن الله وما جاء عن رسوله – صلى الله عليه وسلم – انقيادا لحكم الشريعة ، وهؤلاء المؤمنون الذين يتصفون بذلك هم المفلحون ، لأن سبيل

الفلاح هو الاستقامة على مناهج الله وشرعه سورة النور الآية ٥١ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

(٨١/١)

فمنطق الإيمان هو منطق التسليم المطلق لقضاء الله وقضاء رسوله ، وعلى هذه القاعدة يجب على الأمة المسلمة أن تبني منهجها في الحياة بكل شأن من شئونها ، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وإلا كانت عاصية ضالة ، ولا خيرة للمؤمنين في سلوك منهج آخر ما داموا متصفين بالإيمان .
سورة الأحزاب الآية ٣٦ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا
فالإيمان بوحدانية الله ، يعني أنه لا عبودية إلا لله ، فلا عبودية لصنم أو وثن ، أو مخلوق ، أو هوى ، أو قانون وضعي ، أو نحو ذلك مما يكون الخضوع فيه لغير الله ، وتكون الطاعة فيه لغير شريعة الله ذلك لأن العبودية لله وحده تفترض الاهتداء بهديه وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه كما جاءت على لسان رسل الله إلى البشر .

(٨٢/١)

ثانيا : النصوص القرآنية الدالة على تحكيم الشريعة الإسلامية
يحسن قبل استعراض النصوص القرآنية الدالة على وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية أن نقف على ما يأتي :
أ – إن الدين يطلق على كل ما جاء عن الله تعالى من الأوامر والنواهي وكل ما ثبت عن السنة النبوية الصحيحة
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٧٥)
حيث أخبر الله تعالى عن نبيه بقوله : سورة النجم الآية ٣ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى سورة النجم الآية ٤ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى وأمر باتباعه وطاعته سورة الحشر الآية٧ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا سورة المائدة الآية ٩٢ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وحذرنا من مخالفته سورة النور الآية ٦٣ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وفرض على المؤمنين طاعته لأنها من طاعة الله سورة النساء الآية ٨٠ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ
والدين بهذا يشمل العقائد والعبادات والمعاملات وشئون الحكم والقضاء وسائر ما يسمى تشريعا .

ب – إن اتباع الدين يعني العمل به ، وإذا استبدلت أمة بما جاء في الدين قانونا من القوانين الوضعية ، أو مذهبا من مذاهب الناس في الحياة فقد اتخذت غير الإسلام دينا لها ، لأن الدين يشمل ما جاء عن الله وما جاء عن رسوله في شئون الحياة كلها ، والأمر بطاعة الله وطاعة الرسول يقتضي العمل بالدين كله .

جـ – وقد عرف أكثر علماء الأصول الأمر بأنه : القول المقتضي طاعة المأمور به ، وعرفه آخرون بأنه : طلب الفعل على جهة الاستعلاء .

وليست صيغة الأمر قاصرة على صيغة واحدة فإن أساليب طلب الفعل في القرآن كثيرة منها :

---

١ – صريح الأمر كقوله تعالى : سورة النحل الآية ٩٠ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وقوله: سورة النساء الآية ٥٨ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ

٢ – الإخبار بأن الفعل مكتوب على المخاطبين كقوله تعالى : سورة البقرة الآية ١٧٨ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى وقوله سورة النساء الآية ١٠٣ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا

٣ – الإخبار بأن الفعل على الناس عامة أو على طائفة خاصة كقوله تعالى : سورة آل عمران الآية ٩٧ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

٤ – حمل الفعل المطلوب على المطلوب منه كقوله تعالى : سورة البقرة الآية ٢٢٨ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ

٥ – أن يطلب الفعل بالصيغة الطلبية ، وهي فعل الأمر ، أو المضارع المقرون باللام ، كقوله تعالى : سورة البقرة الآية ٢٣٨ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وقوله سورة الحج الآية ٢٩ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ

٦ – التعبير بفرض ، كقوله تعالى : سورة الأحزاب الآية ٥٠ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

٧ – اقتران الفعل بألا ، كقوله تعالى : سورة التوبة الآية ١٣ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ

٨ – الاستفهام التعجبي والإنكاري مقرونا بترك الفعل ، كقوله : سورة آل عمران الآية ٨٣ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ

---

٩ – الإخبار بأن ترك الفعل كفر أو ظلم أو فسق ، كقوله تعالى : سورة المائدة الآية ٤٤ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٧٦)

وقوله : سورة المائدة الآية ٤٥ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ وقوله : سورة المائدة الآية ٤٧ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

١٠ – الإخبار بأن إتيان الفعل من الإيمان أو أن تركه يناقض الإيمان ، كقوله تعالى : سورة النساء الآية ٦٥ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ وقوله : سورة الأحزاب الآية ٣٦ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

قال الغزالي في المستصفى : (إن قول الشارع أمرتكم بكذا ، وأنتم مأمورون بكذا ، أو قول الصحابي أمرت بكذا ، كل ذلك صيغ دالة على الأمر ، وإذا قال : أوجبت عليكم ، أو فرضت عليكم ، أو أمرتكم بكذا أو أنتم معاقبون على تركه فكل ذلك يدل على الوجوب) .

(٨٥/١)

وأساليب الطلب تدل على الوجوب إذا عريت من القرائن الصارفة لها عن ذلك . وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية بأساليب الطلب المتعددة ، فمنها صريح الأمر كما في قوله تعالى : سورة النساء الآية ٥٨ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ فقد توجه الخطاب بالأمر بأداء الأمانات إلى أهلها ، وهذا عام في جميع الأمانات ، فالدين أمانة ، والشريعة أمانة ، والحكم بالشريعة أمانة وتوجه الخطاب بالأمر بالحكم بالعدل بين الناس جميعا ، والحكم بالعدل بين الناس يستوجب الحكم بكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – لأن حقيقة العدل هي الفصل في الحكومة على ما في الكتاب والسنة .

ومنها ما ورد بالصيغة الطلبية ، وهي فعل الأمر ، أو المضارع المقرون باللام كقوله تعالى : سورة الأعراف الآية ٣ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ

(٨٦/١)

والأمر باتباع ما أنزل عام في جميع ما أنزله الله تعالى بالقرآن الكريم من الأوامر والنواهي ؛ وآيات العقوبات في القصاص والحدود وآيات العلاقات الدولية في الحرب والسلم ؛ وآيات المال ذلك كله ونظائره مما أنزله الله فهو واجب الاتباع سورة البقرة الآية ١٧٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ

الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى سورة النور الآية ٢ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ سورة المائدة الآية ٣٨ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ سورة الأنفال الآية ٦٠ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ سورة البقرة الآية ١٩٣ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ سورة محمد الآية ٤ فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا سورة الأنفال الآية ٤١ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ سورة الأنفال الآية ٦١ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ سورة الأنفال الآية ٥٨ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ سورة النساء الآية ٢٩ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ سورة البقرة الآية ٢٧٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٧٧)

(٨٧/١)

والناس في الحياة إما أن يتبعوا ما أنزل الله فهذا هو الإسلام ، والاعتراف بالحكم والتشريع لله ، وإما أن يتبعوا من دونه أولياء فهذا هو الشرك ، سواء رجع الضمير في قوله : من دونه إلى الرب ، أو إلى (ما) في قوله : سورة الأعراف الآية ٣ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فإن معنى الآية ، هو نهي الأمة عن أن يتبعوا من دون الله أولياء يعبدونهم ويجعلونهم شركاء لله في خصائص الألوهية ، ومنها التشريع ، أو النهي عن أن يتبعوا من دون كتاب الله أولياء من أصحاب السلطة والرئاسة والتقنين كما كان يفعله أهل الجاهلية وأهل الكتاب من طاعة الرؤساء والأحبار والرهبان فيما يحللونه لهم ويحرمونه عليهم .

ويأمرنا الله تعالى باتباع صراطه المستقيم وينهانا عن اتباع سواه . وصراط الله المستقيم هو سبيل دينه ، وما شرعه لعباده من أحكام ، فهو وحده الذي يجب اتباعه ، وما سواه من الملل والنحل والمذاهب والقوانين لا تلتقي معه ، بل تميل عنه ، لأن الحق واحد لا يتعدد ، والخط المستقيم بين نقطتين لا يكون إلا خطا واحدا قال تعالى : سورة الأنعام الآية ١٥٣ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ وعن ابن مسعود قال : صحيح البخاري الرقاق (٦٠٥٤)،سنن الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٤)،مسند أحمد بن حنبل (٤٦٥/١). خط رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ : سورة الأنعام الآية ١٥٣ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ

(٨٨/١)

وأمرنا الله تعالى بطاعة رسوله ، وذلك عام في كل ما جاء عن الله أو عن رسوله – صلى الله عليه وسلم – من أمر ونهي ، وتشريع وقضاء ، حتى تتنزه سلطة الحكم من الجهالة والهوى وسائر ما ركب في الطبيعة البشريةِ من نقص ، وما يعرض من المشكلات والأقضية التي لا نص فيها ، وتختلف العقول في إدراكها ، ويحصل عليها التنازع فإن الأمر فيها يرد إلى الله وإلى الرسول ، أي إلى كتاب الله ، وإلى الرسول في حياته ، وإلى سنته بعد مماته ، وهذا هو شرط الإيمان بالله واليوم الآخر ، يقول تعالى : سورة النساء الآية ٥٩ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وقد ذكر الأمر بالطاعة صريحا مع الله ، ومع رسوله وجاءت طاعة أولي الأمر معطوفة دون التصريح بالفعل ، لأن الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله ، وللرسول ، أما طاعة أولي الأمر فإنها تأتي تبعا لطاعة الله وطاعة رسوله إذ صحيح مسلم الإمارة (١٨٤٠)،سنن النسائي البيعة (٤٢٠٥)،سنن أبو داود الجهاد (٢٦٢٥). لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٧٨)

(٨٩/١)

وتقرر الأديان السماوية وجوب الحكم بما أنزل الله حتى يستقيم أمر الحياة البشرية ، فإنه لا يستقيم إلا بالدين ، عقيدة وعبادة وتشريعا وحكما ، فليس الدين صلة روحية لإشراقة النفس وبعدا عن التحاكم إليه في شئون الدنيا ، وبهذا جاء الأمر في التوراة والإنجيل والقرآن ففي التوراة يقول تعالى : سورة المائدة الآية ٤٤ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ وصيغة الخبر في مثل هذا الموضع سورة المائدة الآية ٤٤ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ إخبار عن القيام بالأمر الواجب .
وكما أمر أهل التوراة بتحكيم شريعة الله أمر أهل الإنجيل كذلك بالمضارع المقرون بلام الأمر سورة المائدة الآية ٤٧ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وينتهي أمر الرسالات السماوية إلى الشريعة الإسلامية التي جاءت مهيمنة على ما قبلها ، حتى تحتكم البشرية إليها في شئون حياتها كلها إلى يوم الدين ، يقول تعالى : سورة المائدة الآية ٤٨ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ثم تكرر صيغة الطلب في قوله تعالى : سورة المائدة الآية ٤٩ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ

وقد أخبر الله تعالى في نهاية آيات الحكم بما أنزل الله أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر وظلم وفسق وذلك في سورة المائدة يقول تعالى : سورة المائدة الآية ٤٤ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ سورة المائدة الآية ٤٥ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ سورة المائدة الآية ٤٦ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ سورة المائدة الآية ٤٧ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

وإذا كانت هذه الآيات قد نزلت في أهل الكتاب فإن المذهب الحق الذي ذهب إليه الجمهور أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ ، وقد أجمع الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة لعموم هذه الآية سورة المائدة الآية ٤٥ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٧٩)

وعندما طلب من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – القصاص في سن كسرت ، قال : صحيح البخاري تفسير القرآن (٤٢٣٠)،سنن أبو داود الديات (٤٥٩٥)،سنن ابن ماجه الديات (٢٦٤٩)،مسند أحمد بن حنبل (١٦٧/٣). كتاب الله يقضي بالقصاص ، وليس في القرآن قصاص السن إلا ما حكى عن التوراة في قوله تعالى : سورة المائدة الآية ٤٥ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وأدلة ترجيح هذا الرأي مبسوطة في كتب الأصول .

هذا وإن الجمل الثلاث سورة المائدة الآية ٤٤ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ سورة المائدة الآية ٤٥ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ سورة المائدة الآية ٤٧ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ قد جاء التعبير فيها بلفظ (من) و (من) من صيغ العموم فيفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة ، بل بكل من ولي الحكم .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، عن حذيفة : أن هذه الآيات ذكرت

عنده سورة المائدة الآية ٤٤ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ – و – الظالمون – و – الفاسقون " .

فقال رجل : إن هذا في بني إسرائيل .

فقال حذيفة : نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل ، إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة ، كلا ، والله لتسلكن طريقهم قد الشراك " .

(٩٢/١)

الكفر العملي والكفر الاعتقادي

فالألفاظ الثلاثة : (الكفر والظلم والفسق) التي سجلها الله عن الحاكمين بغير ما أنزل الله محمولة على إطلاقها فلا يسمي الله الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا ولا يكون كذلك . وما روي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : سورة المائدة الآية ٤٤ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ قال : إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه وإنه ليس كفر ينقل من الملة بل دون كفر ، وما روي عن عطاء أيضا في قوله :

سورة المائدة الآية ٤٤ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ – هم الظالمون – هم الفاسقون "

قال : " كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق " .

ما روي عن ابن عباس وعن عطاء بن أبي رباح في ذلك محمول على ما يسمى بالكفر العملي ، وذلك بأن تحمله أهواؤه وشهواته على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده بأن حكم الله وحكم رسوله هو الحق ، واعترافه بأنه في هذا الحكم قد أخطأ وجانب الهدى ، وعصى الله ورسوله .

أما أن يكون أساس نظام الحكم في الأمة قائما على غير ما أنزل الله بتحكيم القوانين الوضعية ، فهذا ليس من الكفر العملي ، بل من الكفر الاعتقادي ، ولا تفسير له سوى ذلك . لأن الدول التي عدلت عن تحكيم الشريعة الإسلامية إلى تحكيم القوانين الوضعية عدلت عن ذلك باختيارها .

والكفر الاعتقادي في الحكم بغير ما أنزل الله أنواع :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٨٠)

أحدها : أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله حكم الله وحكم رسوله .

(٩٣/١)

كأولئك الذين يزعمون أن الدين صلة بين العبد وربه . ولا علاقة له بشئون التشريع والحكم والقضاء فإن الأحكام الشرعية في الكتاب والسنة من أصول الدين المعلوم بالضرورة وإجماع الأمة ، وقد اتفق أهل العلم على أن من جحد أصلا من أصول الدين ، أو فرعا مجمعا عليه ، أو أنكر حكما قطعيا مما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – فإنه كافر الكفر الناقل من الملة .

الثاني : أن يضاهي الحاكم بغير ما أنزل الله حكم الله وحكم رسوله معاندة للشريعة ، فيتخذ القوانين الوضعية ومصادرها أساسا للحكم . يستمد منها القوانين والنظم ، وتؤسس لها المحاكم في البلاد ، وتتحاكم إليها الأمة . فتحكم بين الناس بما يخالف الكتاب والسنة ، وتجعل حكمها ملزما لهم لا مفر لهم منه ، كما هو الشأن في معظم البلاد الإسلامية ، التي استبدلت بالشريعة الإسلامية القانون الوضعي المستمد من القوانين الغربية ، الفرنسية والبلجيكية وغيرها ، أو من مذاهب بعض المبتدعين الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، فهذا النوع كفر كذلك يخرج من الملة ، وشرك بالله يتنافى مع عقيدة التوحيد التي نعبر عنها بقولنا : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ومن مقتضاها أن يكون الحكم لله ولرسوله ، فإن التشريع من خصائص الألوهية .

الثالث : أن يعتقد المسلم أو الحاكم بغير ما أنزل الله أن تحكيم القوانين الوضعية أولى وأحسن من تحكيم الشريعة الإسلامية ، لأن الحياة متجددة ، وتتجدد الحوادث والأقضية بتجددها ، ولا تشمل الشريعة الإسلامية مشاكل الحياة المتجددة . إنما تشملها القوانين الوضعية . فينبغي الرجوع إليها لأنها أحسن في تناولها للحوادث التي نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال ، وهذا كفر كذلك . لما فيه من تفضيل لأحكام المخلوقين على حكم الله الخالق وحكم رسوله ، واتهام لشريعة الإسلام بالقصور والنقص والعجز .

(٩٤/١)

إن الشريعة الإسلامية تفي بمتطلبات الحياة البشرية في كل عصر ، ومصادرها الثرة تغني الناس عن التماس حل فيما سواها من قوانين البشر ، ولن يعدم حاكم أن يجد حكم حادثة من الحوادث ، أو قضية من القضايا في كتاب الله تعالى أو سنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – نصا أو ظاهرا أو استنباطا .

وقد اشتمل القرآن الكريم على أصول الشريعة وقواعدها في الحلال والحرام ، وجاءت أكثر أحكامه مجملة تشير إلى مقاصد الشريعة ، وتضع بيد الأئمة والمجتهدين المصباح الذي يستطيعون في ضوئه استنباط أحكام جزئيات الحوادث في كل زمان ومكان ، وهذا سر خلود الشريعة وشمول قواعدها الكلية ومقاصدها العامة لما يحدث في الناس من أقضيات .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٨١)

وإنما فصل القرآن ما لا بد فيه من التفصيل فيما يجب أن يسمو عن مواطن الخلاف والجدل ، كما في العقائد وأصول العبادات أو لأنه يبني على أسباب لا تختلف ولا تتغير إلا بتغير الأزمنة والأمكنة ، وذلك كما في تشريع المواريث ، ومحرمات النكاح ، وعقوبة بعض الجرائم .

الرابع : أن يعتقد المسلم أن تحكيم القوانين الوضعية كتحكيم الشريعة الإسلامية . وأن الحكم بالقوانين كالحكم بالشريعة . ومن اعتقد هذه المماثلة فإنه يكفر كفرا يخرجه من الملة لأنه يسوي بين الخالق والمخلوق . ويجعل ما شرعه الله مماثلا لما شرعه المخلوق ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فقد تفرد سبحانه بالكمال ، وتنزه عن مماثلة المخلوقين في الذات والصفات والأفعال والحكم سورة الشورى الآية ١١ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

الخامس : أن يعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله وحكم رسوله ، فهذا يكفر كذلك ، لأنه يعتقد جواز ما علم تحريمه من الدين بالضرورة . للنصوص الصحيحة الصريحة التي تقطع بتحريم الحكم بغير ما أنزل الله تعالى ولا تنافي بين أوصاف الكفر والظلم والفسق في الآيات الثلاث :

سورة المائدة الآية ٤٤ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ – والظالمون – والفاسقون) فإنها جميعا صفات لموصوف واحد باعتبارات مختلفة .

فالحكم بغير ما أنزل الله من حيث إنه جحود للشريعة يكون كفرا ، ومن حيث إنه مجاوزة لحق الإنسان واعتداء على حق الله في التشريع يكون ظلما ، ومن حيث إنه خروج عن شرع الله يكون فسقا .

وفي مفردات الراغب : الكفر في اللغة : ستر الشيء ، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص ، والزراع لستره البذر في الأرض ، . . . وكفر النعمة وكفرانها : سترها بترك أداء شكرها ، قال تعالى : سورة الأنبياء الآية ٩٤ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة ، والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية ، أو النبوة أو الشريعة ، أو ثلاثتها .

والظلم يقال في مجاوزة الحق ، وهو ثلاثة :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٨٢)

الأول :

ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى ، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق ، ولذلك قال تعالى : سورة لقمان الآية ١٣ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

والثاني :

ظلم بينه وبين الناس .

والثالث :

ظلم بينه وبين نفسه .

والفسق : من فسق فلان : أي خرج عن حجر الشرع ، وذلك من قولهم : فسق الرطب : إذا خرج عن قشره وهو أعم من الكفر ، والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير لكن تعورف فيما كان كثيرا ، وأكثر ما يقال الفاسق . لمن التزم حكم الشرع وأقربه ، ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضه .

(٩٦/١)

ويصف الله تعالى الكفار والمشركين بالظلم سورة لقمان الآية ١٣ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ سورة الشعراء الآية ١٠ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ سورة هود الآية ٣٧ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ سورة هود الآية ٦٧ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ سورة هود الآية ٦٨ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ وجعل جحود آياته ظلما سورة العنكبوت الآية ٤٩ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ

كما يصف سبحانه المشركين والكفار بالفسق ، يقول تعالى في خطاب المشركين بعد أن ذكر لهم دلائل ربوبيته وتوحيده : سورة يونس الآية ٣٣ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ويقابل الإيمان بالفسق قال تعالى : سورة السجدة الآية ١٨ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ سورة السجدة الآية ١٩ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ سورة السجدة الآية ٢٠ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

(٩٧/١)

ويصف الذين يكفرون بآيات الله ويكذبون الرسل بالفسق سورة البقرة الآية ٩٩ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا سورة التوبة الآية ٨٤ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ سورة الزخرف الآية ٥٤ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ سورة الذاريات الآية ٤٦ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ

ويجمع الله للكافرين بين الظلم والفسق ، قال تعالى : سورة البقرة الآية ٥٩ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٨٣)

ومن أساليب القرآن في طلب تحكيم شريعة الله الإخبار بأن الحكم بغير ما أنزل الله ينافي الإيمان ويقود أصحابه إلى الضلال المبين سورة الأحزاب الآية ٣٦ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ولفظ (ما كان) هنا معناه : المنع والحظر من الشيء ، والإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعا ، وقد يكون لما يمتنع عقلا كقوله تعالى : سورة النمل الآية ٦٠ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا وهذا هو المراد بقولهم في تفسير الآية : ما صح ولا استقام ، فإن ما لا يصح شرعا يكون مخالفا للشرع ، فمعنى الآية ، أنه لا يحل لمن يؤمن بالله إذا قضى الله ورسوله أمرا في أي شأن من الشئون أن يختار سواه من مذاهب الناس . مخالفا أمر الله وأمر رسوله ، وإلا كان العصيان والضلال المبين .

(٩٨/١)

ومن ذلك ما جاء بصيغة الاستفهام التعجبي والإنكاري مقرونا بالإعراض عن تحكيم الشريعة سورة الأنعام الآية ١١٤ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ سورة آل عمران الآية ٢٣ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ويقول تعالى : سورة النساء الآية ٦٠ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا وإذا كان ذلك التعجب لإرادة التحاكم إلى الطاغوت ، فكيف بالتحاكم نفسه والوقوع فيه ؟

(٩٩/١)

ثالثا : بواعث الخروج عن تحكيم الشريعة الإسلامية

يتعلل المتردون على شريعة الله والتحاكم إليها بتعلات فارغة ومن وراء ذلك بواعثهم النفسية :

أ – باعث النفاق :

تحت سلطة الشعور الإسلامي العام لدى جماهير شعوبنا المسلمة تختفي فئة من المرائين المنافقين الذين نهلوا من معين المستشرقين ، وأرضعوا لبان الثقافة الغربية ، التي توهن من شأن الشريعة الإسلامية ، وتصم المعتصمين بها بالتأخر والرجعية ، وهؤلاء يرون أن الغرب لم ينهض من كبوته

إلا بعد أن نفض يده من الدين وأهله ، حيث وقف رجال الكنيسة حجر عثرة في سبيل العلم والتقدم والمدنية ، ويعتقدون أنه لا سبيل لنهضة أمتهم إلا بالعلمانية ، أي الانسلاخ من الدين وتركه جانبا أسوة بالحضارة الغربية ، متجاهلين الفوارق الواضحة بين طبيعة الإسلام وطبيعة المسيحية ، فالإسلام يدعو إلى العلم والمعرفة وإقامة الحضارة الإنسانية المتكاملة في جوانب الحياة المتعددة المادية والروحية والعقلية على أساس من توحيد الله تعالى والنظرة السديدة الصائبة إلى الكون والإنسان والحياة بما يحقق السعادة للبشرية كلها .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٨٤)

إن هؤلاء يتسنمون مراكز القيادة في الأمة بهذه العقيدة ويضعون نصب أعينهم الانسلاخ من شريعة الإسلام ، أو من الدين كله ، ويعتبرون أن إقامة الحدود وحشية لا تلائم عصر المدنية ، ولا يجرءون على إعلان ردتهم وكفرهم حتى لا تنقم عليهم جماهير الشعوب المسلمة التي يحكمونها ، وهم في حاجة إلى أن يتملقوها باسم الإسلام .

(١٠٠/١)

وحين يعاتبهم أحد يحتجون بأنهم ما أرادوا تحكيم القوانين الوضعية إلا لمصلحة الأمة ، حرصا على تقدمها وازدهارها ، ويبلغ بهم النفاق مبلغه حيث يحلفون كاذبين أنهم ما أرادوا بصنيعهم هذا إلا الإحسان وذلك هو ما حكاه القرآن الكريم عن المنافقين ؛ لأن النفاق هو النفاق في كل عصر سورة النساء الآية ٦١ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا سورة النساء الآية ٦٢ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا سورة النساء الآية ٦٣ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا

إنه لا مجال للعدول عن القرآن الكريم إلى كتاب آخر فضلا عن نظام للبشر ، وإلا كان الامتراء سورة الأنعام الآية ١١٤ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

خشية الناس والطمع في أعراض الدنيا

(١٠١/١)

يتعارض الحكم بما أنزل الله مع شهوات المستبدين ورغبات الظالمين ، وكثيرا ما يستولي هؤلاء على أزمة الحكم ، ويقبضون بأيديهم على كل مرفق من المرافق للاستبداد بالأمور كلها ، ويضربون بيد من حديد على الرأي الحر والفكر المستنير ما دام يتعارض مع أهوائهم ومصالحهم . ويضعف أهل الحق عن المجاهرة به والصمود في سبيله ويخشون بأس الظالمين ، فيستكينون لهم وينصاعون لرغباتهم ويكتمون شريعة الله التي استحفظوا عليها ، وقد يبلغ الضعف بهم مبلغه طمعا في عرض من أعراض الحياة الدنيا فيتملقون الطغيان ، ويمالئون ذوي الشهوات ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويصدرون الفتاوى التي تبرر خروج الحكام عن شرعة الله ، وتلتمس لهم المعاذير ، ولذا نهى الله علماء اليهود الذين تهاونوا في تحكيم التوراة تحت تأثير هذه الدوافع : سورة المائدة الآية ٤٤ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

وفي ظل ذلك الجو الخانق يكثر سواد المضللين ، وتختل موازين الحق ، وتفسد قيم الحياة ، وتقرير الحق والباطل ، والهدى والضلال ، لا يرجع إلى موازين الناس وأهوائهم ، أو اصطلاحات المجتمع وقيمه ،

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٨٥)

(١٠٢/١)

وإنما ذلك إلى الله وحده سورة الأنعام الآية ١١٦ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ سورة الأنعام الآية ١١٧ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

اتباع الهوى والتماس المعاذير

إن الوقوف عند حدود الشريعة جهاد لهوى النفس لا يصبر عليه إلا أهل الإيمان ، وللنفس أهواؤها المختلفة ، ونزعاتها المتباينة ، وشريعة الإسلام تكبح جماح الأهواء والنزعات ، ليستقيم سلوك المسلم على ما فيه خيره وخير الإنسانية ، وأهواء الحكم أشد تسلطا على النفس وبعدا عن الحق ، ومهما التمس الناس المعاذير لتبرير الخروج عن شريعة الله وتحكيم القوانين الوضعية ، فإن باعث ذلك هو الهوى ، والهوى وحده ، وقد جرت سنة الله على اختلاف الناس في اتجاهاتهم ومذاهب حياتهم وسلطان الحق هو الذي يجمعهم على كلمة سواء ، وليس سلطان الهوى وترضية النفوس ، ولذا حذر الله تعالى رسوله من ذلك حتى لا يفتن عن شيء من حكم الله سورة المائدة الآية ٤٨ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ

أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ثم قال تعالى : سورة المائدة الآية ٤٩ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ سورة المائدة الآية ٥٠ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ

(١٠٣/١)

أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

كراهية الحق والرغبة في الظلم

عندما تمرض النفس وتقع أسيرة الهوى والشهوة ، تعمى بصيرتها ، فلا تنظر إلا بمنظار هواها ، وهوى النفس لا يأتي عن طريق الحق والحكم بما أنزل الله ، لأن الهوى غي وظلم ، وقد فند القرآن الكريم أسباب كبرياء حكم الجاهلية ، وإعراض ذويه عن حكم الله وحكم رسوله ، وأبطل شبهها ، وأرجع ذلك إلى كراهيتهم للحق ، قال تعالى : سورة المؤمنون الآية ٦٨ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ سورة المؤمنون الآية ٦٩ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ سورة المؤمنون الآية ٧٠ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ

وذكر سبحانه وتعالى في موضع آخر طبيعة النفاق ، واحتمالات سبب إعراض المنافقين عن حكم رسول الله إذا كان الحق عليهم ، وأشارت الآيات إلى أن السبب الحقيقي هو رغبتهم في الظلم وهم يعلمون أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يقضي إلا بالحق سورة النور الآية ٤٧ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ سورة النور الآية ٤٨ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ سورة النور الآية ٤٩ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ سورة النور الآية ٥٠ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٨٦)

(١٠٤/١)

وطواغيت الأرض الذين يتحكمون في عباد الله بأهوائهم ومطامعهم وتعسفهم واستبدادهم يكرهون الإسلام لأنه الدين الحق ويتمردون على حكمه لأنه لا يقضي إلا بالعدل . وهم متجبرون ظالمون .

رابعا : آثار الحكم بغير ما أنزل الله

وللحكم بغير ما أنزل الله آثاره السيئة في حياة الفرد وحياة الأمة ، وفساد الحياة كلها .

أ – له آثاره في حياة الفرد بفراغ النفس وانحراف السلوك ، فإن النفس البشرية إذا لم تكن عامرة بالإيمان بالله وحده ، خاضعة لشريعة مزقتها الأهواء والشهوات ، وأورثتها الاضطراب والخلل ، والحيرة والفراغ ، فالعبد المؤمن يدين لإله واحد ، يطيع أمره ، ويخضع لسلطانه ، فهو يعرف طريقا واحدا يسلكه ، ولا تتنازعه قوة أخرى تشده إليها كالعبد الذي يملكه سيد واحد ، يتلقى منه أوامره فيتمثلها ، يعمل ما يرضيه ، ويسير في اتجاه واحد لا ينازعه فيه منازع ، فهو مستقر النفس مستريح البال سورة الزمر الآية ٢٩ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا إنهما لا يستويان ، فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد يتعلق بإله واحد ، يهتدي به ويسير على شرعه ويؤمن بأنه مصدر ما في الحياة من نفع وضر ، فإليه يتجه في كل أحواله ، ومنه يستمد العون ، إنه يسلك اتجاها واحدا لا يزيغ عنه ، فيحقق بذلك الاستقامة والطمأنينة والاستقرار .

وخواء النفس من الدين ، في فراغها من الانصياع لشريعة الله يبعث فيها الضجر والملل فتنفس عن ضيقها بالانحرافات السلوكية ، والشذوذ في المجتمع ، وتلك حقيقة يسجلها واقع العالم الحديث ، فهذه الدول الراقية . قد استطاعت أن تحقق للإنسان متعة المادة ، ولكنها جعلته فارغ الروح ، يطارده هذا الفراغ ، فيهرب من الحياة الناعمة التي يعيشها ، بل يهرب من نفسه التي بين جنبيه ، فيلجأ إلى التخلص من ذلك الشقاء بالانتحار الذي يفقده الحياة إلى الأبد ، أو بإدمان المخدرات والخمور حتى ينسى الحياة وينسى نفسه بالسكر فترة من الزمن ، وتدل إحصائيات هذه الدول على أن الأمراض العصبية وحوادث الانتحار ، ونسبة الجريمة والشذوذ ترتفع من سنة إلى أخرى وتزداد من عام لآخر ، وحين يفقد أحدهم وسيلة الهرب من الحياة يلجأ إلى الشذوذ والخروج عن مظاهر المجتمع ، وليست ظاهرة " الهيبز " و " الخنافس " سوى التعبير عن هذه الحقيقة المرة .

ب – وللحكم بغير ما أنزل الله آثاره السيئة في حياة الأمة ، وكيان المجتمع ، لأن الأمة التي تعيش بلا ضمير ديني لا يحول القانون الوضعي بينها وبين ارتكاب الجريمة والفساد في الأرض .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٨٧)

لقد تقدمت الدراسات النفسية ، والدراسات الاجتماعية ، والدراسات القانونية لتحد من تفاقم الشر

وانتشار الجريمة ولكنها باءت بالفشل ، ففي طبيعة البشر أن يتمرد على البشر إنه يشعر إزاء سائر الناس أنه إنسان وأنهم أناس وأن هذا الاشتراك في البشرية يقتضي أن يكون الجميع سواء في الحقوق كلها ، فعلام يدين بالولاء والطاعة لقانون من وضع البشر ؟

أيدين له فرارا من جزاء مخالفة بحرمان دنيوي ؟ أو عقوبة دنيوية ؟ إذا فالخطب غير عسير ، ففي استطاعته أن ينقض عرى هذا القانون عروة عروة ، ويهدم بناءه لبنة لبنة في غفلة من حراسة القانون ورجال الأمن ولا يمتلك القانون عقوبة في الدار الآخرة ، ولا يعلم أسرار الناس وبواطنهم .

(١٠٧/١)

أما التشريع السماوي فإنه يستمد سلطته من الله الذي خلق الخلق ، وهو يعلم السر وأخفى سورة غافر الآية ١٩ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وهذا يبعث في نفس المسلم مراقبة الله والحفاظ على شريعته في الغيب والشهادة ، بل يغرس فيها الإخلاص الذي يرعى حرمات الله عن صدق ، ظاهرا وباطنا ، فطاعة التشريع السماوي من كتاب الله أو سنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – لا يكفي في تحقيقها السلوك الظاهري في مرأى الناس ، بل لا بد فيها من خشوع القلب ، واطمئنان النفس ، والانقياد لها بين حنايا الضلوع ، والإفلات من عقوبة الدنيا بالتستر والمخاتلة لا يغني فتيلا عن عقوبة الحياة الآخرة ، ولذا قرن الله في أحكام الشريعة الجزاء الأخروي بالجزاء الدنيوي ، فإن أفلت المرء من هذا لم يفلت من ذاك . يقول تعالى في القتل : سورة النساء الآية ٩٣ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ويقول في المحاربة سورة المائدة الآية ٣٣ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ

وفي القذف : سورة النور الآية ٢٣ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

وبهذا يتربى الضمير المؤمن الحي الذي يسهر على رعاية حرمات الله ، فإن القضاء لا يحل حراما ولا يحرم حلالا .

(١٠٨/١)

سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خصومه بباب حجرته فخرج إليهم ، فقال : صحيح البخاري المظالم والغصب (٢٣٢٦)،صحيح مسلم الأقضية (١٧١٣)،سنن النسائي آداب القضاة (٥٤٠١)،سنن أبو داود الأقضية (٣٥٨٣)،سنن ابن ماجه الأحكام (٢٣١٧)،موطأ مالك الأقضية (١٤٢٤). أيها الناس إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك فمن قضيت له بحق أخيه فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٨٨)

(١٠٩/١)

والأمة التي تحيد عن شريعة الله بعد أن أكرمها الله تعالى بها تستحق عقاب الله ، وإذا كان الله قد أكرم هذه الأمة فلم يعاقبها عقوبة إبادة كما عاقب الأمم المكذبة السابقة ، فإنه يعاقبها بكوارث الحياة ، ونوازل الدهر ، فيتخلى عن نصره لها ، وتتوالى عليها أحداث الزمن ، ويذيقها عدوها بأسه ، فتطحنها نكبات الهزيمة ، وتسام الذل والهوان ، وينوء كاهلها بمصائب الخوف والفقر ، ويومئذ لا تنفعها المعذرة حتى تفيء إلى شرع الله سورة النساء الآية ٦١ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا سورة النساء الآية ٦٢ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا سورة النحل الآية ١١٢ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ويقول تعالى في تهديد من تسول لهم نفوسهم الخروج على شريعة الله : سورة المائدة الآية ٤٩ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ

(١١٠/١)

ويذكر الله تعالى أنه حيث كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين أمته في حياته ، أو كانت شريعته فيها بعد مماته ، فإن الخروج عن طاعته وطاعة شريعته يورث الضعف والمشقة والهلاك ، ولكن حب الإيمان وجمال معانيه في القلب وكراهة المخالفة – لكن هذا العاصم من الخروج عن الطاعة الذي فيه الكفر والفسوق والعصيان سورة الحجرات الآية ٧ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ

يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ سورة الحجرات الآية ٨ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

ولقد استبدلت كثير من دول الإسلام بشريعة الله قوانين البشر ومذاهبهم ورفعت شعارات براقة ، وأوهمت شعوبها بأن هذا هو سبيل رخائها وعزها فماذا كانت النهاية ؟ كانت عار الهزيمة ، وذل الخيانة ، ومأساة التضليل ، وانهيار الاقتصاد ، وفساد المجتمع ، وضياع الفضيلة ، وإهدار القيم ، ووأد الحريات ، وتلك هي سنة الله في أمة أنزل الله في كتابها قوله : سورة الأنفال الآية ٥٣ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وقوله : سورة الرعد الآية ١١ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

جـ – وللحكم بغير ما أنزل الله آثاره السيئة في فساد الحياة كلها :

لقد استخلف الله الإنسان على الأرض ليعمرها بهداية السماء ، وسخر له ما في السماوات والأرض جميعا منه ، ووفقه إلى الاستفادة من طاقات الكائنات وما أودعه الله فيها من قوى ، واستطاع الإنسان في العصر

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٨٩)

(١١١/١)

الحديث أن يبتكر ويبدع ، وأن يأتي بعجائب الحياة ، ويستحوذ على طاقات هائلة في الكون ، وحسن استخدام هذه الطاقات هو الذي يحقق للبشرية الرخاء والأمن ، وسبيل ذلك هو الوقوف في استخدامها عند شرع الله بالحكمة والعدل وحماية الحق والذود عن حياضه ، ورفع لوائه ، وهذا يعني أن تكون تلك القوى بيد مؤمنة أمينة مهتدية ، وإلا كانت وسائل هدم وخراب ودمار وفساد .

هذه حقيقة يدركها الناس اليوم ، وهم يشاهدون التقدم العلمي الباهر في الاستفادة من طاقات الأرض والماء والهواء ، وقد تحول إلى صراع دولي مدمر ، يوشك أن يأتي على بنيان الحضارة الإنسانية من القواعد ، ويحيل الحياة إلى جحيم لا يطاق ، ولو اشتعلت حرب ذرية نووية لأصبح الهواء سموما قاتلة والعمران براكين ثائرة ، والجو نارا متقدة .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما تحمله المذاهب والقوانين البشرية من تدمير للأخلاق ، وانهيار للمجتمع أدركنا كيف يكون فساد السماوات والأرض على يد الإنسان المتمرد على شريعة الله الذي يجعل الحق تبعا لهواه ، وهذا هو ما ذكره الله تعالى في قوله سورة المؤمنون الآية ٧٠ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ سورة المؤمنون الآية ٧١ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ

إن الحق هو ناموس الله للوجود كله ، وهو ثابت لا يتغير ولا تتخلف سنته ، وأهواء الناس متعارضة

متضاربة ، ولو ساير الحق أهواءهم لفسدت أوضاع الحياة كلها ، تفسد حياة المكلفين بفساد أهوائهم وأعمالهم ، وتفسد سائر الكائنات لأنهم قائمون عليها بالتدبير تسخيرا من الله ، فالكون كله لا يكون متناسق الأجزاء حتى يكون خاضعا لله شرعا وتسخيرا .

(١١٢/١)

والأمة التي أشرقت فيها رسالة الإسلام هي أولى الأمم لاتباع هذه الرسالة لما في ذلك من مجد لها وشرف ، وقد ظلت الأمة العربية لا ذكر لها في التاريخ حتى جاء الإسلام فارتفع شأنها ، وذاع صيتها ، وظل هذا الذكر يدوي في آذان الدنيا ما استمسكت به ، وتضاءل بقدر تخليها عنه ، ولن يعود لها ذكر مرة أخرى إلا به . فهل من مجيب ؟

(١١٣/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٩٠)

الشيخ مناع خليل القطان

١ – ولد في قرية " شنشور " إحدى قرى المنوفية بمصر سنة ١٩٢٥ م .

٢ – حفظ القرآن الكريم في مكتب القرية ، وأنهى دراسة المرحلة الابتدائية .

٣ – التحق بالأزهر – معهد شبين الكوم – وتخرج من كلية أصول الدين ، ثم التحق بتخصص التدريس وحصل على العالمية مع إجازة التدريس .

٤ – عمل في التدريس بمصر ، ثم قدم إلى المملكة العربية السعودية معارا للتدريس بالمعاهد العلمية سنة ١٣٧٣هـ – ١٩٥٣ م .

٥ – عمل مدرسا في معهد الرياض العلمي ، ثم في معهد عنيزة ، ثم في معهد الأحساء .

٦ – رقي مدرسا بكلية الشريعة سنة ١٣٧٧ هـ ثم كان محاضرا في المعهد العالي للقضاء منذ تأسيسه سنة ١٣٨٥ هـ وعضوا في مجلس المعهد .

٧ – عين مديرا للمعهد العالي للقضاء سنة ١٣٩٣ هـ ولا يزال ، وعضو المجلس الأعلى لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . ومجلس الجامعة .

٨ – عضوا للجنة الفرعية لسياسة التعليم ومقررها ، ويشرف على مواد التشريع الإسلامي في كلية قوى الأمن الداخلي .

٩ – حضر عدة مؤتمرات إسلامية في دورات : رابطة العالم الإسلامية ، ومؤتمر القدس ، ومؤتمر

كراتشي ، ومنظمات الشباب المسلم العالمية ، والمنظمات الإسلامية ، ومؤتمر مكافحة المخدرات ، ومؤتمر رسالة الجامعة .

١٠ – مؤلفاته :

١ – مباحث في علوم القرآن .

٢ – تفسير آيات الأحكام .

٣ – نظام الأسرة في الإسلام .

٤ – الدعوة إلى الإسلام .

٥ – الإسلام رسالة الإصلاح .

٦ – نظرية التملك في الإسلام .

١١ – له نشاط إعلامي في الإذاعة ، وأبحاث منشورة في المجلات الإسلامية .

(١/١١٤)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٩١)

سورة الشعراء الآية ١٩٣ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ سورة الشعراء الآية ١٩٤ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ سورة الشعراء الآية ١٩٥ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ

سورة يوسف الآية ٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

سورة فصلت الآية ٣ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

اللغة العربية لسان وكيان

أحمد محمد جمال

قبل أن نتحدث عن (اللغة العربية) كلسان للأمة العربية خاصة ، وللعالم خاصة ، وللعالم الإسلامية الأكبر بصفة عامة ، وأثرها العميق الوثيق في تكوين كيان الأمة الإسلامية عقيدة وشريعة ، وخلقا وتعاملا وارتباطا . .

قبل ذلك لا بد من مقدمة وجيزة عن " اللغة " من حيث الاصطلاح الأدبي والاجتماعي :

اختلف الباحثون في نشوء اللغات : هل هو توقيفي ؟ أم تواضعي ؟ ويقول ابن فارس في كتابه " فقه اللغة " : أن لغة العرب توقيف ، ودليل ذلك قوله تعالى : سورة البقرة الآية ٣١ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا أي الأسماء التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وجبل وسهل وأشباه ذلك . . ويوضح ابن فارس معنى أن اللغة توقيف بقوله : " وليس معنى ذلك أن اللغة كلها جاءت جملة واحدة ، وإنما المعنى أن الله علم آدم ما شاء ، ثم علم بني آدم بعده ما شاء أيضا حتى انتهى الأمر إلى نبينا " – صلى الله عليه وسلم – " ، فآتاه الله ما لم يؤت أحدا من قبله .

أما ابن جني فيقول : في كتابه " الخصائص " : إن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة ، وذلك بأن يضع حكيمان أو ثلاثة لكل واحد من الأشياء سمة ولفظا " .

ويرى علماء الاجتماع أن " اللغة " تجعل من الأمة الناطقة بها كلا متراصا يخضع لقانون واحد ، وأنها الرابطة الحقيقية الوحيدة بين عالم الأذهان وعالم الأبدان . وهي نظرية تصدق على لغتنا العربية

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٩٢)

(١١٥/١)

كما يقول الدكتور عثمان أمين – أكثر مما تصدق على أية لغة أخرى . فاللغة العربية عظيمة الأثر في تكوين عقليتنا ، وهداية سلوكنا ، وتصريف أفعالنا . ذلك أنها تمتاز على اللغات الأخرى " بمثالية " عميقة صريحة ، تحسب حساب الفكرة والمثال وتضعهما مكان الصدارة والاعتبار . . أي أن لغتنا العربية تفترض دائما أن شهادة الفكر أصدق من شهادة الحس ، ويكفي في التعبير بها إنشاء علاقة ذهنية بين المسند والمسند إليه ، دون حاجة إلى فعل الكينونة الذي هو لازمة ضرورية في اللغات " الهندو – أوربية " ودون الحاجة إلى التصريح بضمير المتكلم أو المخاطب أو الغائب ، لأن الذات متصلة دائما بالفعل في نفس تركيبه الأصلي .

ويقول ابن خلدون : الملكات الحاصلة للعرب أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات على كثير من المعاني ، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول والمجرور – أي المضاف – ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال إلى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى . . ولا يوجد ذلك إلا في لغة العرب . وأما غيرها من اللغات فكل معنى أو حال لا بد من ألفاظ تخصه بالدلالة ، ولذلك نجد كلام العجم في مخاطبتهم أطول مما نقدره بكلام العرب . . " .

(١١٦/١)

حقيقة التلازم بين الإسلام والعربية

والآن نتحدث عن حقيقة الارتباط الوثيق بين اللغة العربية والإسلام ، وأسراره وآثاره . .

إن الواقع التاريخي للغة العربية وللدين الإسلامي – خلال أربعة عشر قرنا – يثبت حقيقة التلازم والارتباط بين انتشار كل منهما وازدهاره بمساعدة الآخر .

هذا إلى جانب حقيقة أخرى واضحة وثابتة هي : إن في كل من الدين الإسلامي واللغة العربية من

القوة الذاتية والاستعداد الأصيل ما يكفل له الغلبة والانتصار .
فاللغة العربية – ذاتها – لغة حية أدت رسالتها في الحياة خير أداء ، وعبرت في عصورها الأولى عن حاجات المجتمعات التي تتخذها لغة لها تعبر بها عن مطالبها وآلامها وعلومها وآدابها وفنونها ، وما زالت مستعدة للتعبير عن الحياة وما جد فيها ، ومستعدة أن تتسع أكثر من ذي قبل لكل جديد مبتكر ومخترع حديث كما يقول الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في كتابه " الفصحي والعامية " .
واللغة العربية أيضا – من أغنى لغات البشر ثروة لفظية تستوعب حاجات الأمة الحسية والمعنوية – كما يقول الأستاذ مصطفى السقا في مقدمة كتاب " المعجم العربي " للدكتور حسين نصار .
والعرب منذ أواخر العصر الجاهلي مهتمون بلغتهم معتزون بتراثها الأدبي ، وقد قيل : " الشعر ديوان
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٩٣)

(١١٧/١)

العرب " ولكن اهتمامهم واعتزازهم بها ازداد مع ظهور الإسلام لأن الله عز وجل اختارها لغة لدينه قرآنا وسنة وعبادة وتشريعا . وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد ، ثم تضاعف الاهتمام والاعتزاز باللغة العربية وحفظ التراث اللغوي وتنقيته من الدخيل الأعجمي أثناء الفتوحات الإسلامية وبعدها . وعلى الرغم من أن الاستعمار الغربي كان يعمل لهدم اللغة العربية بحسبانها لسان الدين الإسلامي الذي ما يزال يحاول هدمه بالدعوة إلى استخدام اللهجات العامة لغة للتأليف والكتابة لقد فعل اللورد " دفرين " السياسي البريطاني حين طالب بتدوين العلوم باللغة العامية المصرية . وكما حاول المستعمرون الفرنسيون في الجزائر ، إلا أن هذه الدعوات والمحاولات الاستعمارية قد باءت بالخيبة والفشل والخسران المبين .
وننتقل الآن إلى الحديث عن أثر الإسلام في انتشار اللغة العربية ، وسنروي أقوال بعض أئمة اللغة والأدب مختصرة عن حقيقة التلازم القوي بين انتشار الإسلام بالعربية وانتشار العربية بالإسلام .
ونبدأ بالأزهري الإمام اللغوي المشهور ، فهو يقول في مقدمة كتابه " تهذيب اللغة " :
" الحمد لله ، على ما أسبغ علينا من نعمه الظاهرة والباطنة ، وهدانا إلى تدبر تنزيله ، والتفكر في آياته والإيمان بمحكمه ومتشابه ، والبحث عن معانيه ، والفحص عن اللغة العربية التي نزل بها الكتاب والاهتداء بما شرع فيها ، ودعا الخلق إليه وأوضح الصراط المستقيم به ، وهداهم إلى ما فضلنا به على كثير من أهل هذا العصر في معرفة لغة العرب التي نزل بها القرآن ووردت سنة المصطفى النبي المرتضى عليه السلام .
هذا النص من مقدمة " التهذيب " لأحد أئمة اللغة الإعلام كاف لأن نتبين الباعث الأساسي على

الاهتمام باللغة العربية ، وتدوينها وتصحيحها ونشرها ألا وهو " الإسلام " قرآنا وسنة وعبادة وتشريعا .

(١١٨/١)

والقرآن نفسه ، قبل كلام الأزهري وأمثاله من علماء اللغة ، يؤكد حقيقة هذا الباعث الأساسي للاهتمام باللغة العربية والاعتزاز بتراثها العلمي والأدبي . فقد من الله تبارك وتعالى على رسوله – صلى الله عليه وسلم – وعلى العرب الذين بعث فيهم ومنهم بقوله عز وجل :

سورة يوسف الآية ٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

سورة الأنبياء الآية ١٠ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

سورة الزخرف الآية ٤٤ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ

سورة النحل الآية ٤٤ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ إلخ . . .

فنزول القرآن الكريم بالعربية – كما يتضح من آيات القرآن نفسه – دليل أهميتها وأفضليتها وباعث نهضتها ، وصاحب الفضل الأكبر والأثر الأظهر في نشرها وخلودها . وهي – أيضا – لأنها أغنى اللغات بيانا وأقواها برهانا كانت ولا تزال عاملا مساعدا لنشر الإسلام ، والإقبال عليه . ويكفي تدليلا على ذلك

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٩٤)

اختيار الله لها لسانا لدينه العام والأخير ، وهو الإسلام ومنه بذلك على العرب خاصة والمسلمين عامة .

وقد روى الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال : (لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا ، والعلم بها عند العرب كالعلم بالسنن عند أهل الفقه) .

كما نقل عن الإمام ابن تيمية قوله : " إن اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهم إلا باللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " .

(١١٩/١)

ويقول الأزهري في مقدمته : إن تعلم العربية التي يتوصل بها إلى تعلم ما تجزئ به الصلاة من تنزيل وذكر فرض على عامة المسلمين . وإن على الخاصة التي تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون إليه لدينهم الاجتهاد في تعلم لسان العرب ولغاتها التي بها التوصل إلى معرفة ما في الكتاب (

القرآن) ثم في السنة والآثار وأقاويل أهل التفسير من الصحابة والتابعين من الألفاظ الغريبة ، فإن الجهل بذلك جهل بجملة علم الكتاب إلخ .

ثم يذكر الأزهري أن من أسباب قيامه بتأليف كتابه : النصيحة الواجبة على أهل العلم لجماعة المسلمين كما جاء بها التوجيه النبوي : سنن الترمذي البر والصلة (١٩٢٦)،سنن النسائي البيعة (٤١٩٩). الدين النصيحة أي أن دينه حمله على أن يضع كتابه في اللغة العربية لإفادة الناس ما يحتاجون إليه ، والدفاع عن لغة العرب التي جاء بها القرآن ، وجاءت بها السنن والآثار . .

ويقول الأستاذ العقاد رحمه الله في مقدمة كتاب " الصحاح " للأستاذ العطار : (ولقد قيل كثيرا إن اللغة العربية بقيت لأنها لغة القرآن . وهو قول صحيح لا ريب فيه ، ولكن القرآن الكريم إنما أبقى اللغة لأن الإسلام دين الإنسانية قاطبة وليس بالدين المقصور على شعب أو قبيل . وقد ماتت العبرية وهي لغة دينية أو لغة كتاب يدين به قومه ، ولم تمت العبرية إلا لأنها فقدت المرونة التي تجعلها لغة إنسانية ، وتخرجها من حظيرة العصبية الضيقة بحيث وضعها أبناؤها منذ قرون) .

ثم يضيف الأستاذ العقاد : " إن هذه الفضيلة الإنسانية التي لا تفرق بين العربي والأعجمي ولا بين القرشي والحبشي ، لهي التي أنهضت لخدمة اللغة أناسا من الأعاجم غاروا عليها من حيف الأعجمية – أي أنهم غاروا عليها من لغة أمهاتهم وآبائهم ، لأنها لغتهم على المساواة بينهم وبين جميع المؤمنين بالقرآن الكريم كتاب الإسلام " .

(١٢٠/١)

ويقول العقاد أيضا : " وستبقى اللغة العربية ما دام لها أنصار يريدون لها البقاء . ولم ينقطع أنصارها في عصرنا الحاضر بل نراهم بحمد الله يزدادون ويتعاونون . ويتلاقى أبناء البلاد المختلفة على خدمتها ودعمها ، لأنهم مختلفون بمواقع البلاد متفقون بمقاصد الضمائر والألسنة والأفكار " .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٩٥)

إن العقاد يعني بما قدم : أن إنسانية الإسلام وعالمية تشريعه الحكيم هي التي ساعدت على انتشار اللغة العربية التي هي لغة كتابه " القرآن " الذي وحد في المؤمنين به " مقاصد " الضمائر والألسنة والأفكار ، على الرغم من اختلافهم في مواقع البلاد . .

ويقول الدكتور حسين نصار في " المعجم العربي " لم تنهر اللغة العربية بانهيار الدولة الأموية وذلك بفضل القرآن الذي أحاط اللغة العربية بهالة من القداسة والجلال غمرت كل مسلم مهما كان جنسه ومهما كانت لغته ، فاستمرت حية تتوارثها ألسنة جيل بعد جيل . وأن السبب المباشر الذي أظهر الدراسات اللغوية هو ارتباطها بالدراسات الدينية ، واتحادها في النشأة . . . فقد أنزل القرآن كتاب العربية الأعظم على الرسول العربي الكريم ليدعو قومه إلى سبيل الرشاد فكان بلغتهم وعلى أساليب

كلامهم .

وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – ثم الصحابة من بعده المرجع في تفسير القرآن ، ثم جاءت الحركة العلمية الأولى عند المسلمين التي شملت في مدة وجيزة جميع العلوم التي عرفها العالم القديم ، فما اتصل بالقرآن كان أولها ظهورا حيث ظهرت كتب (غريب الحديث) وكان آخر الظواهر التي أمدت الدراسات اللغوية بالروافد ظاهرة التدوين العلمي حيث وضعت معظم العلوم العربية في أواخر العصر الأموي وأوائل العهد العباسي : كعلوم القرآن والحديث والفقه والنحو والرياضة والمنطق والكلام والفلسفة إلخ . . " .

(١٢١/١)

ويقول الأستاذ سيد قطب في كتابه " المستقبل لهذا الدين " : إن انتصار الصليبين في الأندلس وانتصار اليهود في فلسطين . . أعظم شاهد على أنه حين يطرد الإسلام من أرض ، فإنه لا تبقى لغته ولا قوميته بعد اقتلاع الجذر الأصيل) .

ويقول أيضا : " إن المماليك – وهم من جنس التتار – حموا من التتار بلاد العرب ، مع أنهم ليسوا من جنس العرب ، فصمدوا في وجه بني جنسهم المهاجمين دفاعا عن الإسلام ، لأنهم كانوا مسلمين . . صمدوا ليحياء من العقيدة الإسلامية ، وبقيادة روحية إسلامية من الإمام المسلم (ابن تيمية) الذي قاد التعبئة الروحية وقاتل في مقدمة الصفوف . . وكذلك حمى صلاح الدين الأيوبي هذه البقعة من اندثار العروبة والعرب واللغة العربية وهو كردي لا عربي . . وهو إنما حفظ لها عروبتها ولغتها حين حفظ لها إسلامها من غارة الصليبيين ، لقد كان الإسلام في ضمير صلاح الدين هو الذي كافح الصليبيين ، كما كان الإسلام في ضمير المظفر قطز والظاهر بيبرس والملك الناصر هو الذي كافح التتار المتبربرين " .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٩٦)

ولغير العرب وغير المسلمين شهادات مماثلة :

يؤكد جورجي زيدان في كتابه (آداب اللغة العربية) تأثير القرآن في أخلاق أهله وعقولهم وقرائحهم ومعاملاتهم . فالصبغة القرآنية أو الإسلامية – كما يقول – تظهر في مؤلفات المسلمين ، ولو كانت في موضوعات علمية . . كالفلسفة والفلك والحساب ، فضلا عن العلوم أو الآداب الشرعية .

(١٢٢/١)

وبعد أن يشير جورجي زيدان إلى تأثير القرآن في حياة المسلمين المعاشية والاجتماعية يقول : " . . وهذا ما لا نراه في الأناجيل – مثلا – فإنها كتب تعليمية لمصلحة الآخرة فقط . ولا نجد فيها شرعا ، ولا حكومة ولا أحوالا شخصية . . أو نحو ذلك " . ثم يضيف : " وبالجملة فإن للقرآن تأثيرا في آداب اللغة العربية ، ليس لكتاب ديني مثله في اللغات الأخرى " . وجورجي زيدان هذا – كما نعلم – كاتب مسيحي معروف . . فاعترافه بتأثير القرآن على المسلمين خلقا وأدبا ولغة وثقافة ، وخلو الكتب الأخرى ، ومنها الأناجيل ، من هذا التأثير – اعترافه هذا له قيمته الكبيرة ، ودلالته الخاصة .

وفي كتاب " اللغات السامية " لأرنست رينان تأكيد آخر لأثر الإسلام في انتشار اللغة العربية ، فهو يقول : " إن من أغرب ما وقع في تاريخ البشر ، وصعب حل سره : انتشار اللغة العربية . . حيث بدت فجأة في غاية السلامة والغنى والكمال ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة . ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم إلى اللغة العربية ليفهمها النصارى " .

كما يقول المستشرق برنارد لويس في كتابه " العرب في التاريخ " :

" إن موجات الفتح الكبرى التي تلت موت محمد – صلى الله عليه وسلم – وإقامة الخلافة على أرس الأمة الإسلامية الناشئة قد سطرت بحروف كبرى كلمة " عرب " على خريطة القارات الثلاث : آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وجعلت منها عنوانا لفصل حاسم رغم قصره ، في تاريخ الفكر والأعمال البشرية " .

نكتفي بهذه الآراء والنظريات الحاسمة ، لبعض أئمة اللغة والأدب والتاريخ – في القديم والحديث – مسلمين وغير مسلمين . . كحجة ساطعة قاطعة على مدى التلازم الوثيق والارتباط الشامل بين انتشار الإسلام بالعربية ، وانتشار العربية بالإسلام ، لأنها لسانه المبين ، ولغته الساحرة ، ولأنه هو روحها النافذ وعقلها الرشيد .

(١٢٣/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٩٧)

تآمر الأعداء على اللغة العربية

الذين كادوا للغة العربية كثيرون ، من مستشرقين ومستغربين . وغايتهم من ذلك القضاء على وحدة المسلمين التي هي ثمرة التقائهم على لغة واحدة هي لغة " القرآن " ولغة " السنة النبوية " ولغة التراث الحضاري الإسلامي المجيد . .

من المستشرقين المتآمرين على اللغة العربية :

القاضي الإنجليزي " دلمور " الذي عاش في مصر وألف سنة ١٩٠٢ م كتابا سماه (لغة القاهرة) ووضع فيه قواعد اقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب ، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية . وفي سنة ١٩٢٦ م دعا " وليم ويلكوكس " مهندس بالري حينذاك في مصر إلى هجر اللغة العربية ، وخطا باقتراحه خطوة عملية ، فترجم الإنجيل إلى ما سماه باللغة المصرية .

وممن أعلنوا آراءهم في أهمية اللغة وأثرها في وحدة المسلمين وقوتهم : القس زويمر " ١٩٠٦ " الذي دعا أيضا إلى القضاء عليها تمهيدا للقضاء على الإسلام ووحدة المسلمين ، ومثله " وليم جيفورد بالجراف " الذي يقول : " متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في قبول الحضارة المسيحية التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه " .

ويزعم " أرنولد توينبي " : أن اللغة العربية لغة دينية لا تصلح إلا للطقوس والشعائر كالصلاة ، وتلاوة القرآن والدعاء .

وهناك المستشرق الألماني " سبيتا " الذي بدأ الدعوة إلى استعمال اللغة العامية لتحل محل العربية سنة ١٨٨٠ م .

أما العرب المستغربون :

الذين حطبوا في حبل أعداء الإسلام ، وكالوا بصاعه فمنهم :

عبد العزيز فهمي عضو المجمع العلمي المصري . . الذي تقدم سنة ١٩٤٣ م باقتراح لاستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وشغل المجمع ببحث اقتراحه

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٩٨)

ثلاث سنوات حتى خصص المجمع جائزة مالية لمن يتقدم بأحسن اقتراح لتيسير الكتابة العربية . .

وسلامة موسى ، الكاتب المصري المسيحي المعروف بعدائه للإسلام ، الذي أيد اقتراح " ولكوكس " أن تكون هناك لغة مصرية للكتابة والتأليف ، وقال : " إن اللغة العربية لغة بدوية ، وأنها لغة رجعية متخلفة " .

ورفاعة الطهطاوي . . الذي دعا بعد عودته من فرنسا سنة ١٢٨٥ هـ إلى استعمال اللغة العامية وتصنيف الكتب بها . ومثله الدكتور لويس عوض الكاتب المصري .

وكذلك سعيد عقل الكاتب اللبناني . . دعا إلى استخدام اللغة العامية ، وكتابتها بالحروف اللاتينية قائلا في وقاحة عجيبة : " من أراد لغة القرآن فليذهب إلى أرض القرآن " .

وأحمد لطفي السيد – من مصر – دعا إلى التسامح في قبول المسميات الأجنبية ، وإدخالها في اللغة العربية ، زاعما أن استعمال المفردات العامية وتراكيبها : إحياء للغة الكلام والخطاب ، وأننا

بذلك نجعل العامة يتابعون كتابة الحاصة ، وخطبهم وأحاديثهم .
ولئلا نطيل نحيل القارئ إلى كتاب " الاتجاهات الوطنية " للدكتور محمد حسين – وكتاب " أباطيل وأسمار " للأستاذ محمد محمود شاكر – وكتاب " تاريخ الدعوة إلى اللغة العامية " للدكتورة نفوسة زكريا سعيد – وكتاب " التبشير والاستعمار " للأستاذين عمر فروخ ومصطفى الخالدي . .

لغة عربية جديدة
وفي عام ١٣٩٣ هـ " ١٩٧٣ م " انعقد في برمانا في لبنان مؤتمر ضم عددا من أساتذة الجامعات في أمريكا وأوروبا والبلاد العربية . وبحث فيه اقتراح فرنسي قدمه جاك بيول ، وأندريه رومان ، ورولان مانيه . . بإيجاد لغة عربية جديدة تكون مفرداتها هي المفردات الأكثر تداولا بين الناطقين بالضاد . . أي استعمال اللهجات العامية الدارجة ، وذلك بحجة أن " الاستعمال هو السيد الذي يفرض نفسه " .
وهكذا يتكرر الزعم الفاسق بأن الفصحى لا تستجيب للحضارة الحديثة ، ولا تستوعبها ، وأنها عسيرة على الذين يتعلمونها ، ولا بد من استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وكتابتها باللهجات العامية الدارجة . . وقد قام فريق من الأدباء العرب بتأليف الكتب ، ونظم الأشعار ، وكتابة القصص باللهجات
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٩٩)
العامية تطبيقا لهذه الدعوة الماكرة ، ومظاهرة لدعاتها الكائدين للإسلام والعربية ، ومحاولة لإقناع الجماهير بأن اصطناع اللغة العامية في الأدب العربي والصحافة العربية . . إنما هو اعتراف بحقها – أي الجماهير – في العلم والفهم ، وفي التأثر بالرأي العام والتأثير فيه .
والدعاة الآخرون إلى الشعر الحر ، والشعر المرسل . . المنتقدون لقواعد القصيد العربي ونظام الوزن والقافية – ليسوا بعيدين عن ميدان التآمر على اللغة العربية وبلاغتها المؤثرة ، وأدبها الممتع .
وليس أدل على خطأ هذه الدعوات والمحاولات ، وخداع حملتها وافترائهم وزروهم ، من الحقائق والتجارب العلمية والتربوية التالية :
أولا : أن ما تتهم به العربية من تقصير ليس في ذاتها ، وإنما التقصير الحقيقي هو في نفر من المدرسين الذين يتولون تدريسها للطلاب في المعاهد والكليات ، ويؤلفون فيها كتبهم ومراجعهم (كما يقول الدكتور عمر فروخ) .

ثانيا : أن أحد أسباب الصعوبة التي يجدها الأطفال في تعلم اللغة العربية : هو فرض لغة أجنبية عليه في المدرسة في سن مبكرة ، وأن ازدواجية اللغة في هذه السن الباكرة هي الخطر الحقيقي الذي تتجنبه كل دول العالم ، فاللغة الأجنبية يمكن تعلمها عند الحاجة إليها في ثلاث شهور ، كما يقول أحد رجال التربية في لبنان " في مجلة الحوادث عام ١٩٧٣ م " .

ثالثا : أن اللغة العربية حفظت التراث العالمي ، والعلمي بالذات ، واستوعبتهما قرونا طويلة من الزمن ؛ فكيف تعجز الآن عن القيام برفس الدور ؟ .

رابعا : إن ثمة مصاعب تواجه كل لغة في العالم ، وثمة طرق وأساليب للتغلب على تلك المصاعب ، أهمها : بالتأكيد تطوير طرق تدريس اللغة وتعلمها .

خامسا : يقول الكاتب الإنجليزي " هكسلي " : إن كتابة العلوم والآداب باللغة العامة يضعف المواهب العلمية ، ويقضي على ملكة الإنشاء الفصحى . لذلك ينبغي أن نرقي بعقول العامة إلى فهم لغة العلم والأدب العالية . . لا أن ننزل بالعلماء والأدباء إلى مستوى العامة .

ومع يقيننا الثابت بخسران هذه المحاولة اللئيمة في معركتها الفاشلة ضد اللغة العربية ، لغة القرآن ولغة

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٠٠)

الدين الإسلامي ، خسرانها اليوم وغدا كما خسرت بالأمس القريب والبعيد ، إلا أننا لا نجد بدا من وقفة قصيرة ، نرد فيها الشبهة التي يختلقها الدعاة المتآمرون ، حول مقدرة اللغة العربية وكفايتها وبلاغتها ، وتفضح – إلى جانب ذلك – ما تقتضيه دعوتهم المنكرة من تخريب للمجد الأدبي العربي ، وتذويب للشخصية العربية الأصيلة لغة وأدبا وتاريخا وحضارة .

إن الدفاع عن اللغة العربية الفصحى : هو دفاع عن القرآن ، وعن الدين الإسلامي : قرآنه ، وحديث رسوله ، وتاريخه ، وتراثه الفقهي ، وذخائره الفكرية والأدبية الخالدة الماجدة . .

(١٢٧/١)

واللغة العربية التي حملت هذا الميراث الضخم الفخم المتطاول على الزمن من حضارة الإسلام الدينية والفكرية والعلمية منذ أربعة عشر قرنا – لا يعجزها بل لم يعجزها فعلا أن تمضي في رسالتها البيانية والتاريخية وإلى الأبد الأبيد .

أما أنها عسيرة على الذين يتعلمونها ، فهذا شأن كل لغة أجنبية يتعلمها من هو من غير أهلها . فاللغة الإنجليزية أو الفرنسية – مثلا – عسيرة على الذين يتعلمونها من العرب لكثرة ما فيها من

شواذ في القاعدة ، والنطق ، والكتابة . . وهو ما لا يوجد في العربية مثيله أو نظيره .
أما عواقب التذويب والتخريب ، التي يقتضيها استعمال اللغة العامية في كل قطر عربي ، بديلا عن اللغة الفصحى – فيأتي في مقدمتها الانفصال التام بين شعوب البلاد العربية ، لأن كل شعب منها سيقتصر على لغته المحلية تفاهما وتعاملا ، وتعليما وصحافة وتأليفا ، فيتعذر اللقاء بين الشعوب العربية على علم أو أدب أو تعامل أو فكر أو عمل . وهذا ما تريده " الصليبية الاستعمارية " فصما للوحدة العربية التي وسيلتها اللسان العربي ، وقوامها الدين الإسلامي .
ونقول : إن قوام الوحدة العربية : هو الدين الإسلامي ، لأنه لا يمكن فصل الإسلام عن اللغة العربية ولا عن الأمة العربية التي أعزها الله بالإسلام ، والتي لا يمكن أن تحيى مجيدة سعيدة إلا في ظله الكريم العزيز .
ومن عواقب التخريب والتذويب ، لهذه المؤامرة الماكرة الخاسرة : إهمال جميع الكتب العربية القديمة والحديثة – المؤلفة بالفصحى بما في ذلك مراجع العقيدة والشريعة ، وعلى رأسها القرآن والسنة ، والقيام – من جديد – بوضع كتب باللغة العامية أو بالحرف اللاتيني ، والتدريس في المدارس والمعاهد والكليات ، على الطريقة الجديدة ، بعد إلغاء المناهج الحالية ، وتخريج معلمين ومدرسين على النظام العامي أو النظام اللاتيني ! !
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٠١)

(١٢٨/١)

وبعد فإن اللغة العربية التي وسعت كتاب الله (لفظا وغاية) كما قال " حافظ إبراهيم " ووسعت أيضا حضارة الإسلام خلال أربعة عشر قرنا : علما وأدبا وفكرا وتاريخا ، واستطاع علماء العرب ومفكروهم ومترجموهم – قديما – أن يستولدوها كلمات ومعاني جديدة من لغات أخرى ، عن طريق التعريب والاشتقاق . . .
هذه اللغة الولود الودود ، الغنية السخية ليست عاجزة عن مسايرة ركب العلم الحديث ، وإنما أبناؤها العاقون هم العاجزون . وهم الذين يخربون بيوتهم بأيديهم ، ويطفئون نور حضارتهم بأفواههم ، ويطمسون معالم شخصيتهم العربية الإسلامية الأصلية بآرائهم المنحرفة .
إلا أن المتآمرين على الإسلام ، ولغته ، وتراثه الحضاري المجيد الرشيد : هم الخاسرون . . .

(١٢٩/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٠٢)

الأستاذ أحمد محمد جمال

عضو مجلس الشورى . . بالمملكة العربية السعودية .

أستاذ الثقافة الإسلامية في جامعة الملك عبد العزيز منذ تأسيسها عام ١٣٨٧ هـ .

عضو اتحاد المنظمات الإسلامية العالمية .

عضو اللجنة الثقافية العاملة برابطة العالم الإسلامي .

من مؤلفاته :

محاضرات في الثقافة الإسلامية

مفتريات على الإسلام

على مائدة القرآن أربعة أجزاء

مكانك تحمدي

استعمار وكفاح

نحو سياسة عربية صريحة

كرائم النساء .

من مواليد عام ١٣٤٣ هـ .

(١٣٠/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٠٣)

مقارنة بين أسلوب الحديث النبوي وأسلوب القرآن الكريم

مصطفى أحمد الزرقا

تعريف . . : الدكتور مصطفى أحمد الزرقاء رئيس الموسوعة الإسلامية بالكويت سابقا . .

الفرق عظيم جدا بين أسلوب الحديث النبوي وأسلوب القرآن في طريقة البيان العربي . فبينهما شقة واسعة لا يشبه أحدهما الآخر لدى أهل البصر باللغة وأساليبها ، وبالمأثور المألوف من بيانها قديمه وحديثه .

وإن هذا التفاوت الكبير في الأسلوبين إذا أنعم الإنسان فيه النظر وكان ذا ملكة بيانية لا يترك لديه مجالا للشك والريبة في أن الحديث النبوي والقرآن صادران عن مصدرين مختلفين .

فالحديث النبوي كما سنرى في نصوصه التي سنعرض أمثلتها قريبا جاء كله على الأسلوب المعتاد للعرب في التخاطب ، تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهم والتعليم والخطابة في صورها ومناهجها المألوفة لدى العرب ، ويعالج جزئيات القضايا والمسائل ويجيب عنها ، ويحاور ويناقش كما

يتخاطب سائر الناس بعضهم مع بعض . ولكن يتميز من الكلام العربي المألوف بأن فيه لغة منتقاة غير نابية . وأن فيه إحكاما في التعبير وجمعا للمعاني المقصودة بأوجز طريق وأقربه دون حشو ، مما استحق به التسمية بجوامع الكلم . فهو كلام عربي من الطراز المعتاد المألوف ولكنه على درجة عليا من أساليب البلغاء المعهودة .

أما أسلوب القرآن فهو أسلوب مبتكر لا يجد الناظر فيه والسامع شبيها له فيما يعرف من كلام العرب

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٠٤)

وأساليبهم . يعالج الكليات ، ويفرض الأحكام ، ويضرب الأمثال ، ويوجه المواعظ ، في عموم لا تشبهه العمومات المألوفة ، وخطاب فيه من التجريد ما يجعل له طابعا منقطع النظير .

وإذا أخذ كتاب تاريخ وقورن بما في القرآن من قصص تاريخي لما وجد أيضا بينهما شبه في الأسلوب ولو أنهما عالجا قصة واحدة .

(١٣١/١)

ولو أخذ كذلك كتاب مواعظ وأخلاق وقورن بما في القرآن من مواعظ لما كان بينهما أيضا شبه أصلا في الأسلوب ولو اتحد الموضوع .

وهكذا لا يمكن أن يجد الباحث كلاما أو كتابا في اللغة العربية يمكن أن يتحد أو يتشابه أسلوبه وأسلوب القرآن . فهو صورة جديدة مبتكرة في البيان العربي جارية على قواعد العرب وطريقتهم في التركيب ، ولكنه يختلف عنها كل الاختلاف فيما نسميه بالأسلوب ، بحيث إنك لو خلطت سورة أو جملة آيات بمجموعة أخرى من كلام العربي لاستطعت أن تميزها منها بسهولة .

(أما الحديث النبوي فأسلوبه يختلف كل الاختلاف عن أسلوب القرآن ويمكن أن يشتبه أسلوبه بأساليب البلغاء ولذلك كثيرا ما توضع الأحاديث كذبا على لسان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من حيث لفظها ومعناها على السامع العادي ولهذا كان التحقق عن صحتها لدى رجال الحديث يكاد ينحصر في البحث عن السند) .

ومن المسلم به لدى أهل البصر الأدبي أنه من المتعذر على الشخص الواحد أن يكون له أسلوبان في بيانه يختلفان اختلافا كبيرا أحدهما عن الآخر ويجري كل منهما في ذاته على نسق متشابه لا يختلف في درجة بلاغته وطريقته ، ويختلف عن أسلوبه الآخر اختلافا كليا ، فهذا مما لم يعهد في التاريخ الأدبي المعروف . بل إذا أراد أحد الكتاب أن يخرج عن الأسلوب الذي هو متميز فيه إلى أسلوب آخر فلا بد أن يظهر فيه التكلف ، ولا يمكن أن يتقن ذلك الأسلوب الثاني ، فما بالك بهذا التفاوت الكلي بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث ؟ .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٠٥)
فمن يتوهم من الأجانب أن القرآن هو مجموعة من تأليف النبي عليه السلام إلى جانب أحاديثه إنما منشأ وهمهم هذا عدم إمكانهم أن يتذوقوا الفارق العظيم بين الأسلوبين لكي يعرفوا إمكان وحدة المصدر فيهما أو اختلافه .

(١٣٢/١)

هذا الاختلاف الواسع المدى بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي الذي يوجب الحكم باختلاف مصدرهما يتجلى واضحا لكل ذي إدراك في الأسلوب العربي وذوق في لسان العرب من المقارنة بالأمثلة الواردة منهما في موضوع واحد .
فلو أننا أخذنا من القرآن آيات ، ومن الحديث النبوي أحاديث في موضوع تلك الآيات نفسه ، لرأينا بهذه المقارنة من اختلاف الأسلوبين الحاكم باختلاف المصدر ما فيه البرهان الكافي :
١ – فلنأخذ مثلا قول الحق جل وعلا في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :
سورة آل عمران الآية ١٠٤ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
ولننظر مقابله في المعنى نفسه قول النبي عليه الصلاة والسلام .
مسند أحمد بن حنبل (٣٩٠/٥). لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم .
٢ – ولنأخذ مثلا في موضوع الإخاء في الدين قول الله العظيم في سورة الحجرات :
سورة الحجرات الآية ١٠ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
ولننظر مقابله في نفس المعنى قول النبي عليه السلام .
صحيح البخاري المظالم والغصب (٢٣١٠)،صحيح مسلم البر والصلة والآداب (٢٥٨٠)،سنن الترمذي الحدود (١٤٢٦)،سنن أبو داود الأدب (٤٨٩٣)،مسند أحمد بن حنبل (٩١/٢). المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه .
ومعنى (يسلمه) أن يتركه لعدوه فلا يحميه ولا يمنعه منه .
٣ – ولنأخذ أيضا قول الخالق العظيم في موضوع الإخاء الإنساني العام والتآلف والتفاضل والصلاح ، لا بالعرق والنسب ، ولا بالمال والنسب :

(١٣٣/١)

سورة الحجرات الآية ١٣ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

ولننظر في المعنى نفسه أقوال النبي عليه السلام التالية .

مسند أحمد بن حنبل (٤١١/٥). أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٠٦)

لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى .

صحيح مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٩)،سنن الترمذي القراءات (٢٩٤٥)،سنن ابن ماجه المقدمة (٢٢٥)،مسند أحمد بن حنبل (٢٥٢/٢)،سنن الدارمي المقدمة (٣٤٤). من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه .

مسند أحمد بن حنبل (٤٠٠/٢). المؤمن آلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

٤ – ولنأخذ أيضا قول الله سبحانه في ارتباط صلاح الحياة الاجتماعية بنظام العقوبة على الجنايات :

سورة البقرة الآية ١٧٩ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

ولننظر في مقابله قول النبي – عليه السلام .

سنن النسائي قطع السارق (٤٩٠٥)،سنن ابن ماجه الحدود (٢٥٣٨)،مسند أحمد بن حنبل (٤٠٢/٢). إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحا .

٥ – ولنأخذ أيضا قوله سبحانه في وجوب أداء الأمانة والحكم بالعدل :

سورة النساء الآية ٥٨ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا

ولننظر في مقابلة أقوال النبي عليه السلام .

سنن أبو داود البيوع (٣٥٣٤)،مسند أحمد بن حنبل (٤١٤/٣). أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك .

ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلم يعدل فيهم إلا كبه الله في النار .

سنن ابن ماجه الأحكام (٢٤٢٦). لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعتع .

وهكذا إذا تقصينا الموضوعات والمعاني التي وردت في القرآن وفي الحديث معا نجد بينهما في

الأسلوب العربي هذا البون الكبير الذي يجزم معه كل ذي بصر وإنصاف أن شخصا لا يمكن أن يصدر عنه هذان الأسلوبان معا ، ولكل منهما طابعه الخاص البعيد كل البعد عن الآخر ، وكل منهما في ذاته وفي جميع أمثلته ونصوصه متشابه لا يختلف ، بل يجري على غرار واحد فيحافظ على طريقته المتميزة ، وعلى اختلافه عن غيره ذلك الاختلاف الكبير .

وإنه ليتجلى من هذه الأمثلة المقارنة ومن نظائرها ما أشرنا إليه آنفا من أن أسلوب الحديث النبوي هو أسلوب التخاطب العادي المألوف بين العرب في بيانهم وأحاديثهم ومحاوراتهم وحكمهم وأحكامهم ووصاياهم ، ونصائحهم ، لا يخرج عن هذا السنن المألوف بينهم ، وإنما يمتاز بأنه من جوامع الكلم ومن حكيم البيان

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٠٧)

وفصيح اللغة ، وبخلوه من الحشو ومن الصور الخطابية العاطفية التي تعتمد على العاطفة وحدها دون العقل .

وبتعبير آخر : أنه يتجلى في أسلوب الحديث النبوي العقل الناطق بأبلغ وأوجز تعبير معتاد . أما أسلوب القرآن فيتجلى فيه الابتكار الذي لم يعهد له مثيل ، ولا يشبهه شيء من كلام العرب في طرائق بيانه ومناهج خطابه .

(١٣٥/١)

اختلاف الأسلوب ينم عن اختلاف الذاتية

هذا وإذا كان كل أسلوب بياني يشف عن ذاتية وشخصية في المتكلم فمن وراء ذلك التفاوت العظيم في أسلوبي القرآن والحديث النبوي من الوجهة البيانية يستشف القارئ والسامع تفاوتا أعظم منه في هذه الذاتية التي ينبئ عنها الكلام .

فعندما تسمع القرآن تتجلى لك من خلال آياته ذاتية تتكلم من جو علو وقوة ، وسطوة ، وقدرة ، وحكمة ورحمة . وهذه الذاتية القوية العظمى التي تتجلى من وراء أسلوب القرآن لا تضعف حتى في المواطن التي تعبر فيها عن الرحمة ، وأن قوتها واحدة في جميع سوره وآياته . فهي دائما ذاتية جبارة قادرة منتقمة عادلة حكيمة رحيمة ، آخذة بزمامين من الترغيب والترهيب ، ذات سلطان مطلق .

فانظر وتصورها مثلا من خلال نحو الآيات التالية :

سورة البقرة الآية ٢٥٧ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

سورة الإسراء الآية ١٦ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا

سورة الإسراء الآية ٢٣ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
سورة الحجر الآية ٩ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ
سورة البقرة الآية ٢٥٥ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
سورة الأنبياء الآية ١٠٧ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ

(١٣٦/١)

سورة فاطر الآية ٤٤ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا سورة فاطر الآية ٤٥ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا
سورة الحشر الآية ٢٢ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ سورة الحشر الآية ٢٣ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ سورة الحشر الآية ٢٤ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٠٨)
قال تعالى : سورة يس الآية ٧٧ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ سورة يس الآية ٧٨ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ سورة يس الآية ٧٩ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ

(١٣٧/١)

أما الحديث النبوي فإنك تشعر من وراء أسلوبه بشخصية بشرية ، وذاتية يعتريها الضعف والقوة فكثيرا ما تشعر من أسلوب الحديث النبوي بشخصية تعتز بهذا الضعف الذاتي أمام الله ، إلى جانب اعتزازها بقوة الأمانة والثقة بالحق ، ففيها ضراعة البشر وتواضع الزهاد ، إلى جانب حكمة العلماء وقوة المبلغين الأمناء . فانظر وتصور هذه الشخصية في لون قوتها من خلال قول الرسول عليه السلام لعمه أبي طالب حينما هددته قريش فنصحه بترك الدعوة .
قال – صلى الله عليه وسلم : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا

الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه .
وتصورها في شعورها بالضعف الذاتي من خلال الأدعية المأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام في مناجاة ربه ، كقوله بعدما خرج لدعوة ثقيف وعاد بالأذى والخذلان ؟
وقال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين إلى من تكلني ؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري ، إن لم تكن ساخطا علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض ، وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تحل علي غضبك أو تنزل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك .
وقال : سنن الترمذي الدعوات (٣٤١٩). اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي وتلم بها شعثي وترد بها الفتن عني (أقضية الرسول) للقرطبي ص ١٢٣ . .
وبعد فهذه مقارنة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي إنما نقصد بها الموازنة بين الأسلوبين من الناحية العربية البيانية فقط ، وما توحي به من اختلاف الذاتية والشخصية مما يدل على اختلاف المصادر دون النظر إلى النواحي التي يذكرها العلماء والأدباء الباحثون في وجوه إعجاز القرآن المتعددة لأنها تخرج عن موضوعنا هنا .

(١٣٨/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٠٩)
محمد محمد خليفة
كعب بن مالك شاعر السيف والقلم
كلمة بين ضجيج معاركنا الضارية مع الصهيونية ، وفي غمرة الكفاح الرهيب لاسترداد المقدسات ، وإعلاء كلمة الله ، واسترجاع ما اغتصب من الأرض ، ومع خفقات الألوية التي جمعتها كلمة التوحيد والتقت تحتها أصداء أصوات المجاهدين : الله أكبر الله أكبر ، بين ذلك ومع هذا نقدم شاعرنا الذي جمع بين السيف والكلمة المثيرة المصورة في جهاده تحت راية رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبلى بلاءه مع الغازين في فتوحات الإسلام لتكون كلمة الله هي العليا .
نسبه : هو كعب بن مالك بن أبي كعب ، واسم ابن أبي كعب عمرو بن القين بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة ويكنى : أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن ، وأمه ليلى بنت زيد بن ثعلبة من بني سلمة ، وينتهي نسبه إلى الخزرج ، والخزرج والأوس الذين سكنوا المدينة ينتهي نسبهم إلى ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عاص بن ماء السماء . وفي عامر بن ماء السماء يلتقي نسبهم مع قبيلة خزاعة التي سكنت مكة ، ومع الغساسنة الذين ملكوا الشام ، ومع المناذرة الذين ملكوا الحيرة . وكل أولئك نزحوا

من اليمن واستوطنوا بعض جزيرة العرب . وهم من أصل قحطاني . فشاعرنا هذا من أصل يمني قحطاني .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١١٠)

ولد كعب بن مالك في المدينة قبل هجرة الإسلام إليها ، وكان مولده في فترة اشتعلت فيها الحروب بين الأوس والخزرج ، فتفتحت عين الوليد أول ما تفتحت على غبار المعارك يملأ دروب المدينة وتغص به بطاحها ، وعلى منظر الدم تسفكه الأحقاد ، وتشتفي به الأنانية ، وسمع أول ما سمع صليل السيوف وصهيل الخيول وصيحات الإهابة والتحريض والإثارة وأناشيد الفخر ومقطوعات المراثي وأنات الثكالى وبكاء اليتامى .

(١٣٩/١)

واشتد عوده بين الملاحم التي شهدها أو سمع أقاصيصها من أيام الأوس والخزرج وما أكثرها ومن بينها يوم بعاث ، ويوم سميحة ، ويوم الدرك ، ويوم الربيع ، ويوم البقيع .

وكم سمع من أبيه مالك بن أبي كعب الشاعر صورا لتلك الأيام وما قيل فيها ، وكم سمع من عمه قيس بن أبي كعب ما جادت به عبقريته الشاعرة في تلك المعارك .

فلم يكن بدعا وقد نشأ في بيت الشعر والفروسية وبين تلك الملاحم أن يكون أحد أرباب السيف والقلم من شعراء العروبة .

ولم يكن بدعا وهذا بيته أن نرى ابنه عبد الرحمن شاعرا وأن نرى ابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعرا كذلك فهو واسطة العقد في بيت الشعر .

ولم يكن بيت كعب وحده في المدينة هو الذي اختص بين بيوتها بقول الشعر ، بل كل البيوت تفيض بالمشاعر والأحاسيس ، وتتدفق بالقوافي ، وذلك ما يرويه أنس بن مالك خادم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيقول : قدم علينا الرسول عليه الصلاة والسلام وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر ، فقيل له : وأنت أبا حمزة ؟ قال : وأنا .

فكعب وهو ينشأ ويعيش في المدينة في وسط هذا المجتمع الشاعر وبين الملاحم المثيرة خليق به أن يكون شاعرا بل أن يكون مجيدا لأن للبيئة والوراثة أثرهما .

دين المجتمع المدني :

تقاسمت ذلك المجتمع الوثنية واليهودية فالوثنية يدين بها العرب من الأوس والخزرج وغيرهما ممن يعيشون في يثرب من القبائل العربية ، واليهودية يدين بها بنو النضير وبنو قريظة ، وبنو المصطلق وغيرهم من اليهود الذين يعيشون في المدينة وحولها .

ودان كعب كقومه بالوثنية .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١١١)

ظهور الإسلام وانتشاره في المدينة

ظهر الإسلام أول ما ظهر في مكة ودعا محمد – صلى الله عليه وسلم – قومه فآمن بدعوته من شرح الله صدره للإسلام ثم راح يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج (وكان العرب يقدمون الكعبة ويحجون إليها في كل عام بعد مواسم الأسواق التي كانوا يشهدونها) ، وشاء الله أن يلتقي الرسول – صلى الله عليه وسلم – في مكة بستة من الخزرج عند العقبة فعرض عليهم دعوة الإسلام فقبلوها ، ولما قدموا المدينة عرضوها على أقوام ففشت بينهم حتى كانت أحاديث بيوت المدنيين .

وفي العام الذي يليه التقى في الموسم في مكة (عند العقبة) اثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فبايعوه وكانت هذه بيعة العقبة الأولى ، وأرسل معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ليقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، ويصلي بهم .

وأمن بالإسلام في هذه السنة الكثير من الأوس والخزرج ومن بينهم شاعرنا (كعب بن مالك) .

أول لقاء الشاعر برسول الله

ولما كان العام التالي خرج اليثربيون إلى الحج وبينهم كثرة من المسلمين فلما استقر بهم المقام خرج كعب بن مالك في صحبة البراء بن معرور يسألان عن (محمد) وما كانا يعرفانه فلقيهما رجل من أهل مكة فسألاه عنه فقال لهما : هل تعرفان العباس بن عبد المطلب ؟ قالا : نعم ، حيث كان يقدم على المدينة تاجرا ، قال المكي : إذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس ، قال كعب : فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس معه ، فسلمنا ، ثم جلسنا إليه .

فقال رسول الله للعباس : هل تعرف الرجلين يا أبا الفضل ؟ .

قال : نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك .

قال : رسول الله – صلى الله عليه وسلم : الشاعر ؟

قال : نعم (وهذه شهادة لشاعرية كعب يشهد له بها من أوتي جوامع الكلم) .

ثم واعد المسلمون من الأوس والخزرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على اللقاء عند العقبة

ليلا في أواسط أيام التشريق فلما كانت الليلة الموعودة خرجوا يتسللون إلى العقبة وعددهم ثلاثة وسبعون رجلا ومعهم امرأتان هما : نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو ، ووافاهم الرسول مع عمه العباس (وكان على دين قومه) .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١١٢)

وتكلم العباس فقال : إن محمدا منا في عز من قومه ومنعه في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه .

فقالوا له : سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله .

فتكلم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

(١٤٢/١)

فأخذ البراء بن معرور يده ، ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما تمنع منه أزرنا (كناية عن النساء) فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابرا عن كابر .

فقال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، فتبسم الرسول وقال : بل الدم الدم والهدم الهدم (أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم) أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

ثم هاجر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يكد يقر قراره في المدينة حتى آخى بين المهاجرين والأنصار وكان نصيب كعب بن مالك (شاعرنا) من تلك المؤاخاة أخوته لطلحة بن عبيد الله .

(١٤٣/١)

الغزوات التي شهدها كعب

وحينما بدأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه غزواته ليحق الحق ويبطل الباطل ، كان كعب بن مالك واحدا من أولئك البواسل الذين خاضوا مع الرسول غزواته في سبيل الله إلا غزوة بدر وتبوك ،

وذلك ما يحدث به كعب نفسه فيقول : ما تخلفت عن غزوة غزاها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قط غير أني كنت قد تخلفت في غزوة بدر ، وكانت غزوة لم يعاقب رسول الله أحدا تخلف عنها ، وتخلفت في تبوك وكنت قويا ميسورا . . !

وشهد كعب بن مالك غزوة أحد وأبلى فيها أحسن البلاء ، وكان قد لبس لأمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولبس الرسول لأمته ، وقد جرح كعب في أحد أحد عشر جرحا وثبت على الرغم من جراحه وحينما صاح الكفار : قتل محمد ، ودقت الصيحات أسماع كعب راح يفتقد القتلى والجرحى فعرف النبي – صلى الله عليه وسلم – ورأى عينيه تزهران (تضيئان) من تحت المغفر ، فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أبشروا

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١١٣)

هذا رسول الله ، فأشار إليه الرسول : أن أنصت ، فلما عرف المسلمون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نهضوا به .

(١/١٤٤)

ما نزل فيه من القرآن

لقد أنزل الله في شأن كعب بن مالك قرآنا بعد تخلفه عن غزوة تبوك التي كانت بين المسلمين والروم ، وكانت في الصيف حيث الحر والجدب ، وحيث يهيم الناس بالأفياء ويهرعون إلى الظلال .

وقد روى ابن إسحاق عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، وكان يقود أباه حين أصيب بصره فحدثه حديث تخلفه عن تبوك قال :

كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غزوة تبوك : أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، وتجهز رسول الله وتجهز المسلمون معه ، وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة ، ثم يقول : وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وطفت فيهم يحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا (مطعونا عليه) في النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى بلغ تبوك .

فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟

فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه .

فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيرا .

فسكت رسول الله فلما قفل الرسول من تبوك دخل المسجد وصلى ركعتين ، ثم جاءه المخلفون ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون فيقبل منهم ، حتى جلس كعب بين يديه .

فقال له الرسول : ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟
قال كعب : قلت : يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم كذبا لترضين عني ، وليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديثا صدقا تجد علي فيه ، إني لأرجو عقباي من الله .
فقال الرسول : قم حتى يقضي الله فيك ، وكان معه في مثل موقفه : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أبي أمية .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١١٤)

(١٤٥/١)

وكان كعب بن مالك بعد ذلك يخرج إلى الصلوات ، ويطوف بالأسواق ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد نهى المسلمين عن كلام هؤلاء الثلاثة ، ولكن كعب بن مالك كان يصلي في المسجد مع الرسول ، ويسارقه النظر والرسول يعرض عنه ، وطالت مقاطعة المسلمين لهم .
ولما علم ملك غسان بذلك أرسل إلى كعب يطلب منه النزوح إلى الشام ليعيش في كنفه حيث يلتقي بملك غسان نسبا في عامر بن ماء السماء ، ولكن كعبا أحرق الرسالة .
وبعد انقضاء أربعين يوما على تلك المقاطعة جاءه رسول رسول الله يبلغه أن الرسول يأمره باعتزال زوجته ، فاعتزلها ، وبعد انقضاء خمسين يوما من بدء المقاطعة ضاقت فيها نفسه ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وكان قد ابتنى خيمة له في ظهر سلع .
سمع صوتا يناديه : يا كعب بن مالك أبشر ، فخر ساجدا لله ، ثم نزل إلى المسجد فتلقاه الناس في طريقه بالفرح والتهنئة حتى سلم على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .
فقال له الرسول : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك .
قال كعب : قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟
قال الرسول : بل من عند الله .
قال كعب : يا رسول الله إن توبتي إلى الله أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله .
قال الرسول : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، ثم تلا الرسول :

(١٤٦/١)

سورة التوبة الآية ١١٧ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ سورة التوبة الآية ١١٨ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ سورة التوبة الآية ١١٩ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ

وبهذا تاب الله على كعب بن مالك وصاحبيه بعد عذاب نفسي قضوا فيه خمسين يوما بل عانوا منه منذ خروج الرسول إلى تبوك وتخلفهم عنه حتى ضاقت عليهم الأرض وضاقت عليهم أنفسهم ، وكانت توبة الله عليهم فأخرجتهم من الضيق إلى فرج الحياة يعيشون فيه مع الصادقين المتقين .

(١٤٧/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١١٥)

روايته الحديث

روى كعب بن مالك عن النبي – صلى الله عليه وسلم – كثيرا من الأحاديث ، وكل بني كعب قد روى عنه ما سمعه وما رآه من أفعال الرسول .

ومما رواه حفيده عن أبيه أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال .

مسند أحمد بن حنبل (٤٥٦/٣). والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل بما تقولون لهم من الشعر .

(وكأنما يرى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن هجاء كعب وحسان وابن رواحة لقريش – حين عبأت شعراءها لهجائه فعبأ الرسول لهم هؤلاء – كأنما يرى في هجائهم لقريش قوة فتك النبال في النيل من النفوس) .

وربما كان طعن النفس أشد أثرا من طعن الجسد .

(١٤٨/١)

مواقفه من الفتنة الكبرى

كانت الفتنة التي مني بها المسلمون في عهد عثمان أخطر فتنة مزقت وحدة المسلمين في بدء قيام أمتهم الكبيرة .

وكان بين كعب وعلي حوار في أمر عثمان وقتله ، ولم يقتنع برأي علي فاعتزله :
وله شعر يحرض فيه الأنصار على نصرة عثمان ويؤنبهم على خذلانهم له ومنه قوله :
فلو حلتم من دونه لم يزل لكم ... مدى الدهر عز لا يبوح ولا يسري
ولم تقعدوا والدار كاب دخانها ... يحرق فيها بالسعير وبالجمر
وكان كعب أحد من عاون عثمان على المصريين وشهر سلاحه ، فلما ناشد عثمان الناس أن يغمدوا سيوفهم انصرف كعب ، ولم ير أن الأمر يخلص إليه ، ولا يجترئ القوم على قتله ، فلما قتل وقف كعب على مجلس الأنصار في مسجد الرسول فأنشد :
من مبلغ الأنصار عني آية ... رسلا تقص عليهم التبيانا
حتى يقول :
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١١٦)
حتى إذا خلصوا إلى أبوابه ... دخلوا عليه صائما عطشانا
الله يعلم أنني لم أرضه ... لكم صنيعا يوم ذاك وشانا
والله لو شهد ابن قيس ثابت ... ومعاشر كانوا له إخوانا
وأبو دجانة وابن أقرم ثابت ... وأخو المشاهد من بني عجلانا
قوم يرون الحق نصر أميرهم ... ويرون طاعة أمره إيمانا
وقد عمر كعب حتى مات في خلافة معاوية .

(١٤٩/١)

كعب بن مالك أحد شعراء الرسول
كان كعب بن مالك أحد الشعراء المخضرمين وهو من شعراء المدر الذين عاشوا في المدينة فتأثروا ، بأجوائها وطبيعتها وما في مجتمعاتها ، وما اكتسبته من وقوعها في طريق تجارة الجزيرة العربية والشام وكان واحدا ممن شدوا بالشعر من أهل المدينة ، فلما أسلم كان أحد شعراء الرسول الذين نافحوا ووهبوا ألسنتهم للذود عنه وهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وتولى ابن رواحة تعيير قريش بالكفر وعبادة ما لا يضر ولا ينفع ، أما حسان وكعب فقد أخذا يعارضان شعراء قريش ، ويردان على ما يقولون في المعارك والأيام ، ويذلان مثالب قريش ، وكانت قريش قد عبأت لهجاء الرسول : عبد الله بن الزبعرى ، وأبا سفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب ، وعمرو بن العاص .
ولم تنم شاعرية كعب عن هجاء قريش قبل إسلامها ، كما لم تهدأ عن هجاء يهود المدينة بعد أن نقضوا عهودهم وغدروا وخانوا ، كما كان لشاعرية كعب أثرها في إرهاب قبائل العرب التي لم تسلم .

ومن شر ما قيل في قريش قول كعب :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... فليغلبن مغالب الغلاب

(والسخينة طعام من اللبن أغلظ من الحساء) وقد عيرت به قريش حتى سموا سخينة ، ولما سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – البيت قال : لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا .

وقد حدثوا أن قبيلة دوس أسلمت خوفا من المسلمين حينما بلغها قول كعب :

قضينا من تهامة كل وتر ... وخيبر ثم أغمدنا السيوفا

نخيرها ولو نطقت فقالت ... قواطعهن : دوسا أو ثقيفا

(١٥٠/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١١٧)

موضوعات شعره في الإسلام

كان أهم ما خاضت فيه شاعرية كعب من موضوعات شعره في الإسلام هو الغزوات والمراثي ، وخلال هذين الغرضين ساق الفخر والرد على المعارضين من شعراء قريش وتناول الهجاء وإن كان لم يصل فيه إلى الأعماق كما وصل حسان ، كما توعد وهدد الشانئين ، وحينا نراه في بعض أبياته مؤرخا ، وحقائق التاريخ لا تجتمع مع الجمال الفني الذي يتطلبه الشعر ، وكثيرا ما حرض ، وأثار النفوس إلى البذل وذلك في تصويره للغزوات ، وقدم في مراثيه مشاعر النفس الحزينة الجريحة حين يبكي أخا مسلما وأروع ما قدم في ذلك السبيل مراثيه في حمزة وقتلى مؤتة .

وإليكم بعض النماذج لما قدمته شاعرية كعب بن مالك في الموضوعات المختلفة وعقب كل قطعة شرح بعض المفردات اللغوية التي قد لا تدرك مع تعليق موجز يوضح بعض ما تناولته الأبيات ، وذلك إذا كان فيها شيء من الغرابة على أجيالنا ، وقد يضطرنا الموقف إلى ذكر بعض أبيات لشاعر قرشي يستدعيها رد شاعرنا عليه .

(١٥١/١)

الفخر والرد

لقد آوى الأنصار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ومن ثم نرى كعب بن مالك يفخر كثيرا بقومه الأوس والخزرج وبمواقفهم حول رسول الله –صلى الله عليه وسلم – وأنهم كانوا معقلا له يحميه من كل عدوان ، وكثيرا ما تصدى للرد على شعراء قريش

فيما يقولون ، فحين يدعي ضرار بن الخطاب شاعر قريش أن نصر المسلمين في بدر كان مرجعه إلى القرشيين المهاجرين وعلى رأسهم محمد ليطعن بذلك المنزلة الحربية التي كانت للأنصار فيقول :

فإن تظفروا في يوم بدر فإنما ... بأحمد أمسى جدكم وهو ظاهر
وبالنفر الأخيار هم أولياؤه ... يحامون في اللأواء والموت حاضر
بعد أبو بكر وحمزة فيهم ... ويدعى علي وسط من أنت ذاكر
ويدعى أبو حفص وعثمان فيهم ... وسعد إذا ما كان في الحرب حاضر
أولئك لا من نتجت في ديارها ... بنو الأوس والنجار حين تفاخر
ولكن أبوهم من لؤي وغالب ... إذا عدت الأنساب كعب وعامر

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١١٨)

اللأواء : الشدة .

فيجيبه كعب بن مالك من قصيدة طويلة :

قضي يوم بدر أن نلاقي معشرا ... بغوا وسبيل البغي بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم ... من الناس حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحاول غيرنا ... بأجمعها كعب جميعا وعامر
وفينا رسول الله والأوس حوله ... له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجار تحت لوائه ... يمشون في الماذي والنقع ثائر

الماذي : بتشديد الياء : الدرع ، النقع : الغبار .

بهذه الأبيات يبين كعب بغي قريش ، وأنها حشدت واستنفرت وسارت بكل من تناسل من كعب وعامر تريد بذلك القضاء على الأوس والخزرج ، وقد كانت الأوس المعقل الذي احتمى به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهم الذين آزروه ونصروه ، وقد استظلت جموع بني النجار (وهم من الخزرج) بلوائه ومشوا في دروعهم وسط الغبار المتكاثف يصدون الجموع الكثيفة التي ألقت بها إليهم لؤي : من كعب وعامر .

(١٥٢/١)

وسكت كعب عن ذكر الأبطال القرشيين المسلمين الذين ذكرهم ضرار فلم يتناول مواقفهم وبطولاتهم بل لم يذكر للمهاجرين موقفا في قصيدته هذه ، ولم يكن كعب يقصد بهذا السكوت الغض من شأن المهاجرين أو الإنقاص من مواقفهم في بدر ولكن الرد على ضرار هو الذي فرض على كعب هذا الموقف .

وفي أبيات أخرى يفخر بالقوة الضاربة للمسلمين تلك القوة التي ضربت عظماء لؤي وحلفاءهم فهووا لمناخرهم حيث يكر المسلمون ، وداس المسلمون بالصوارم أبناء لؤي وحلفاءهم فقال :

ضربناهم حتى هوى في مكرنا ... لمنخر سوء من لؤي عظيمها

فولوا ودسناهم ببيض صوارم ... سواء علينا حلفها وصميمها

الحلف : الحليف ، والصميم : من يرجع إلى لؤي أصلا .

ويسترسل كعب في مفاخره فيفخر بالفضائل التي عرف بها الأنصار : فهم لا يرون القتل عارا على من يحمي حماه ، وهم صبر على الحوادث لا يبكون على هالك يموت في المعارك ، وهم أبناء الحرب لا يجزعون مما تجره من ويلات .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١١٩)

ولا يفحشون إن ظفروا ولا يتوجعون إن مسهم قرح فيقول :

ونحن أناس لا نرى القتل سبة ... على كل من يحمي الذمار ويمنع

جلاد على ريب الحوادث لا نرى ... على هالك عينا لنا الدهر تدمع

بنو الحرب لا نعيا بشيء تقوله ... ولا نحن مما جرت الحرب نجزع

بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحش ... ولا نحن من أظفارها نتوجع

(١٥٣/١)

وكم من صورة أزجتها شاعرية كعب تتدفق بمفاخر الأنصار ، وتحمل ما تحمل من تهديد للمشركين بالضربات السريعة التي يلاقونها من أولئك المحيطين برسول الله ممن أعدوا للحروب سرابيل تقيهم وهم من أصل الغساسنة (وكثيرا ما افتخر كعب بهذا النسب) وقد طالت حمائل سيوفهم ، وهم ليسوا بالجبناء ، ولا ممن فقدوا التروس والرماح وإنهم ليمشون في ظلمات غبار المعارك كما تمشي فحول الإبل البيض التي يمشي بعضها إثر بعض ، أو كما تمشي أسود الطل وقد بللها الرذاذ الذي أثارته ريح الشمال ، وهم في دروع سابغة محكمة تلمع كالغدير والقائم بها كالنهر الأبيض ، تلك هي الصور التي يقدمها فيفخر بها ويهدد ويرهب ، ويثير الرعب في قلوب المناوئين فيقول :

ولو هبطتم ببطن السيل كافحكم ... ضرب بشاكلة البطحاء ترعيل

تلقاكم عصب حول النبي لهم ... مما يعدون للهيجا سرابيل

من جذم غسان مسترخ حمائلهم ... لا جبناء ولا ميل معازيل

يمشون تحت عمايات القتال كما ... تمشي الهصاعبة الأدم المراسيل

أو مثل مشي أسود الطل ألثقها ... يوم رذاذ من الجوزاء مشمول

في كل سابغة كالنهي محكمة ... قيامها فلج كالسيف بهلول

الشاكلة : الطرف ، الترعيل : الضرب السريع ، الهيجاء : الحرب وقصر للضرورة الشعرية ، السرابيل : جمع سربال : القميص أو الدرع أو كل ما يلبس ، الجذم بكسر الجيم : الأصل ، الحمائل : علائق السيوف ، الميل بكسر الميم جمع أميل : وهو من لا ترس له ، والمعازيل : من لا رماح معهم ، العمايات : الظلمات ، المصاعبة : فحول الإبل ، الأدم بضم الهمزة : الإبل البيض ، المراسيل : التي يمشي بعضها إثر بعض ، الطل : المطر الخفيف ، ألثقها : بللها ، الرذاذ : المطر الضعيف ، الجوزاء : نجم ، المشمول : الذي هبت فيه ريح الشمال ، السابغة : الدرع ، النهي : بكسر النون المشددة : النهر ، قيامها : القائم بها ، الفلج : النهر ، البهلول : بضم الباء : الأبيض .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٢٠)

(١٥٤/١)

وما أكثر ما تغنى الشاعر ببسالة قومه في الغزوات حتى وهو في موطن الرثاء ففي إحدى مرثياته لحمزة شهيد أحد يقول :

غداة أجابت بأسيافها ... جميعا بنو الأوس والخزرج

فما برحوا يضربون الكماة ... ويمضون في القسطل المرهج

القسطل : الغبار ، المرهج : الذي علا في الجو .

ولم يقصر كعب فخره بقومه على مواقفهم في الحروب بل افتخر بهم في السلم حين تجدب الأرض ويجف الزرع والضرع فتراهم الكرماء وذلك في قوله :

فإن تسألي ثم لا تكذبي ... يخبرك من قد سألت اليقينا

بأنا ليالي ذات العظام ... كنا ثمالا لمن يعترينا

تلوذ البجود بأذرائنا ... من الضر في أزمات السنينا

الليالي ذات العظام : ليالي الجوع التي تجمع فيها العظام وتطبخ لاستخراج ودكها فيؤتدم به ، الشمال : الغياث ، يعترينا : يزورنا ، تلوذ : تلجأ ، البجود : جماعات الناس ، الأذراء : الأكناف ، الأزمات : الشدائد .

وهكذا يخاطب من يخاطب محبوبة أو غير محبوبة أنها إذا سألت عن قومه هنالك لا تكذب بل تخبر باليقين الذي تعرفه عن قومه ، فهم الغوث لكل من يزورهم في تلك الليالي القاسية التي يجمع فيها الناس العظام ليطبخوها حيث فقدوا اللحم ، وما أشد هذه الأيام التي تلجأ فيها جموع الناس إلى أكناف بيوتهم خوفا من الضر الذي يحيق بهم في السنين الشديدة التي لا تحتمل مجاعاتها .

حسبنا ما قدمنا من نماذج فخر كعب بقومه .

شعر الوعيد والتهديد

كان لانتصار المسلمين في أول غزوة التقوا فيها بالمشركين أثره في رفع معنوية المسلمين ، فانطلق شعراؤهم على أثرها يهددون ويتوعدون أعداء الله .

وكم جاش هذا اللون خلال القصائد التي سيقت في مختلف الأغراض ، وهذا نموذج من الوعيد يسوقه كعب فيهدد قريشا بجيوش المسلمين التي ستغزوهم في عقر دورهم وتطلع عليهم من (كداء) وهو موضع

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٢١)

بمكة وبين الجيوش جبريل وميكال وأشراف القوم وكأنه بهذا يخيف قريشا ويبين لها أنها لا تحارب المهاجرين والأنصار وحدهم بل معهم ملائكة السماء . وأنى لقريش أن تتصدى لمعارك فيها ملائكة الله ، وهو بهذا يشير إلى ما جاء في القرآن في قوله تعالى : سورة آل عمران الآية ١٢٣ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ سورة آل عمران الآية ١٢٤ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ سورة آل عمران الآية ١٢٥ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ فيقول كعب :

فلا تعجل أبا سفيان وارقب ... جياد الخيل تطلع من كداء

بنصر الله روح القدس فيها ... وميكال فيا طيب الملاء

الملاء : الملأ وهم أشراف القوم .

الهجاء

لقد كان الجبن منقصة عند العرب ، وكان الرضا بالذل وصمة ، وكان عدم كسب مواقف البطولة معرة ومن تلك الأبواب يلج الشعراء إلى هجاء من يريدون هجاءه وذلك ما اتجه إليه كعب في هجاء ابن الزبعري في قوله :

فسل عنك في عليا معد وغيرها ... من الناس من أخزى مقاما وأشنع

ومن هو لم تترك له الحرب مفخرا ... ومن خده يوم الكريهة أضرع

الكريهة : الحرب ، الأضرع : الذليل .

وقدمنا قوله في هجاء قريش :

جاءت سخينة كي تغالب ربها ... فليغلبن مغالب الغلاب

(١٥٧/١)

إبراز صفات المسلمين في المعارك وإعدادهم لها

اتسم المسلمون في معاركهم مع عدو الله تحت راية رسول الله بصفات عني الشعراء بإبرازها ، وشغل الحديث عنها مشاعرهم وقوافيهم .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٢٢)

(أ) وكان الصبر في المواقف وعدم الفرار حين يستحر القتال من الصفات التي عرف بها المسلمون وصورها كعب في قوله :

صبرنا لهم والصبر منا سجية ... إذا طارت الأبرام نسمو ونرتق

على عادة تلكم جرينا بصبرنا ... وقدما لدى الغايات نجري فنسبق

الأبرام : اللئام ، نرتق : نصلح .

(ب) حب الاستشهاد في سبيل الله والحق ، وفي ذلك يقول كعب :

إن تقتلونا فدين الحق فطرتنا ... والقتل في الحق عند الله تفضيل

وقوله :

فخرتم بقتلى أصابتهم ... فواضل من نعم المفضل

فاعتبر القتل في سبيل الله نعمة تفضل الله بها على الشهداء .

وبين مكانة شهيد الإسلام وقتيل الكفر في قوله :

شتان من هو في جهنم ثاويا ... أبدا ومن هو في الجنان مخلد

(جـ) ملاقاة الشجعان وبذل الغالي من الأموال في الدفاع عن الأحساب ، فقال :

جلاد الكماة وبذل التلاد ... عن جل أحسابنا ما بقينا

(د) إعداد العدة :

عرف العرب في جاهليتهم بالغارة وحب الفتك ، وكثيرا ما تغنوا ببطولاتهم ، فلما جاء الإسلام هذب طباعهم ونظم شمائلهم ، فتجلت ضروب الشجاعة ولكنها لم تكن لحب الفتك وإراقة الدم للتشفي بل لخير الإنسان والإنسانية ، ومن ثم أعدوا للمعارك الإسلامية العدة من سلاح وعتاد قبل خوضها ولم يجبنوا عند لقاء الأعداء ، أو يفروا عند الزحف .

ومن أروع ما قيل في التقدم في المعارك قول كعب بن مالك :

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا ... قدما ونلحقها إذا لم تلحق

فترى الجماجم ضاحيا هاماتها ... بله الأكف كأنها لم تخلق
ونعد للأعداء كل مقلص ... ورد ومحجول القوائم أبلق
تردي بفرسان كأن كماتهم ... عند الهياج أسود طل ملثق
صدق يعاطون الكماة حتوفهم ... تحت العماية بالوشيج المزهق

(١٥٨/١)

أمر الإله بربطها لعدوه ... في الحرب إن الله خير موفق
الجماجم : الرءوس ، ضاحيا : بارزا للشمس ، بله : اسم فعل بمعنى : اترك ، المقلص : الفرس الخفيف ، الورد من الخيل : بين الكميت والأشقر ، التحجيل : بياض في قوائم الفرس كلها ويكون في رجلين ويد وفي رجلين فقط وفي رجل فقط ولا يكون في اليدين خاصة ، البلق : سواد وبياض وارتفاع التحجيل إلى الفخذين ، تردي بفتح التاء : تسرع ، الكماة : الشجعان ، الطل : المطر الضعيف ، ملثق : فيه زلق وطين والأسود عند ذاك تكون أشد هياجا ، العطو : التناول ، الحتف : الموت ، العماية : سحابة الغبار وظلمته ، الوشيج : الرماح ، المزهق : المذهب للنفوس .
وحول الإعداد للمعارك يدور كثير من شعر كعب بن مالك فيقول في إحدى قصائده :
أجيبونا إلى ما نجتديكم ... من القول المبين والسداد
والإ فاصبروا لجلاد يوم ... لكم منا إلى شطر المذاد
نصبحكم بكل أخي حروب ... وكل مطهم سلس القياد
وكل طمرة خفق حشاها ... تدف دفيف صفراء الجراد
وكل مقلص الآراب نهد ... تميم الخلق من أخرى وهادي
ينازعن الأعنة مصغيات ... إذا نادى إلى الفزع المنادي
الاجتداء : الطلب ، الشطر : الناحية ، المذاد : موضع بالمدينة ، المطهم : الفرس التام الخلق ، الطمرة : بتشديد الطاء المكسورة وتشديد الراء المفتوحة : الفرس الجواد ، دف الطائر : حرك جناحيه ، المقلص : الشديد الآراب : قطع اللحم ، النهد بتشديد النون المفتوحة : الغليظ ، الهادي : العنق ، الأعنة : اللجم .
يطلب الشاعر من الأعداء الصبر على جلاد يوم يجتمعون فيه ناحية المذاد حيث يصبحون هناك بكل مؤاخ للحروب مدرب على أهوالها وبكل جواد سلس وبكل فرس كذلك تتحرك كأنها الجراد وبكل شديد اللحم مكتنز ضخم العنق ، وكل تلك الخيول تنازعنا الأعنة وهي مصغية حينما تسمع صوت المنادي وكأنما دربت على الانطلاق حينما تسمعه إلى حيث مصدره .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٢٤)

شعر الغزوات

بين جيوش المؤمنين الذين عاهدوا الله ورسوله على البذل ، وتحت ألوية التوحيد غزا كعب بن مالك وشهد غزوات الرسول الله – صلى الله عليه وسلم – غير بدر وتبوك ، غزا ومعه سيفه الصارم ولسانه البتار وقلمه المصور ، غزا فأبلى وأحسن البلاء فكما أرسل مهنده وسنانه أرسل لسانه يصور ، ويتحدث عن الإسلام وما جاء به ، وما يدعو إليه ، وتوعد الجاحدين بالقوة الإلهية التي تجتاح المعاندين ، وفي بعض شعره في الغزوات تراه المؤرخ الذي يذكر أسماء القتلى في المعارك . وما كان يهدأ غبار المعارك حتى يسترجع خواطره وما فيها من صور ثم يترجم الصور والمشاهد شعرا عاش على الزمن حيا ينقل للأجيال صور المعارك الإسلامية وما كان فيها من بطولات ، وكثيرا ما هزته نشوة الانتصار في بدر فرجع إليها يستثير بها الهمم ، ويكشف ظفر القلة المؤمنة على الكثرة الباغية ، ومما قال في بدر وتعرض فيه لذكر أسماء رءوس الكفر الذين صرعهم المسلمون قوله :

وقد عربت بيض خفاف كأنها ... مقاييس يزهيها لعينيك شاهر

فكب أبو جهل صريعا لوجهه ... وعتبة قد غادرنه وهو عاثر

وشيبة والتيمي غادرن في الوغى ... وما منها إلا بذي العرش كافر

فأمسوا وقود النار في مستقرها ... وكل كفور في جهنم صائر

تلظى عليهم وهي قد شب حميها ... بزبر الحديد والحجارة ساجر

وكان رسول الله قد قال اقبلوا ... فولوا وقالوا إنما أنت ساحر

البيض : السيوف ، تلظى : تلهب ، شب : أوقد ، زبر الحديد : قطعه ، الساجر : الموقد .

وفي الأبيات الثلاثة الأخيرة ساق معاني قرآنية لا تخفى على القارئ .

ومن قصيدة طويلة له في أحد قال :

فجئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسر ومقنع

ثلاثة آلاف ونحن نصية ... ثلاث مئين إن كثرنا وأربع

نغاورهم تجري المنية بيننا ... نشارعهم حوض المنايا ونشرع

تهاوي قسي النبع فينا وفيهم ... وما هو إلا اليثربي المقطع

ومنجوفة حرمية صاعدية ... يذر عليها السم ساعة تصنع
تصوب بأبدان الرجال وتارة ... تمر بأعراض البصار تقعقع
وخيل تراها بالفضاء كأنها ... جراد صبا في قرة يتريع
فلما تلاقينا ودارت بنا الرحي ... وليس لأمر حمه الله مدفع
ضربناهم حتى تركنا سراتهم ... كأنهم بالقاع خشب مصرع

النصيحة : خيار القوم ، المناورة : المداولة ، نشارعهم : نشاربهم ، ونشرع : نشرب ، النبع : شجر تصنع منه القسي ، اليثربي : الأوتار نسبة إلى يثرب ، المنجوفة : السهام ، الحرمية : نسبة إلى الحرم وأهله ، الصاعدية : نسبة إلى صاعد صانعها ، البصارة : حجارة لينة ، تقعقع : تصوت ، الصبا : ريح شرقية ، يتريع : يجيء ويذهب ، حمه الله : قدره ، سراتهم : خيارهم ، القاع : ما انخفض من الأرض .

في هذه الأبيات يصور الشاعر جيش قريش في كثرته الزاخرة ، وكأن المسلمين لقوا به بحرا مائجا يتوسطه الأحابيش من عبيدهم بين حاسر ومقنع ، وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف (وهذا نص شعري يتلاقى مع النص التاريخي) أما المسلمون فكانوا ثلاث مئين وأربع من خيار القوم .

وصور الشاعر حركة المعركة بين الجيشين وهما يتداولان التقدم والتقهقر والمنية تجري بينهم فتنهش أظفارها من تناله ، والمسلمون يسوقون أعداء الله إلى أحواض المنايا تارة ويساقون تارة ، والقسي تعمل عملها بين هؤلاء وأولئك ، وللأوتار اليثربية والسهام الحرمية الصاعدية التي ذر عليها السم أثناء صنعها عملها في الأجساد وهي تقع تارة بأبدان الرجال فتمزقها وتارة تخيب فتنطلق بين الأحجار اللينة تصوت ، والخيل تنطلق كأنها جراد ريح شرقية تجيء وتذهب في بردها ، وحينما دارت الرحى والتقى الجيشان ونزل بالقوم أمر الله الذي لا عاصم منه ضرب المسلمون المشركين حتى تركوا أخبارهم وهم خشب مصرعة .

وله في أحد كثير من القصائد بل الروائع وحسبنا مما قال الأبيات التالية :

ويوم له وهج دائم شديد التهاول حامي الأرينا

(١٦١/١)

طويل شديد أوار القتال ... تنفي قواحزه المقرفينا
تحال الكماة بأعراضه ... ثمالا على لذة منزفينا
تعاور أيمانهم بينهم ... كئوس المنايا بحد الظبينا
شهدنا فكنا أولي بأسه ... وتحت العماية والمعلمينا
بخرس الحسيس حسان رواء ... وبصرية قد أجمن الجفونا

فما ينفللن وما ينحنين ... وما ينتهين إذا ما نهينا

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٢٦)

الوهج : الحرب ، التهاول : الهول ، الأرين : جمع إرة : مستوقد النار ، الأوار : لهب الحرب ، القواحز من القحز : وهو القلق ، المقرفون : اللئام ، الكماة جمع كمن وهو الشجاع المستتر في سلاحه ، الأعراض : النواحي ، الثمال : السكارى ، المنزفون : الذين أنزفت الخمر عقولهم ، التعاور : التداول ، الظبينا : جمع ظبة : وهي حد السيف ، العماية : السحابة أو ظلمة الغبار ، المعلمون : من يعلمون أنفسهم في الحرب بعلامة تحديا للأعداء ، الخرس : التي لا صوت لها ويقصد السيوف والرواء بالراء المشدودة المكسورة : الممتلئة بالدم ، بصرية منسوبة إلى بصرى وهي مشهورة بصنع السيوف ، أجمن : مللن ، الجفون جمع جفن : وهو غمد السيف .

بهذه الأبيات من قصيدة طويلة يقدم الشاعر صورة ليوم من أيام الكفاح الإسلامي (يوم أحد) فالمعارك الدامية فيه اشتد هولها ، وحمي موقدها وقد طال ذلك اليوم واشتد لهبه ، ونفي القلق الذي ساد في ذلك اليوم اللئام عن القتال فلم يبق القلق بين الساحة لئيما ، وإنك لتحسب الشجعان في نواحيه سكارى ذهبت عقولهم وتداولت أيمانهم مع الأعداء كئوس الموت بحد السيوف ، فكل يقدم كأس المنية لمن ينازله .

(١٦٢/١)

ولقد شهدنا ذلك اليوم فكنا أصحاب بأسه وقوته ، وكنا تحت ظلماته ، وكنا المعروفين بما نحمل من علامات تميزنا وكأنها تشير إلينا ، وقد شهدناه بسيوف حسان تعمل ولا صوت لها وقد امتلأت بالدم وبسيوف كذلك من صنع بصرى قد ملت الأغماد وهي لا تقل ولا تنحني ولا تنتهي عن الضرب إذا نهيت وهكذا قدم الشاعر صورة اليوم والشجعان وهم يتعاورون كئوس الموت ،وصور قوة سيوفهم وكرهها للأغماد ومتانتها من حيث إنها لا تقل ولا تنحني ولا تكف .

(١٦٣/١)

إجلاء بني النضير

خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر ، فتآمروا على إسقاط صخرة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من فوق البيت الذي يجلس إلى جانب جداره فجاءه الخبر من السماء بما دبروه ، فقام وقفل راجعا إلى المدينة ، وأمر الناس

بالتهيؤ للحرب وخرج إليهم فتحصنوا بالحصون ، فأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقطع نخيلهم وإحراقها ، فلما رأوا ما حاق بأموالهم سألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، ولهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ، فخرجوا إلى خيبر ، وسار بعضهم إلى الشام ، وخلوا الأموال لرسول الله ونزل في بني النضير سورة الحشر .

وتناول كعب بن مالك في قصيدة طويلة إجلاء بني النضير ومقتل كعب بن الأشرف ، وقد كانت أم كعب بن الأشرف من بني النضير ، ولما سمع بنصر المسلمين في بدر هاله ذلك وخرج إلى مكة وأخذ يبكي

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٢٧)

قتلي بدر من المشركين في شعر ثائر يحرض به القرشيين على المسلمين ، ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة وأخذ يشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم ، فقال الرسول : من لي بابن الأشرف ؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا له يا رسول الله ، ثم اتفق معه سلكان بن سلامة (وهو أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة) وعباد بن بشر ، والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن جبر ، وخرجوا ، واستدرجه سلكان من حصنه فمشى به ساعة ، ثم حمل عليه وحمل أصحابه معه فقتلوه ، وفزع اليهود حينما علموا بمقتله .

وهذه أبيات من تلك القصيدة التي يسوق فيها الشاعر كمؤرخ مصرع كعب بن الأشرف وإجلاء بني النضير ، وليس في القصيدة شيء من الجمال الفني السامي لأن الشاعر كان فيها قصاصا يسرد فيها كيفية قتل كعب وإجلاء بني النضير في أسلوب لا يعدو أن يكون نظما للحوادث حيث يقول :

فغودر منهم كعب صريعا ... فذلت بعد مصرعه النضير

على الكفين ثم وقد علته ... بأيدينا مشهرة ذكور

(١٦٤/١)

بأمر محمد إذ دس ليلا ... إلى كعب أخا كعب يسير

فماكره فأنزله بمكر ... ومحمود أخو ثقة جسور

فتلك بنو النضير بدار سوء ... أبارهم بما اجترموا المبير

غداة أتاهم في الزحف رهوا ... رسول الله وهو بهم بصير

فذاقوا غب أمرهم وبالا ... لكل ثلاثة منهم بعير

وأجلوا عامدين لقينقاع ... وغودر منهم نخل ودور

والمشهرة الذكور : السيوف المسلولة من أغمادها ، أبارهم : أهلكهم ، المبير : المهلك ، الرهو : السير السهل ، غب : عاقبة ، الوبال : العذاب .

وأشار بقوله : لكل ثلاثة منهم بعير إلى الكيفية التي خرجوا عليها حيث ركب كل ثلاثة منهم بعيرا ، وكان اتجاههم إلى قينقاع وهم قبيلة يهودية كذلك .

(١/١٦٥)

بدر الآخرة

كان أبو سفيان توعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد أحد في لقاء آخر في بدر فخرج الرسول وأقام في بدر ثماني ليال ينتظر أبا سفيان على رأس جيشه ، وخرج أبو سفيان إلى عسفان أو الظهران ، ثم أمر الناس بالرجوع ، فرجعوا

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٢٨)

وسماهم أهل مكة جيش السويق حيث قالوا لهم : إنما خرجتم تشربون السويق وفي ذلك يقول كعب بن مالك :

وعدنا أبا سفيان بدرا فلم نجد ... لميعاده صدقا وما كان وافيا

فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا ... لأبت ذميما وافتقدت المواليا

آب : رجع ، افتقدت : فقدت ، الموالي : قصد بها القرابة .

(١/١٦٦)

غزوة الخندق أو الأحزاب

وقدم نفر من اليهود على قريش ودعوهم إلى حرب محمد واستئصال قوته ، وكان ذلك في شوال سنة خمس ، فخرجت قريش وعلى رأسها أبو سفيان ، وخرجت غطفان وعلى رأسها عيينة بن حصن ، فلما سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بخروجهم ضرب الخندق حول المدينة ، وأقبلت قريش في عشرة آلاف ومعهم الأحابيش وأهل كنانة وتهامة فنزلوا بمجتمع الأسيال وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد فنزلوا إلى جانب أحد ، وخرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه فجعلوا ظهورهم إلى سلع (جبل بالمدينة) وكان عدتهم ثلاثة آلاف ، واشتد خوف المسلمين حين أتاهم أعداؤهم في تلك الجموع الكثيفة من فوقهم ومن أسفل منهم ، وطال الحصار ولم يقع خلاله إلا بعض مبارزات بين أفراد من المشركين اقتحموا الخندق وبين بعض أبطال المسلمين .

وأوقع الله الفتنة بين قريش وغطفان من جانب وبين بني قريظة (اليهود) من جانب آخر ، ثم بعث الله عليهم الريح في ليال شاتية البرد فكفأت قدورهم وأطارت خيامهم فطاروا مع الريح وطارت معها

شوكتهم ، وشتت الله شملهم ثم خرج الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى بني قريظة فحاصرهم ثم حكم فيهم سعد بن معاذ ، فحكم بقتلهم ، وقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة .

وقد صور كعب بن مالك غزوة الخندق في قصيدة مطلعها :

وسائلة تسائل ما لقينا ... ولو شهدت أرتنا صابرينا

ومنها :

بباب الخندقين كأن أسدا ... شوابكهن يحمين العرينا

إلى قوله :

كما قد ردكم فلا شريدا ... بغيظكم خزايا خائبينا

خزايا لم تنالوا ثم خيرا ... وكدتم أن تكونوا دامرينا

بريح عاصف هبت عليكم ... فكنتم تحتها متكمهينا

* الشوابك : التي يتشبث بها فلا يفلت * الفل : المنهزمون * الشديد : الطريد * الدامر : الهالك * المتكمه : الأعمى الذي لا يبصر .

(١٦٧/١)

بهذا النص يكشف الشاعر عن حقيقة رواها التاريخ وهي رجوع الأحزاب دون حرب ، وقد شردوا في الآفاق وكادوا يهلكون ، ويلتقي البيت الأخير مع قوله تعالى سورة الأحزاب الآية ٩ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (الأحزاب)

ويصور الشاعر في الشطر الأخير حالة الأحزاب وقد عميت أبصارهم حينما هبت عليهم الريح العاصفة .

وقال كعب في غزوة الخندق كذلك من قصيدة طويلة :

من سره ضرب يمعمع بعضه ... بعضا كمعمعة الأباء المحرق

فليأت مأسدة تسن سيوفها ... بين المذاذ وبين جزع الخندق

دربوا بضرب المعلمين وأسلموا ... مهجات أنفسهم لرب المشرق

في كل سابغة تخط فضولها ... كالنهي هبت ريحه المترقرق

بيضاء محكمة كأن قتيرها ... حدق الجنادب ذات شك موثق

. * المعمعة : صوت التهاب النار * الأباء : العصب * المأسدة : موضع الآساد * المعلمون :

الذين ميزوا أنفسهم في الحروب بعلامة * السابغة : الدرع * تخط فضولها : ينجر على الأرض ما فضل منها * النهي : بتشديد النون المكسورة الغدير * المترقرق : الذي تصفقه الريح فيجيء ويذهب * القتير : مسامير الدرع * الجنادب : ذكور الجراد * الشك : إحكام السرد .

(١٦٨/١)

قدم الشاعر في هذه الأبيات صورة لبعض ما وقع من ضروب المبارزة بين الشجعان الأقوياء ، ورأى أن ذلك الضرب العنيف يسر الشجعان حيث يشد أنظارهم وأسماعهم صليل السيوف وحركتها ، وفي قعقعة أصواتها ما يشبه قعقعة القصب حين تلتهمه ألسنة اللهب ، فمن شاء رؤية ذلك فليأت تلك المأسدة التي تسن سيوف أصحابها بين مراتع الخيول والوادي الذي لا شجر فيه عند الخندق ، فأولئك تدربوا على ضرب الذين علموا أنفسهم بعلامة يعرفون بها وكأنهم دربوا على ضرب من يتحداهم وقد أسلموا أرواحهم لربهم وإنهم ليلبسون الدروع السابغة التي انحطت فضولها حتى انجرت على الأرض وهي تروح وتجيء كأمواج الغدير التي حركتها الريح ، وإنها محكمة النسج وكأن مساميرها حدق ذكر الجراد ، وهي ذات إحكام وتوثيق .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٣٠)

وله في الخندق قصيدة مطلعها :

ألا أبلغ قريشا أن سلعا ... وما بين العريض إلى الصماد

ومنها :

فلم نر عصبة فيمن لقينا ... من الأقوام من قار وباد

أشد بسالة منها إذا ما ... أردناه وألين في الوداد

إذا ما نحن أشرجنا عليها ... جياد الجدل في الأرب الشداد

قذفنا في السوابغ كل صقر ... كريم غير معتلث الزناد

أشم كأنه أسد عبوس ... غداة بدا ببطن الجزع غادي

يغشى هامة البطل المذكى ... صبي السيف مسترخي النجاد

لنظهر دينك اللهم إنا ... بكفك فاهدنا سبل الرشاد

سلع : جبل بالمدينة * العريض : واد بالمدينة * الصماد : جبل * القاري : من كان من أهل القرى والهاد من كان من أهل البادية * البسالة : الشجاعة * أشرجنا : ربطنا * الجدل : الدروع المحكمة * الأرب : العقدة الشديدة * السوابغ : الدروع * اعتلث الرجل زندا : أخذه من شجر لا يدري أيوري أم لا ؟ * الأشم : العالي العزيز * المذكى : الذي بلغ الغاية في القوة * صبي السريف : وسطه ، * النجاد : حمائل السيف .

إن الشاعر ليفخر بقومه حيث لا يرى بسالة أشد من بسالتهم بين القرى والبوادي إذا ما أرادوا الضرب الذي تحدث عنه في أبيات سابقة وهم إلى جانب سطوتهم وقوتهم ألين في حبهم من غيرهم فهم البسلاء إذا ما ضربوا والليّنون إذا ما أحبوا ، وبسالتهم تتجلى حين يربطون الدروع ويشدون عقدها ، وكأنهم يقذفون في الدروع كل صقر كريم مستعد للحرب عالي الأنف ، كأنه الأسد في عبوسه حين يغدو ببطن الجزع ، وحين يضرب بوسط سيفه هامة البطل الذي بلغ غاية قوته ، وقد بدا نجاده الطويل المسترخي إلى جانبه يشير إلى طوله ، كل ذلك يكون لإظهار دين الله وإعلاء كلمته ، ثم ختم قصيدته بالدعاء إلى الله أن يهديهم في حياتهم ومعاركهم سبل الرشاد .

وقد تناول كعب بن مالك تصوير يوم ذي قرد وخيبر والطائف ، ونسوق بعض أبيات من قوله في غزوة الطائف :

قال منها :

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجممنا السيوفا

نخيرها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن : دوسا أو ثقيفا

ومنها :

فلست لحاضن إن لم تروها ... بساحة داركم منا ألوفا

ويأتيكم لنا سرعان خيل ... يغادر خلفه جمعا كثيفا

إذا نزلوا بساحتكم سمعتم ... لها مما أناخ بها رجيفا

بأيديهم قواضب مرهفات ... يزدن المصطلين بها الحتوفا

. ومنها :

وكم من معشر ألبوا علينا ... صميم الجذم منهم والحليفا

أتونا لا يرون لهم كفاء ... فجدعنا المسامع والأنوفا

بكل مهند لين صقيل ... نسوقهم بها سوقا عنيفا

وتنسى اللات والعزى وود ... ونسلبها القلائد والشنوفا

الريبة : الشك * أجممنا : أرحنا ومنه الاستجمام * نخيرها : نعطيها الخيرة * الحاضن : المرأة التي تحضن ولدها * السرعان : المتقدمون * الكثيف : الملتف : الرجيف : الصوت المضطرب * القواضب : السيوف القواطع * المرهفات : الحادة القاطعة * المصطلون بها : الذين باشروها واصرطلوا بحرها * الحتوف جمع حتف : الموت * ألبوا : جمعوا * الصميم : الخالص * الجذم : بكسر الجيم : الأصل * الجدع : القطع * المهند : السيف * اللين مخفف لين بتشديد الياء * الصقيل : المصقول * الشنوف جمع شنف بفتح الشين وهو قرط يعلق في أعلى الأذن ، وما يعلق في أسفلها هو القرط ، واللات والعزى وود(آلهة كانت تعبد . . .) . .

بين الشاعر في هذه الأبيات أنهم انتهوا من معارك تهامة وخيبر ثم أراحوا السيوف حينا ، ثم خيروها بمن تبدأ بعد ذلك ، ولو نطقت لهتفت : أريد دوسا أو ثقيفا ، وبعد أبيات بدأ تهديده لهم فقال لست لامرأة حضنتني وربتني أو لحاصن بالصاد وهي العفيفة أي : لست ابن عفيفة راشدة إن لم تفاجئكم السيوف وإن لم تروا بأفناء دوركم ألوفها تجز الأعناق والنواصي ، واستطرد في وعيده بأنهم ستأتيهم طلائع الخيل ووراءها الجموع الكثيفة من جيوش المسلمين فإذا نزلوا ستسمع الساحة اضطرابا شديدا ، يشير بذلك إلى الكثرة التي تتهددهم ثم كشف عن قوة سيوفهم التي تزير كل من يتصدى للمسلمين ساحة الموت .

(١٧١/١)

ثم راح الشاعر يخوفهم فعرض عليهم صورة القبائل التي جمعت جموعها وألقت في المعارك بأصولها وحلفائها وظنوا حين شنوا غاراتهم علينا بأننا لسنا أكفاء لهم فلم يقتلوا بأيدينا فحسب ، بل قطعنا آذانهم وأنوفهم (لم يرو التاريخ أن المسلمين مثلوا بجثث قتلاهم في معركة من المعارك الإسلامية ، أتراها مبالغة شعرية من شاعرنا ؟ أم تراه التهديد والإرهاب ؟ أم تراها القافية حكمت بهذا التخيل ؟ حيث لم يثبت في التاريخ الإسلامي ذلك التمثيل) . وقد ساقوهم سوقا عنيفا بكل سيف لين مصقول وأنسوهم آلهتهم التي طالما

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٣٢)

عبدوها وهي اللات والعزى وود ، وطالما قدموا لها القرابين والهدايا وعلقوا بها القلائد والشنوف ، ولكن المسلمين سلبوا ذلك الذي قدمه الموسرون السذج لهذه الآلهة .

(١٧٢/١)

المراثي

لقد رثى كعب بن مالك وترجم في مراثيه عن الأحزان والآلام ، وكان رثاؤه في حمزة وقتلى مؤتة من أجود ما قال في الرثاء وقد تناول رثاء شهداء أحد وبينهم حمزة في قوله :

فكلهم مات حر البلاء ... على ملة الله لم يحرج

كحمزة لما وفى صادقا ... بذي هبة صارم سلجج

فلاقاه عبد بني نوفل ... يبربر كالجمل الأدعج

فأوجره حربة كالشهاب ... تلهب في اللهب الموهج

* حر البلاء : خالص الاختيار * لم يحرج : لم يأثم ، بذي هبة : يقصد السيف وهبة السيف وقوعه بالعظم * الصارم : القاطع * السلجج : المرهف * عبد بني نوفل : وحشي قاتل حمزة * يبربر : يصيح * الأدعج : الأسود ، أوجره : طعنه * الشهاب : القطعة من النار ، الموهج : الموقد .

وبهذه الأبيات بين أن أولئك الذين استشهدوا في أحد أخلصوا وماتوا على ملة الله بلا إثم وبينهم حمزة الذي وفى بسيفه الصارم المرهف في هذه المعركة ، ولكن عبد بني نوفل صاح كالجمل الأسود فطعنه طعنة تلهبت فيه كاللهب الموقد فقضت عليه .

وفي قصيدة أخرى كشف عن مشاعره حيال فقد حمزة فقال :

ولقد هددت لفقد حمزة هدة ... ظلت بتات الجوف منها ترعد

ولو أنه فجعت حراء بمثله ... لرأيت رأسي صخرها يتبدد

قرم تمكن في ذؤابة هاشم ... حيث النبوة والندى والسؤدد

والعاقر الكوم الجلاد إذا غدت ... ريح يكاد الماء منها يجمد

والتارك القرن الكمي مجدلا ... يوم الكريهة والقنا يتقصد

وتراه يرفل في الحديد كأنه ... ذو لبدة شثن البراثن أربد

عم النبي محمد وصفيه ... ورد الحمام فطاب ذاك المورد

* بتات الجوف : القلب والأحشاء * ترعد : تضطرب ، حراء : جبل * الراسي : الثابت * القرم : السيد الشريف * ذؤابة هاشم : أعاليها * الكوم : جمع كوماء وهي العظيمة السنام من الإبل * الجلاد : القوية * القرن : النظير * الكمي : الشجاع * مجدلا : مطروحا * الكريهة : الشدة والحرب * يتقصد : ينكسر * يرفل : يتبختر * ذو لبدة : الأسد * شثن : غليظ * البراثن : للسباع

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٣٣)

: كالأصابع للإنسان * الأربد : الأغبر يخالطه سواد * الحمام : الموت .

وقال أيضا :

صفية قومي ولا تعجزي ... وبكى النساء على حمزة

ولا تسأمي أن تطيلي البكا ... على أسد الله في الهزة

فقد كان عزا لأيتامنا ... وليث الملاحم في البزة

يريد بذاك رضا أحمد ... ورضوان ذي العرش والعزة

* الهزة : الاهتزاز والاختلاط في الحرب ، الملاحم : جمع ملحمة وهي الحرب ، البزة : السلاح .

وفي قتلى مؤتة أرسل نفثات قلبه الجريح حيث قضى هنالك القواد الثلاثة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة الأنصاري الشاعر ، وتلك أبيات من قصيدة في قتلى مؤتة ، قال :

نام العيون ودمع عينك يهمل ... سحا كما وكف الطباب المخضل

في ليلة وردت علي همومها ... طورا أحن وتارة أتململ

واعتادني حزن فبت كأنني ... ببنات نعش والسماك موكل

وكأنما بين الجوانح والحشى ... مما تأوبني شهاب مدخل

وجدا على النفر الذين تتابعوا ... يوما بمؤتة أستدوا لم ينقلوا

صلى الإله عليهم من فتية ... وسقى عظامهم الغمام المسبل

صبروا بمؤتة للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن ينكلوا

فمضوا أمام المسلمين كأنهم ... فنق عليهن الحديد المرفل

* همل ، همل الدمع : سال * السح : الصب * * وكف : قطر * الطباب جمع طبابة وهي سير بين خرزتين في المزادة فإذا لم يكن محكما قطر منه الماء * المخضل : السائل * التململ : التبرم والقلق .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٣٤)

(١٧٤/١)

---

* بنات نعش الكبرى : سبعة كواكب * السماك : برج في السماء * المدخل : النافذ إلى الداخل * أستدوا : حاربوا تحت رايات شتى * لم ينقلوا : لم تتغير حالهم * الغمام : المسبل : الممطر * الردى : الموت * ينكلوا : يرجعوا هائبين من عدوهم * الفنق : فحول الإبل الواحد فنيق * المرفل الذي تنجر أطرافه على الأرض .

نظرة في شعر كعب

تستطيع بعد أن قدمنا الكثير من النماذج لشعر كعب والتي أردنا بها أن نضع ذلك الشاعر في المكان الملائم لتلك الشاعرية ، تستطيع عندئذ أن تدرك أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين قدم إليه كعب لأول مرة في الكعبة فقال : كعب الشاعر ؟ فقضى له بالشاعرية لم يكن ليقضي بذلك لولا أنه بلغه من شعره قبل إسلامه ما رآه أهلا للحكم بأنه الشاعر ، وحسبه شهادة الرسول ومع هذا فتلك النماذج بين يديك ودون التأثر بحكم تستطيع أن تقرأ في دقة وتمحيص لتخرج كما خرجنا بالحكم له بأنه مصور دقيق يتخذ من الكلمات المناسبة مادة للصورة ، وتلك صورة لجيش المشركين وقوامه ثلاثة آلاف سوى الأحابيش يرى الشاعر في ذلك العدد العظيم ، والعدد التي يموج فيها من الدروع والسيوف والحراب وكلها يلمع تحت أضواء الشمس ما يشبه البحر المائج فيقول :

فجئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش فيهم حاسر ومقنع

فيكشف بذلك عن صورة تصطخب فيها الكثرة والحركة واللون ، وفي وسط الموج المتقلب صورة أشبهتها صورة الأحابيش وهم بين حاسر تجلى سواده الفاحم ومقنع ستر سواده بقناع أبيض ، وقدم في نفس القصيدة صورة السهام وهي تقع تارة بأبدان الرجال وتارة لا تصيب الهدف فتنطلق في الحجارة اللينة ترعد أصواتها في قوله :

تصوب بأبدان الرجال وتارة ... تمر بأعراض البصار تقعقع

ويقدم صورة للخيل تسبح في الفضاء كأنها جراد ماجته ريح الصبا الباردة هنا وهناك فهو يذهب ويجيء ، وهكذا تكون صورة الخيل حين يكر بها الفرسان حينا ثم يرجعون ليهتبلوا فرصة للكر ، فهي كذلك تتريع وتجيء وتذهب وذلك في قوله :

وخيل تراها بالفضاء كأنها ... جراد صبا في قرة يتريع

.

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٣٥)

ويقدم في نفس القصيدة صورة للصحاري والجبال وكأن سوادها يتراءى من البعد كغبار ساكن منقطع وذلك في قوله :

صحار وأعلام كأن قتامها ... من البعد فقع هامد متقطع

وإن : شاعرنا هذا صادق كل الصدق في التصوير ، فهو ابن بيئته ترجم كل ما ألهمته له البيئة في صور كأنها لوحات مصور تفنن في إضفاء الألوان والظلال عليها فعاشت على الأجيال يرى فيها المسلمون أمجادهم ويرى فيها العرب صور البادية في صحاراها وأعلامها وعينها وآرامها ونعامها ، تلك البادية التي أنجبته ، وكأننا ونحن نردد شعر كعب نعيش معه في عصره ، ونلحظ بأبصارنا روائع المشاهد التي ألهمته الصور . وكأننا نرى صورة سلع والعريض والصماد ، وحدائق النخيل التي تروى بالنضح والآبار الضيقة التي حفرت من عهد عاد ، وهي ثابتة دائمة يعلو فيها نهر المرار ، وكأننا نرى الغاب والبردي الغليظ الصوت الذي اصفر للحصاد ، كأننا نرى ذلك كله حين نقرأ له :

ألا أبلغ قريشا أن سلعا ... بين العريض إلى الصماد
نواضح في الحروب مدربات ... وخوص ثقبت من عهد عاد
رواكد يزخر المرار فيها ... فليس بالجمام ولا الثماد
كأن الغاب والبردي فيها ... أجش إذا تبقع للحصاد

* سلع والصماد : جبلان * العريض : واد * النواضح : النخيل التي تسقى بالنضح * الخوص : الآبار * المرار : نهر ، الجمام جمع جمة وهي البئر الكثيرة الماء * والثماد : الماء القليل : أجش : عالي الصوت ، تبقع : اصفر .

وليس : ثمت من شاعر عربي جاهلي أو مخضرم لم يتحدث عن الخيل ؛ لأنها العماد الثاني لذلك المجتمع الذي عاش في جاهليته وصدر إسلامه ، بين غبار المعارك الذي لا يخمد إلا ليشتعل ، ومن ثم اعتمدوا على الخيل في تلك الحروب ، واعتمادهم ذلك دعا شعراءهم إلى الحديث عنها في أشعارهم كسلاح هام من أسلحة القتال أو كعدة من عدده ؛ ولأننا قلنا إن شاعرنا ابن بيئته المصور المعبر عنها نرى أنه لابد قبل أن نختتم الحديث عنه أن نقدم صورة للخيل في شعره : قال في قصيدة مطلعها :

أبقى لنا حدث الحروب بقية ... من خير نحلة ربنا الوهاب
ونزائعا مثل السراح نمى بها ... علف الشعير وجزة المقضاب

(١٧٧/١)

قودا تراح إلى الصياح إذا غدت ... فعل الضراء تراح للكلاب
وتحوط سائمة الديار وتارة ... تردي العدا وتثوب بالأسلاب

* النزائع : الخيل العربية التي حملت من أرضها إلى أرض أخرى * السراح : الذئاب جمع سرحان

* جزة المقضاب : ما يجز من النبات ويقطع * قود : طوال * تراح بفتح التاء : تنشط * الضراء : الكلاب الضارية في الصيد ، والكلاب بتشديد اللام الصائح صاحب الكلاب * السائمة : الماشية المرسلة للرعي * تردي : تهلك ، تثوب : ترجع . كأننا بالشاعر يقدم الحديث عن الخيول التي غنمت أو التي اشتريت ثم نقلت لتعيش في أرباض المدينة ، وشبهها بالذئاب في سرعة عدوها وخفة حركتها ، وذكر الشاعر أن نموها كان بسبب علف الشعير وما يجز لها من النبات بالمقضاب ، ثم صور جسدها فوصفه بالطول في قوله : قود وهو جمع أقود وقوداء ، ثم صور نشاطها وحركتها حين تسمع الصياح فتفعل فعل كلاب الصيد حين تنشط وتنطلق وقد سمعت صوت الكلاب (صاحبها) وهو يهيب بها نحو الفرائس وكأن الخيول دربت على الاندفاع حين تسمع الصياح .
وهذه الخيول ينتفع بها في السلم والحرب ، فهي في السلم تحوط السوائم وترعاها من سطوة الذئاب ، وأما في الحرب فهي مهلكة للأعداء وتثوب بالغنائم والأسلاب .
وإنا حين نلقي نظرة على هذه الأبيات من تلك القصيدة الطويلة نلمس قوة (لبيد) وأسلوب لبيد وروح لبيد وكأن انطباعات الجاهليين تنعكس على شعره فهو متأثر إلى حد كبير برءوس شعراء الجاهلية وإن كان مخضرما وفي شعره الكثير من المعاني التي جاء بها القرآن والإسلام .
وقد لا نجد في هذا اللون الكثير من الوهن الذي ربما نراه في شعر غيره من شعراء صدر الإسلام الذين اتهموا بضعف شعرهم الإسلامي ؛ لأنه مرتجل أو لأنه يحمل حقائق إسلامية صادقة .

(١٧٨/١)

وقد قيل : إن أعذب الشعر أكذبه : والحقائق تجافي الكذب ، وربما كان سبب ضعف شعرهم ، ذلك السرد التاريخي وقد لا يكون من إسراف القول إذا قلنا : إن كعب بن مالك قمة شعراء الرسول – صلى الله عليه وسلم – وحسبه من بين الصحابة أن يكون واحدا من اثنين حملا في سبيل الدعوة السيف والقلم هما : كعب وابن رواحة ، فكان كعب صاحب السيف الذي نافح عن الإسلام ورسوله ونصر كلمته وكان صاحب القلم الذي ذاد عن الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – هجمات شعراء قريش بل طعن فأدمى ووخز فأخزى " جزاه الله وأحسن بين المجاهدين مثواه " .

(١٧٩/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٣٧)
أحمد الشرباصي

د . أحمد الشرباصي . أستاذ بجامعة الأزهر .

مسلمة بن عبد الملك مجاهد على الدوام

روى الإمام البخاري أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال : مسند أحمد بن حنبل (٩٢/٢).

جعل رزقي تحت ظل رمحي . والنفس تفهم من هذا الحديث الكريم معنى ترجو أن يكون صوابا من الله : وإلا فالخطأ منها ومن الشيطان ، أن الحق لا بد له من قوة تحرسه وتصونه ، وإلا ضاع تحت جبروت الباطل ، والعامة تقول : المال السايب يعلم السرقة وكذلك قيل : من لم يتذأب أكلته الذئاب .

فرزق المسلم وهو يتمثل في داره وعقاره ، وسكنه ووطنه ، وزرعه وضرعه ، وكل ما يحوزه ويملكه – يجب أن يكون محروسا بعدته وعتاده ، مستظلا بسلاحه ورماحه ، ومن هنا قال الله في القرآن الكريم : سورة الأنفال الآية ٦٠ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

وليست الحرب في الإسلام غاية مقصودة لذاتها ، ولكنها خطة يدفع إليها بغي الباغين وظلم الظالمين ، ولذلك قال الله تعالى في التنزيل المجيد : سورة البقرة الآية ١٩٠ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وقال أيضا : سورة البقرة الآية ١٩٤ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٣٨)

(١٨٠/١)

وصيانة الحق والرزق تستلزم أن يكون أبناء الإسلام دائما على إعداد واستعداد ، وأن تكون طائفة منهم على الدوام في حالة رباط ، أو على أرض الميدان ، حتى يظل الجهاد فريضة قائمة باقية ، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين مجد شأن المؤمن المجاهد الموصول النضال ، فقال : سنن الترمذي فضائل الجهاد (١٦٥٢)،سنن النسائي الزكاة (٢٥٦٩)،موطأ مالك الجهاد (٩٧٦)،سنن الدارمي الجهاد (٢٣٩٥). خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها .

وهذا : واحد من أبناء الإسلام ، وأتباع محمد – عليه الصلاة والسلام – يظل أكثر من خمسين عاما يحمل سلاحه ، ويسدد رماحه ، ويذود عن حمى الدين ، ويصون حرمات المسلمين ، ويتقرب بالجهاد إلى الله رب العالمين : إنه البطل القائد ، الأمير الفاتح أبو سعيد مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي الأموي الدمشقي ، وإليه تنسب جماعة بني مسلمة التي كانت بلدتهم هي الأشمونين وفيها منازلهم ، وهي بلدة بالصعيد الأعلى في مصر غربي نهر النيل .

وكان مسلمة بن عبد الملك من أبطال عصره ، بل من أبطال الإسلام المعدودين ، حتى كانوا يقولون عنه أنه خالد بن الوليد الثاني ، لأنه كان يشبه سيف الله المسلول في شجاعته وكثرة معاركه وحروبه ، ويقول عنه المؤرخ يوسف بن تغري : روى صاحب كتاب النجوم الزاهرة هذه العبارة : كان شجاعا صاحب همة وعزيمة ، وله غزوات كثيرة المرجع السابق . ويقول عنه ابن كثير : وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومساع مشكورة ، وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصونا وقلاعا ، وأحيا بعزمه قصورا وبقاعا ، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه ، وفي كثرة مغازيه ، وكثرة فتوحه ، وقوة عزمه ، وشدة بأسه ، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه ، وهذا مع الكرم والفصاحة البداية والنهاية ج٩ص٣٢٨و٣٢٩ ، ويقول عنه صاحب العقد الفريد : ولم يكن لعبد الملك ابن أسد رأيا ، ولا أزكي عقلا ، ولا أشجع قلبا ، ولا أسمع نفسا ، ولا أسخى كفا من مسلمة العقد الفريد ، ج٧ ص١٤٥ .

ولذلك أوصى عبد الملك بن مروان أولاده ، وفيهم مسلمة ، فكان مما قاله لهم عنه : يا بني ، أخوكم (الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٣٩)

مسلمة ، نابكم الذي تفترون عنه ، ومجنكم الذي تستجنون به ، أصدروا عن رأيه مروج الذهب للمسعودي ج٣ص١٦١ .

ومع أن إخوة لمسلمة تولوا الخلافة دونه ، ظل هو بينهم النجم المتألق الثاقب بجهاده وكفاحه ، وقال عنه مؤرخ الإسلام الذهبي : كان مسلمة أولى بالخلافة من إخوته . وليست العبرة بالمناصب والمراتب ، ولكنها بالإرادة والعزيمة ، والإقدام ، وعمق التفكير ، وحسن الخلق .

وكانوا يلقبون مسلمة بلقب الجرادة الصفراء ، لأنه كان متحليا بالشجاعة والإقدام ، مع الرأي والدهاء ؛ ومع أنه تولى إمارة أذربيجان وأرمينية أكثر من مرة وإمارة العراقين العبر ج١ص١٥٤ ، ظل يواصل الجهاد ، ويتابع المعارك ، منذ تولى والده الخلافة سنة خمس وستين وظل مسلمة على هذه الروح البطولية حتى لحق بربه سنة إحدى وعشرين ومائة .

وهذه إشارات سريعة إلى سلسلة المعارك التي خاضها :

* في سنة ست وثمانين غزا مسلمة أرض الروم . وفي سنة سبع وثمانين غزا أرض الروم ، ومعه يزيد بن جبير ، فلقي الروم في عدد كثير بسوسنة من ناحية المصيصة ، ولاقى فيها ميمونا الجرجماني ، ومع مسلمة نحو من ألف مقاتل من أهل أنطاكية عند طوانة ، فقتل منهم بشرا كثيرا ، وفتح الله على يديه حصونا .

*وفي سنة ثمان وثمانين فتح مسلمة حصنا من حصون الروم تسمى طوانة ، في شهر جمادى الآخرة ، وشتوا بها ، وكان على الجيش مسلمة والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، وهزم المسلمون أعداءهم ، ويروى أن العباس قال لبعض من معه : أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة ، فقال له : نادهم يأتوك . فنادى العباس : يا أهل القرآن . فأقبلوا جميعا ، فهزم الله أعداءهم .

*وفي سنة ثمان وثمانين أيضا غزا مسلمة الروم مرة أخرى ، ففتح ثلاثة حصون ، هي حصن قسطنطينية وحصن غزالة ، وحصن الأخرم انظر تاريخ الطبري، ج٦ ص٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ على التوالي . *وفي سنة تسع وثمانين غزا مسلمة أرض الروم مرة أخرى ، حيث فتح حصن سورية ، وقصد عمورية ، فوافق بها للروم جمعا كثيرا ، فهزمهم الله ، وافتتح هرقلة وقمودية .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٤٠)

*وفي سنة تسع وثمانين أيضا غزا مسلمة الترك ، حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان ، ففتح حصونا ومدائن هناك .

*وفي سنة اثنتين وتسعين غزا مسلمة ، ومع عمر بن الوليد ، أرض الروم ، ففتح الله على يدي مسلمة ثلاثة حصون ، وجلا أهل سوسنة إلى جوف أرض الروم .

*وفي سنة ثلاث وتسعين غزا مسلمة أرض الروم ، فافتتح ماسة ، وحصن الحديد ، وغزالة ، وبرجمة من ناحية ملطية تاريخ الطبري ج ٦ ص٤٣٩وص٤٤١وص٤٦٩ على التوالي .

*وفي سنة ست وتسعين غزا مسلمة أرض الروم صيفا ، وفتح حصنا يقال له : حصن عوف .

*وفي سنة سبع وتسعين غزا مسلمة أرض الروم ، وفتح الحصن الذي كان قد فتحه الوضاح صاحب الوضاحية .

*وفي سنة ثمان وتسعين حاصر مسلمة القسطنطينية ، وطال الحصار ، واحتمل الجنود في ذلك متاعب شديدة .

*وفي سنة ثمان ومائة غزا مسلمة الروم حتى بلغ قيسارية وفتحها .
*وفي سنة تسع ومائة غزا الترك والسند ، وولاه أخوه يزيد بن عبد الملك إمارة العراقيين ثم أرمينية .
*وفي سنة عشر ومائة غزا مسلمة الترك ، وظل يجاهد شهرا في مطر شديد حتى نصره الله تاريخ الطبري ج٧ ص٤٣ و ٥٤ : .
*وفي سنة عشر ومائة أيضا قاتل مسلمة ملك الترك الأعظم خاقان ، حيث زحف إلى مسلمة في جموع عظيمة فتوافقوا نحوا من شهر ، ثم هزم الله خاقان زمن الشتاء ، ورجع مسلمة سالما غانما ، فسلك على مسلك ذي القرنين في رجوعه إلى الشام ، وتسمى هذه الغزوة غزاة الطين ، وذلك أنهم سلكوا على مفارق ومواضع غرق فيها دواب كثيرة ، وتوحل فيها خلق كثير ، فما نجوا حتى قاسوا شدائد وأهوالا صعابا وشدائد عظاما البداية والنهاية : ج٩ ص ٢٥٩ .
*وفي سنة ثلاث عشرة غزا مسلمة بلاد خاقان ، وبث فيها الجيوش ، وفتح مدائن وحصونا ، وقتل منهم وأسر ودان لمسلمة من كان وراء جبال بلنجر تاريخ الطبري ج ٧ ص ٨٨ .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٤١)
*وفي سنة ثلاث عشرة أيضا توغل مسلمة في بلاد الترك ، فقتل منهم خلقا كثيرا ، ودانت له تلك الممالك من ناحية بلنجر وأعمالها البداية والنهاية ج٩ ص٣٠٤ : .
*وفي سنة إحدى وعشرين ومائة غزا مسلمة الروم ، ففتح حصن مطامير : البداية ج٩ ص٣٢٦ : .

رواية الحديث عن الخليفة الخامس
أرأيت . . . إنها سلسلة طويلة من المعارك والغزوات والحروب ، وإنها لسلسلة كثيرة الحلقات .
وكأنما نذر مسلمة نفسه للجهاد والقتال ، واتخذ مسكنه في ساحات الكفاح والنضال ، ومع ذلك كان عالما محدثا ، روى الحديث عن خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، وروى عنه الأحاديث جماعة منهم : عبد الملك بن أبي عثمان ، وعبد الله بن قرعة ، وعيينة والد سفيان بن عيينة ، وابن أبي عمران ، ومعاوية بن خديج ، ويحيي بن يحيي الغساني البداية والنهاية ج٩ ص٣٢٨ .
ويظهر أن اتصال مسلمة بن عبد الملك بالحاكم العادل ، المخلص الأمين ، خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز كان من أقوى الأسباب في تكوين شخصية مسلمة ، تكوينا باهرا رائعا ؛ لأني أومن بأن عمر بن عبد العزيز كان رجلا تتمثل فيه نفحات إلهية من الخير والبر والتوفيق ، وأن الذين اتصلوا به وأخذوا عنه واقتبسوا منه هداهم الله ، ووهبهم توفيقا ورشادا . ولعل مسلمة قد عبر عن شيء من هذا القبيل حينما دخل على عمر بن عبد العزيز وهو في ساعاته الأخيرة فقال له في تأثر

عميق بليغ : جزاك الله ، يا أمير المؤمنين عنا خيرا ، فقد ألنت لنا قلوبا كانت قاسية ، وجعلت لنا في الصالحين ذكرا العقد الفريد ج٣ ص١٨٣ : .

وهذه عبارة تدل على أن ملامح من شخصية مسلمة كان الفضل فيها لخامس الراشدين رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

(١٨٦/١)

على فراش الموت بين مسلمة وعمر بن عبد العزيز

ومن : المواقف الخالدة الباقية بين مسلمة وعمر ما رواه ابن عبد ربه ، وهو أن مسلمة بن عبد الملك ، دخل على عمر بن عبد العزيز في المرض الذي مات فيه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، ولا بد لهم من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلي أو إلى

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٤٢)

نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم إن شاء الله .

فقال عمر : أجلسوني ، فأجلسوه ، فقال :

الحمد لله ، أبالله تخوفني يا مسلمة ؟ . أما ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة ، فإني لم أمنعهم حقا هو لهم . ولم أعطهم حقا هو لغيرهم ، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي ، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل الله له من أمره يسرا ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غير وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا لي بني . فدعوهم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاما ، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه ، حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال :

بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم . يا بني ، إني قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله ، يا بني ، ميلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيرا من دخول أبيكم يوما واحدا النار . قوموا يا بني عصمكم الله ورزقكم .

فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر العقد الفريد ج٥ ص ٢٠٣ .

وكان مسلمة يظهر نعمة الله تعالى ، ومن شواهد ذلك أنه دخل على عمر بن عبد العزيز وعليه ريطة من رياط مصر (أي ثوب رقيق ناعم) . فقال له عمر : بكم أخذت هذا يا أبا سعيد ؟

أجاب مسلمة : بكذا وكذا .

قال عمر : فلو نقصت من ثمنها ما كان ناقصا من شرفك .

فأجاب مسلمة : إن أفضل الاقتصاد ما كان بعد الجدة ، وأفضل العفو ما كان بعد القدرة ، وأفضل اليد ما كان بعد الولاية : العقد الفريد ج٥ ص١٩٨ .

ولقد كان مسلمة رجلا معطاء ، ولقد قال يوما لنصيب الشاعر : سلني . قال : لا ، قال : ولم ؟ قال نصيب :

لأن كفك بالجزيل أكثر من مسألتي باللسان .

وكان مسلمة مع تقواه وحرصه على الصلاة رجلا يحب العفو ويحبب فيه ، ولقد حدث بين الخليفة هشام بن عبد الملك وبين ابن هبيرة ما دعا إلى إهدار دمه ، ولكن خادما لمسلمة يحدثنا فيقول : (الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٤٣)

كان مسلمة بن عبد الملك يقوم الليل فيتوضأ ويتنفل حتى يصبح ، فيدخل على أمير المؤمنين ، فإني لأصب الماء على يديه من آخر الليل وهو يتوضأ ، إذ صاح صائح من وراء الرواق : أنا بالله وبالأمير :

فقال مسلمة (في دهشة) : صوت ابن هبيرة ، اخرج إليه .

فخرجت إليه ورجعت فأخبرته ، فقال : أدخله ، فدخل فإذا رجل يميد نعاسا ، فقال : أنا بالله وبالأمير .

قال : أنا بلله ، وأنت بالله .

ثم قال : أنا بالله ، وأنا بالأمير .

قال مسلمة : أنا بالله ، وأنت بالله .

حتى قالها ثلاثا ، ثم قال : أنا بالله . فسكت عنه ، ثم قال لي : انطلق به فوضئه وليصل ، ثم اعرض عليه أحب الطعام إليه فأته به ، وافرش له في تلك الصفة – لصفة بين يدي بيوت النساء – ولا توقظه حتى يقوم متى قام . فانطلقت به فتوضأ وصلى ، وعرضت عليه الطعام فقال : شربة سويق ، فشرب ، وفرشت له فنام ، وجئت إلى مسلمة فأعلمته ، فغدا إلى هشام فجلس عنده ، حتى إذا حان قيامه قال : يا أمير المؤمنين ، لي حاجة . قال هشام : قضيت ، إلا أن تكون في ابن هبيرة . قال قال مسلمة : رضيت يا أمير المؤمنين .

ثم قام مسلمة منصرفا ، حتى إذا كاد أن يخرج من الديوان رجع فقال : يا أمير المؤمنين ، ما عودتني أن تستثني في حاجة من حوائجي ، وإني أكره أن يتحدث الناس أنك أحدثت علي الاستثناء .

قال هشام : لا أستثني عليك .

قال مسلمة : فهو ابن هبيرة .

فعفا عنه هشام العقد الفريد ج٢ ص٥٧ و ٥٨ .

ومن ملامح شخصية مسلمة أنه كان يعرف للفصحى مكانتها ، وللبيان السليم منزلته ، وكان يقول : اللحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه : عيون الأخبار ج٢ ص ١٥٨ : . وكان يقول أيضا : مروءتان ظاهرتان : الرياسة والفصاحة : عيون الأخبار ج١ ص٢٩٦ : .

ومن كلماته قوله : ما أخذت أمرا قط بحزم فلمت نفسي فيه ، وإن كانت العاقبة علي ، ولا أخذت أمرا قط ، وضيعت الحزم فيه ، فحمدت نفسي وإن كانت لي العاقبة العقد الفريد ج١ ص ١٩٤ .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٤٤)

وكان مسلمة يحب أهل الأدب ، وأوصى لهم بثلث ماله ، وقال : إنها صنعة جحف أهلها البداية والنهاية ج٩ ص٣٢٩ أي سلبهم الناس حقهم .

وكذلك كان يعرف للشعراء مكانتهم وحقهم ، ولقد تحدث كثير عزة فقال : شخصت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه –وكل واحد منا يدل عليه بسابقة وإخاء قديم ، ونحن لا نشك أن سيشركنا في خلافته ، فلما رفعت لنا أعلام خناصرة خناصرة : بلدة من أعمال حلب لقينا مسلمة بن عبد الملك ، وهو يومئذ فتى العرب ، فسلمنا فرد ، ثم قال : أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر ؟ قلنا : ما توضح إلينا خبر حتى انتهينا إليك . ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا .

قال : إن يكن ذو دين بني مروان قد ولي وخشيتم حرمانه ، فإن ذا دنيانا قد بقي ، ولكم عندي ما تحبون ، وما ألبث حتى أرجع إليكم ، وأمنحكم ما أنتم أهله .

فلما قدم كانت رحالنا عنده بأكرم منزل عليه : العقد الفريد ج١ ص٣١٤ : .

وكان مسلمة يعرف للعلماء كذلك أقدارهم ، ويهدي إليهم ، وكان يهدي إلى الحسن البصري ، وأهدى إليه ذات مرة خميصة لها أعلام ، فكان الحسن يصلي فيها العقد الفريد ج١ ص٢١١ : والخميصة ثوب من الخز .

وكان يتقدم بالنصيحة في موطنها ، ولقد لاحظ على أخيه يزيد بن عبد الملك نوعا من اللهو وهو في الخلافة ، فنصحه وذكره بسيرة عمر بن عبد العزيز وقال له فيما قال : إنما مات عمر أمس ، وقد كان من عدله ما قد علمت ، فينبغي أن تظهر للناس العدل ، وترفض هذا اللهو ، فقد اقتدى بك عمالك في سائر أفعالك وسيرتك : مروج الذهب ج٣ ص١٩٦ .

ومن أروع المشاهد المأثورة المذكورة في سيرة البطل الفاتح : مسلمة بن عبد الملك . والتي يجب أن نطيل فيها التأمل والاعتبار ، إن كنا من أصحاب القلوب والأبصار ، أن مسلمة كان يحاصر ذات يوم حصنا ، وما أكثر الحصون التي حاصرها ، وما أكثر الحصون التي اقتحمها باسم الإسلام والمسلمين . . . واستعصى فتح الحصن على الجنود ، فوقف مسلمة يخطب بينهم ويقول لهم ما معناه : أما فيكم أحد يقدم فيحدث لنا نقبا في هذا الحصن ؟ .
وبعد قليل تقدم جندي ملثم ، وألقى بنفسه على الحصن ، واحتمل ما احتمل من أخطار وآلام ، حتى أحدث في الحصن نقبا كان سببا في فتح المسلمين له ، وعقب ذلك نادى مسلمة في جنوده قائلا : أين صاحب النقب ؟ .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٤٥)
فلم يجبه أحد ، فقال مسلمة : عزمت على صاحب النقب أن يأتي للقائي ، وقد أمرت الآذن بإدخاله علي ساعة مجيئه .
وبعد حين أقبل نحو الآذن شخص ملثم ، وقال له : استأذن لي على الأمير . فقال له : أأنت صاحب النقب ؟ .
فأجاب : أنا أخبركم عنه ، وأدلكم عليه . فأدخله الآذن على مسلمة ، فقال الجندي الملثم للقائد : إن صاحب النقب يشترط عليكم أمورا ثلاثة : ألا تبعثوا باسمه في صحيفة إلى الخليفة ، وألا تأمروا له بشيء جزاء ما صنع ، وألا تسألوه من هو ؟ . فقال مسلمة : له ذلك ، فأين هو ؟ فأجاب الجندي في تواضع واستحياء أنا صاحب النقب أيها الأمير . ثم سارع بالخروج .

(١٩٠/١)

فكان مسلمة بعد ذلك لا يصلي صلاة إلا قال في دعائها : اللهم اجعلني مع صاحب النقب يوم القيامة : عيون الأخبار ج١ ص ١٧٢ : .
وبعد ما يزيد عن نصف قرن من الزمان قضاها مسلمة بن عبد الملك في قتال ونضال ، وكفاح وحمل سلاح . مضى إلى ربه سنة إحدى وعشرين ومائة ، لينال ثوابه مع أهل التقوى وأهل المغفرة : سورة القمر الآية ٥٤ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ سورة القمر الآية ٥٥ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ

مُقْتَدِرٍ وهو الذي سأله أخوه هشام : هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو ؟ فقال : ما سلمت في ذلك من ذعر ينبه على حيلة ، ولم يغشني ذعر سلبني رأيي . فقال هشام : هذه والله البسالة العقد الفريد ج١ ص ٨٢ .

توفي مسلمة يوم الأربعاء لسبع مضين من المحرم سنة إحدى وعشرين ومائة ، في موضع يقال له الحانوت ، وقيل سنة عشرين ومائة ، وقيل سنة ثنتين وعشرين ومائة .

ومن العجيب أن صاحب (النجوم الزاهرة) ذكر خبرين عن وفاته فذكر أولا أنه مات سنة عشرين ومائة .

ثم عاد بعد قليل فذكر أنه مات سنة ثنتين وعشرين ومائة ، ولكن القول الأول أصح .

ولقد رثى الوليد بن يزيد بن عبد الملك عمه البطل مسلمة بن عبد الملك فقال في رثائه هذه الأبيات :

أقول – وما البعد إلا الردى ... أمسلم ، لا تبعدن ، مسلمة

فقد كنت نورا لنا في البلاد ... مضيئا ، فقد أصبحت مظلمة

ونكتم موتك نخشى اليقين ... فأبدى اليقين لنا الجمجمة

! رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٤٦)

الدكتور أحمد الشرباصي

تاريخ الميلاد : ١٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ م في بلدة البجلات بمحافظة الدقهلية – جمهورية مصر العربية .

العمل : أستاذ بجامعة الأزهر – كلية اللغة العربية .

التخصص : العلوم الإسلامية والعربية .

المؤهل العلمي الأخير : درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى في الدراسات الأدبية والنقدية سنة ١٩٦٧ م .

المؤلفات : له عشرات من الكتب في الدين والتاريخ والأدب والاجتماع .

عنوان المراسلات : ١٥ شارع أبو حازم – شارع الأهرام – الجيزة – مصر .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٤٧)

عبد الله خياط

حركة الإصلاح الديني في القرن الثاني عشر

في كل فترة من الزمن ، وكلما تقادم العهد على إشعاع نور العرفان على الإنسانية ، وأخذت الشموع بعد طول اتقادها تذبل وتتلاشى ، يبدأ إشراق جديد لنجوم أخرى تلمع في سماء البشرية ، فيستضيء البشر بلألائها ، ويهتدي إلى الطريق بسطوع أنوارها ، فتحيا في نفوس أفراده المعرفة بعد اضمحلالها وينتبه الوعي بعد خموله .

ولقد كان مصلح القرن الثاني عشر الشيخ محمد بن عبد الوهاب نجما من تلك النجوم اللامعة التي استضاءت بنورها الإنسانية بعد ما خبت فيها جذوة التفكير ، وأظلم أمامها سبيل الحق وغشيتها غاشية من الجهل فجاء ظهوره في الوقت المناسب .

ميلاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب

ولد هذا المصلح عام ١١١٥ هـ – ١٧٠٣ م في بلدة العيينة وفي قلب الجزيرة العربية من بيت علم محافظ متمسك ، وترعرع في أحضان العلم حيث كان أبوه وجده علمين من أعلام زمانهما ، وارتشف من

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٤٨)

مناهل العلم على والده ثم سعى إلى طلب المعرفة في الحجاز والعراق وبلغ من طموحه أن فكر في التطواف في البلاد رغبة في الكشف عن معالم الحقيقة ، ولكن إمكانياته وقفت به عند هذا الحد ، وقد حصل على رصيد كبير في علوم الدين وما يتصل بها من علوم اللغة العربية ، مما هيأه للاضطلاع بمهمة الزعامة الدينية والقيام بواجب المصلح ، الذي ينير السبيل ويهدي إلى النور ويحمل على الرجعية ، ويصلح ما أفسده تقادم العهد على شريعة السماء ، التي جاء بها رسول الإنسانية محمد – صلى الله عليه وسلم – ويبعد عنها الزيف . ويبرزها واضحة المعالم ، وإن المصلحين والمجددين في كل زمان ومكان كثيرا ما يصطدمون – بأطماع المغرضين وأصحاب النزوات الطائشة الذين يكرهون الحد من أطماعهم ونزواتهم فيحتالون بكل الوسائل لإحباط مجهود المصلحين وإيقاف حملة الإنقاذ التي يقودها المجددون ، وقد لقي مصلح القرن الثاني عشر من العنت والإرهاق والتضييق ومصادرة الحرية ، لقي من ذلك كله الشيء الكثير فصبر وجالد شأن كل مؤمن بمبدئه مقتنع بسلامة قضيته وصحة نظرياته .

لقد خشي خصوم المصلح من امتداد مبادئه وذلك طبيعي ومنطقي أيضا إذ أن البقاء للأصلح

فجندوا له كل الإمكانيات للقضاء عليه حتى رموه بالأطماع السياسية ليوغروا الصدور عليه في داخل الجزيرة وخارجها ولدى سلاطين الدولة العثمانية ، ووصفوا دعوته (بالوهابية) إمعانا في التنفير منها لاعتبارها خارجة على تعاليم الإسلام ونظريات أئمة المذاهب الإسلامية المجتهدين .

(١٩٤/١)

وفي ظروف غير اعتيادية ، وتحت تأثير سلسلة من الاضطهادات المتعاقبة قرر المصلح النزوح إلى بلدة الدرعية عاصمة ملك آل سعود شمال الرياض (العاصمة الحالية للمملكة العربية السعودية) وتعاقد المصلح مع أميرها محمد بن سعود على نشر تعاليمه التي هي في الواقع تعاليم الإسلام الصحيح ، وكان للأمير محمد ولأولاده من بعده مع المصلح وأبنائه وأحفاده مواقف حميدة اتسع بها نطاق الإصلاح حيث تضامن السيف مع الكتاب لإظهار الحق تحت ظلال علم الدولة الأخضر الذي يحمل شعار الإسلام وكلمة الإسلام .

لا إله إلا الله محمد رسول الله : هذا الشعار في هذا العلم البارز الخفاق اجتذب إليه القلوب ونبه الوعي الإسلامي فأدرك بعد طول سبات أن هذا الصوت المدوي المنبعث من قلب الجزيرة مهد الفطرة هو صوت الحرية ، صوت النذير باضمحلال سحب الباطل ، صوت التحرير يقود حملته مصلح الجزيرة في القرن الثاني عشر الشيخ محمد بن عبد الوهاب – ومات المصلح سنة١٢٠٦ هـ – ١٧٨٧ م – بعد أن قرت عينه بانتشار تعاليمه إلى أبعد مدى أمكن أن تنتشر إليه في الجزيرة وبعد أن خلفه من ذريته من حمل على عاتقه القيام بالدعوة إلى مبادئه التي هي في الواقع مبادئ
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٤٩)
أفضل شريعة جاءت من السماء عن طريق منقذ البشرية محمد صلى الله عليه وسلم . والذي بشرت به الكتب السماوية .
ومات قبل المصلح رأس الدولة السعودية الأولى محمد بن سعود – رحمه الله تعالى – ولكن سيفه لم يزل مسلولا – بيد أبنائه من بعده يناصرون به الحركة الإصلاحية الدينية ويعاضدون خلفاء المصلح حتى الوقت الحاضر .

(١٩٥/١)

النظريات التي قامت عليها الدعوة

النظرية الأولى

تنظيم : العلاقة بين الخالق والمخلوق . بحيث يعترف المخلوق بسلطان الإله والهيمنة عليه في جميع أموره وله في عنقه حق التقديس والتأليه والعبودية المطلقة ، فلا يلتفت إلا إليه ولا يتعلق إلا به ولا يعترف لسلطة غيبية وقدرة فعالة إلا لسلطته وقدرته . حتى السلطة التنفيذية التي تكون عادة للملوك والهيئات التنفيذية يجعلها الشيخ خاضعة لنظام التشريع الإلهي فلا يجوز الانصياع والإذعان لهذه السلطات ولا يحقق رغباتها إلا في حدود تشريع السماء وهذه هي نظرية الإسلام حيث يقول رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – صحيح مسلم الإمارة (١٨٤٠)،سنن النسائي البيعة (٤٢٠٥)،سنن أبو داود الجهاد (٢٦٢٥). لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولا يجوز الشيخ أن تتطامن النفوس إلا لخالقها أو تذل وتستكين إلا لمن له حق الهيمنة عليها والتصرف المطلق فيها وهو الله ويؤيد هذه النظرية بقول رسول الإسلام – صلى الله عليه وسلم – في خطبته التي قرر فيها قواعد العدالة الإنسانية يقول .

إن دينكم واحد ، وإن أباكم واحد ، الناس من آدم ، وآدم من تراب .

وتمشيا مع واقع هذه النظرية وتحقيقا لأهدافها طالب الشيخ بما يأتي :

١ – الإخلاص : في عبادة الواحد الأحد ، المالك لأمور عباده ، فهو وحده الذي يستحق التأليه والتوجه إليه ، وقصده في جلب النفع ودفع الضر .

٢ – الإعراض : عن عبادة الطواغيت ، وكل ما توجه إليه الناس بلون التقديس والعبادة فهو طاغوت ، سواء كان قبرا أو شجرا أو حجرا أو جنيبا أو غير ذلك .

٣ – قطع : الصلة بالقبور والمقبورين إلا في زورات خاصة ، يقوم بها الرجال لا تتقيد بزمن ولا تتحدد بوقت معين ، والغرض من هذه الزيارة مصلحة الأموات ؛ لاستنزال الرحمة لهم ، والدعاء والاستغفار ، ولأخذ العبرة من مصيرهم لا لغرض التبرك بهم ، والتمسح بقبورهم وطلب العون منهم .

(١٩٦/١)

---

٤ – التنكر : لمبدأ اتخاذ الموتى من صالحين وأولياء وأنبياء شفعاء ووسطاء بين الخالق والمخلوق قياسا على الوساطة المعروفة بين المخلوقين بعضهم مع بعض لدى الملوك والعظماء ، إذ أن ذلك قياس مع الفارق وباطل لا تقره التعاليم الإسلامية .

٥ – تسوية : القبور المشرفة بالأرض ، لا فرق في ذلك بين قبر نبي أو ولي أو رجل صالح أو غيره – ذلك لأن في رفع القبور والبناء عليها وإشعال السرج عندها تحذيرا شديدا من حامي

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٥٠)
حمى الدين النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – ؛ ولأن هذا الصنيع خطوة للوثنية .

(١٩٧/١)

النظرية الثانية
تركيز : النشاط الإنساني للقيام بأداء الشعائر الإسلامية المفروضة بكل دقة دون زيادة أو نقص فالصلاة والزكاة والصوم والحج والأذان وغير ذلك من شرائع الإسلام ، التي جاءت بها شريعة السماء عن طريق رسول الإسلام النبي محمد – صلى الله عليه وسلم .
وكل ذلك يجب عدم الإخلال به كفريضة ، ويجب الانصياع إليه عن طيب نفس واقتناع واستسلام تام وإذعان شامل بحيث تعتقد القلوب وجوب الإيمان بهذه الشعائر وبحيث تعمل الجوارح على أدائها دون ضجر أو ملل وسآمة .

(١٩٨/١)

النظرية الثالثة :
إقامة : الحدود التي فرضتها شريعة السماء على المخالفات التي تصدر من بعض أفراد الجماعة الإسلامية ، كعقوبة زاجرة ، أو كضمان لحفظ التوازن ، وصيانة الحقوق الفردية ، وتقويم المعوج من الأخلاق ، والترفع عن الرذيلة في كل مجالاتها – فالمجترئ على سفك الدم الحرام يقتل إذا ثبتت إدانته – والذي يعتدي على الغير ويسرق المال تقطع يده إذا ثبتت إدانته ، واستوفيت شروط القطع . والخيانة الزوجية في شتى ملابساتها ترتفع فيها العقوبة لدرجة الرجم بالحجارة وتنخفض فيكتفى فيها بالضرب البسيط مع الاعتقال أو بدونه ، حسب مقياس الجرم وبقدر ثبوت الإدانة ، وهكذا كل مخالفة رتبت عليها الشريعة الإسلامية عقوبة يجب أن تطبق العقوبة بكل دقة ، ويستوي في تطبيقها الشريف والوضيع والأمير والمأمور دون فرق أو محاباة .

(١٩٩/١)

ذلك لأن الناس سواسية كأسنان المشط لا فرق في نظر العدالة بين أبيض وأسود ولا بين شريف ووضيع وتلك هي تعاليم رسول الإسلام محمد – صلى الله عليه وسلم – فقد قطع يد امرأة شريفة في سرقة سرقتها رغم الوساطات المتكررة لديه ، والشفاعات في قضيتها من أحب الناس إليه ، بل قال : للشفعاء صحيح البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٨٨)،صحيح مسلم الحدود (١٦٨٨)،سنن الترمذي الحدود (١٤٣٠)،سنن أبو داود الحدود (٤٣٧٣)،سنن ابن ماجه الحدود (٢٥٤٧)،مسند أحمد بن حنبل (١٦٢/٦)،سنن الدارمي الحدود (٢٣٠٢). لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها على هذه النظريات الثلاث قام البرنامج الإصلاحي لحركة التجديد في القرن الثاني عشر هـ ١٨ م ، أما النظرية المذهبية فلم تكن للمصلح نظرية مستقلة ينفرد بها عن نظريات أئمة المذاهب المعترف بها لدى الجماعة الإسلامية ، فهو محتضن مذهب الإمام أحمد بن حنبل رابع الأئمة المتبوعين والمشهور بإمام أهل السنة ؛ لأن مذهبه يرتكز على الأدلة النقلية من (القرآن) أو على أحاديث رسول الإسلام المدونة الصحيحة والمجموعة في أشهر كتب الحديث – فالشيخ في هذه الناحية متبع لا متبوع ومنتسب لا ينسب إليه أحد .

أما الوهابية المزعومة فهي صفة وصف بها كل من يدين بالدين الصحيح ، والغرض منها تضليل الرأي

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٥١)

العام والتلبيس على ضعاف التفكير وحجب الحقيقة عن الظهور ، فقد وصف بهذه الصفة ابن تيمية وهو مصلح القرن السادس هـ – ١٢ م – وهو يبعد كثيرا عن عهد حركة الإصلاح في القرن الثاني عشر ، ووصف بها كل مصلح يقوم بعملية التطهير ودفع الزيف عن الإسلام لمجرد التنفير منه واعتباره صاحب نظريات متطرفة تناهض الإسلام .

١ – تفاعل النفوس مع دعوة الشيخ في البلاد السعودية .

٢ – تأثر بعض البلدان بها خارج الجزيرة .

(٢٠٠/١)

أما تفاعل النفوس مع دعوة الشيخ فالحديث عنه طويل مديد وقصارى ما يمكن أن يقال عن ذلك : أن ما كان بالأمس خيالا لا يصدق به ، أصبح بعد نجاح حركة الإصلاح وفي أخريات أيام المصلح وفي عهد الحكام المتعاقدين من آل سعود وعلى يد خلفاء المصلح أصبح حقيقة واقعة فلم يكن أحد يحلم أن تعود للإسلام جدته ، وتزاح عنه الأضاليل ويطهر من البدع ، ثم تقام الشعائر الإسلامية في طول البلاد التي شملتها حركة الإصلاح كما كانت في عهد رسول الله – عليه السلام – وعهد خلفائه الراشدين ، ومن تلك البلاد مكة المكرمة التي يحج إلى بيت الله فيها كل عام مئات

الألوف من المسلمين من أقاصي الدنيا ، والمدينة التي تضم قبر النبي محمد – صلى الله عليه وسلم . – وما ذاك إلا أثر من آثار تفاعل النفوس مع دعوة الشيخ وهضم التعليمات الإسلامية التي قام بنشرها بعد دروسها وإهمال الكثير منها ، وما كان يجول في تفكير أحد أن هذه الحركة سوف تتأثر بها الأوساط الإسلامية خارج الجزيرة فتقوم في مصر والهند وإندونيسيا وغيرها من أقاصي البلاد تقوم جمعيات إسلامية تدعو إلى دعوة الشيخ باسم العقيدة السلفية نسبة إلى السلف في صدر الإسلام ومن تبعهم على نهجهم – يقول المؤرخ الأمريكي لوثروب صاحب كتاب حاضر العالم الإسلامي (قد استطاع الوهابيون أن يبذروا بذورا تلاها الاختصار الشديد للثورة الوهابية في كل فج إسلامي حتى بلغت دعوتهم الدينية أقصى المعمور) .

وهكذا استمر التفاعل مع دعوة الشيخ حتى غدت المبدأ الثابت الذي لا يتزعزع بعد أن كانت منبوذة مقهورة يعتبرها دعاة الرجعية آراء متطرفة ، وأصبحت العقيدة الراسخة التي لا تنفك عن القلوب ، وأخذت الأيدي تعمل لنشرها والجهود تتضافر على إذاعتها عن طريق وسائل الإعلام ، وتغذية الأطفال بها منذ نعومة أظفارهم في شكل مقررات تدرس في المدارس ويحتضنها الشباب كدين ، وليتحصن بها من أعاصير الباطل ومن المبادئ الهدامة الخطرة .

(٢٠١/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٥٢)

آراء بعض المستشرقين في حركته الإصلاحية

قال المؤرخ الأمريكي لوثر ستودارد صاحب كتاب حاضر العالم الإسلامي :

(. . . فالدعوة الوهابية إنما هي دعوة إصلاحية خالصة بحتة . غرضها إصلاح الخرق ونسخ الشبهات وإبطال الأوهام ونقض التفاسير المختلفة والتعاليق المتضاربة التي وضعها أربابها في عصور الإسلام الوسطى ودحض البدع وعبادة الأولياء ، وعلى الجملة هي الرجوع إلى الإسلام والأخذ به على أوله وأصله ولبابه وجوهره ، أي : أنها الاستمساك بالوحدانية التي أوحي الله بها إلى صاحب الرسالة صافية نقية ، والاهتداء والائتمام بالقرآن المنزل مجردا ، وأما ما سوى ذلك فباطل وليس في شيء من الإسلام) .

وقال وليمز ارمسترونج في كتاب (ابن سعود . . .) : كذلك لما شاع الفساد في بلاد المسلمين قام في جزيرة العرب محمد بن عبد الوهاب يحارب البدع ويدعو إلى جمع الصفوف لإعادة مجد الإسلام وعبادة الله بقلب سليم ولكنه كغيره من المصلحين اضطهد واتهم بالإلحاد والزندقة .

(٢٠٢/١)

كتابات عن الحركة لقادة الفكر في الشرق

قال : الأستاذ أحمد أمين – رحمه الله – زعماء الإصلاح في العصر الحديث – أهم مسألة شغلت ذهنه (يقصد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله) في درسه ورحلاته مسألة التوحيد التي هي عماد الإسلام والتي تبلورت في (لا إله إلا الله) والتي تميز الإسلام بها عما عداه والتي دعا إليها محمد – صلى الله عليه وسلم – وأصدق دعوة وأحرها فلا أصنام ولا أوثان ولا عبادة آباء وأجداد ولا أحجار ولا نحو ذلك ، ومن أجل هذا سمي هو وأتباعه أنفسهم (بالموحدين) أما اسم الوهابية فهو اسم أطلقه عليهم خصومهم واستعمله الأوروبيون ثم جرى على الألسن .

وقال الدكتور طه حسين في كتابه – الحياة الأدبية في جزيرة العرب – : إن هذا المذهب جديد وقديم معا . والواقع أنه جديد بالنسبة إلى المعاصرين ولكنه قديم في حقيقة الأمر ، لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية . هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي – صلى الله عليه وسلم – خالصا لله وحده ملغيا لكل واسطة بين الله والناس .

هو إحياء للإسلام وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب فقد أنكر محمد بن عبد الوهاب على أهل نجد ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية في العقيدة والسيرة .

(٢٠٣/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٥٣)

مراجع عن الحركة

الكتب ... إيضاحات

* ... روضة الأفكار والأفهام ... لحسين بن غنام وهو أقدم كتاب وأصح مرجع لحياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد كان مؤلفه من تلامذة المصلح وممن شاهد كثيرا من الحوادث .
* ... عنوان المجد في تاريخ نجد ... لعثمان بن بشر النجدي وقد أدرك المؤلف أولاد المصلح .
* ... مثير الوجد في معرفة أنساب ملوك نجد ... لرشيد بن علي الحنبلي وقد أشار المستشرق " كارلمان " في دائرة المعارف الإسلامية إلى هذا الكتاب .
* ... البدر الطالع ... لمحمد بن علي الشوكاني اليمني الزبيدي .
* ... تاريخ نجد ... للألوسي .
* ... حاضر العالم الإسلامي ... للوثر ستودارد الأمريكي .

* ... الدعوة الوهابية ... لعبد الله بن علي القصيمي .
* ... الوهابيون والحجاز ... للسيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار .
* ... تاريخ نجد ... لأمين الريحاني .
* ... جزيرة العرب في القرن العشرين ... للشيخ حافظ وهبه .
* ... قلب الجزيرة ... لفؤاد حمزة .
* ... أثر الوهابية في جزيرة العرب ... للأستاذ حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة بمصر .
* ... زعماء الإصلاح ... للأستاذ أحمد أمين .
* ... الحياة الأدبية في جزيرة العرب ... للدكتور طه حسين .
* ... إتحاف النبلاء ... لصديق حسن خان (باللغة الفارسية) .
* ... رحلة نيبور ... (الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٥٤)

وهو أول رحالة أوروبي تعرض لحركة المصلح ورحلته أقدم مصدر أوروبي عن تاريخ المصلح إلا أنها لا تخلو من بعض الأخطاء لأنه استقى معلوماته من كتب الأولين .

* ... رحلة باديا ... وهو أول رحالة أوروبي تكلم عن حركة الوهابية في نجد وعن عاصمتهم الدرعية بإسهاب .
* ... رحلة بوركهات ... كتب هذا الرحالة بحثا جغرافيا مفصلا عن نجد وبلدة الدرعية وإقليم العارض .

(٢٠٤/١)

---

* ... مختصر تاريخ الوهابية ... لهارفورد جون برجس وهو ضابط بريطاني وقد وصل إلى بلاد العرب في حياة المصلح واستطاع أن يشاهد فتوحات سعود بن عبد العزيز عن كثب .
* ... مستقبل الإسلام ... ل ولفود .
* ... قاموس الإسلام ... لتوماس ب . وهذا المؤلف مبشر بروتستاني .
* ... الجزيرة مهد الإسلام ... لزويمر وقد حاول فيه رغم تعصبه فهم حقيقة الدعوة التي قام بها الشيخ فوصف حالة العرب في الجزيرة قبل الدعوة وصفا دقيقا .
* ... اختراق الجزيرة العربية ... لداود جورج .
* ... البلاد العربية ... مستر فلبي .
* ... مقالة مورت مان ... مستشرق ألماني وردت مقالته في دائرة المعارف الإسلامية .
* ... مركز العرب في الشمس ... ريتشارد كوك

.

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٥٥)

كتب صنفها الشيخ رحمه الله وأبناؤه وأحفاده

الكتب ... إيضاحات

* كتاب الأصول الثلاثة ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* كتاب كشف الشبهات ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* كتاب التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* رسالة رسائل الجاهلية ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* رسالة تفسير كلمة التوحيد ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* رسالة الأربع القواعد في الدين ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* رسالة في معنى الطاغوت ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* كتاب مجموعة الحديث على أبواب الفقه ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* مختصر الشرح الكبير والأنصاف ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* كتاب السيرة المطولة ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* كتاب مختصر الهدي النبوي ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* أربع رسائل في الأحكام العملية والردة وبعض فوائد التفسير ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* تفسير سور أجزاء من القرآن ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* رسالة فوائد الفاتحة ... للمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب
* رسالة أصل دين الإسلام ... للشيخ عبد الرحمن بن حسن حفيد المصلح
* كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ... للشيخ عبد الرحمن بن حسن حفيد المصلح .
* قرة عيون الموحدين تعليقات على كتاب التوحيد ... للشيخ عبد الرحمن بن حسن حفيد المصلح .
* كتاب الكلمات النافعة ... للشيخ عبد الله بن الشيخ محمد
* رسالة أوثق عرى الإيمان ... للشيخ سليمان بن عبد الله حفيد الشيخ .
* رسالة أنواع التوحيد وأنواع الشرك ... للشيخ عبد الرحمن بن حسن حفيد الشيخ .
* رسالتان في معنى كلمة التوحيد ... للشيخ عبد الله بن بطين من علماء نجد .

* أربعة مجلدات ضخمة تسمى مجموعة الرسائل والمسائل النجدية تجمع أصنافا من الرسائل في العقائد والفقه والفتوى وغير ذلك . ... وهي لجماعة من المؤلفين بما فيهم الشيخ وأبناؤه وأحفاده وتلامذتهم .

(٢٠٧/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٥٦)

سورة يونس الآية ١٠٦

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ

(٢٠٨/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٥٧)

عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة

المفتي في الشريعة الإسلامية

لا : يخلو أي عصر من العصور – مهما كان ما يسير عليه من أنظمة دينية وسياسية واقتصادية ، وغيرها من ظواهر اجتماعية : تبرز في محيطه ، ويكون لها الأثر القوي في سلوكه ، والهيمنة الكاملة في توجيه طاقاته نحو ما يعود عليها بالخدمة ، للحفاظ عليها وتنميتها إن كانت ظواهر محمودة ، وبإزالتها إن كان يمكن ذلك – أو إيجاد ما قد يحد من خطرها – حين لا يمكن ذلك – إن كانت ظواهر سيئة .

والباحث النابه يكون واجبه تجاه ذلك ، ملاحقة تلك الظواهر ، والتحدث فيها ، والمشاركة في بحثها على النحو الملائم لها ، شأنه في ذلك شأن الطبيب الماهر الذي يتتبع الأمراض البدنية ليطبق عليها ما جد في دنيا الطب من علاج ، ويعصر ذهنه بالمقارنة والتجربة لما لم يجد له قبل ذلك نظيرا ، ويتتبع الظواهر الصحية ، فيهديها لمجتمعه ، ويعين على تنميتها إلى أرفع مستوى يستطيع الوصول إليه بها .

ومن هذه الظواهر الاجتماعية غير المحمودة ، التي برزت في المجتمعات الإسلامية في هذا العصر ، الجهل بكثير من أحكام دينها ، حتى صار كثير من الناس يسير في أمور دينه على غير

هدى ، وصار الحصيف فيهم من يسأل العلماء عما يحتاج إليه في ذلك .
ومن هنا برزت قضية الفتوى من العالم للجاهل ، علاجا لتلك الظاهرة ، أو مواجهة لها بما قد يحد من آثارها على المتصف بها .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٥٨)

(٢٠٩/١)

غير أن هذا العلاج – وإن كان هو العلاج الوحيد لهذه الظاهرة – لم يسر سيره الذي ينبغي أن يسيره في كثير من الشعوب الإسلامية ؛ حيث تصدى للفتوى كثير ممن لا تتوفر فيهم شروط المفتي ، ولا تكتمل فيهم كثير من الأمور التي ينبغي لمن نصب نفسه لهذا المنصب أن يتفطن لها ، وذلك ناتج في كثير من الأحوال عن قلة من هو أهل لهذا المنصب ، وانغماره في خضم هذه الأمواج الهائلة من الجهلة بأحكام دينها ؛ وحب كثير ممن شدا بقسط قليل من العلم للظهور والتبوء للمكان الذي لم يتأهل بعد لأن يتسنم ذروته .
ومن أجل ذلك كله آثرت أن يكون هذا البحث متناولا للمفتي في الشريعة الإسلامية .
ولن يخفى على رواد هذا الميدان أن الإلمام به ، والتعمق في جزيئاته – في بحث قصير كهذا – بعيد ، إن لم يكن مستحيلا .
لذا فإنني سأقتصر فيه على :
التعرف على المفتي .
أقسام المفتين .
منزلة المفتي في الشريعة الإسلامية .
شروط من يتصدى لهذا المنصب العظيم .
وجملة أمور مما ينبغي له أن يتفطن لها حينما يمارس الفتوى ، وأختمه بخاتمة ألخص فيها ما أنتهي إليه من نتائج ، مذيلة باقتراحات تهدي إليها تلك النتائج ، وتؤكد ضرورتها ، سائلا الله (سبحانه) أن يمدني بعونه فيما أترسمه من خطوات ، وإلهامه فيما أقرره من حقائق ، وتوفيقه فيما أصل إليه من نتائج ومقترحات .

(٢١٠/١)

تعريف المفتي

الحروف : الأصلية التي قامت عليها هذه الكلمة ، هي الفاء ، والتاء ، والحرف المعتل ، ولها مدلولان :

أحدهما : الطراوة والجدة ، والآخر : تبين الحكم ، والذي يناسب هذه الكلمة في موضوعنا المدلول الأخير ، وإذن فالمفتي اسم فاعل على وزن " مفعل " مشتق من الإفتاء بمعنى الإبانة ، يقال : " أفتاه في

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٥٩)

الأمر ، أبانه له " الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، مصر ، مطبعة السعادة سنة ١٣٣٢ هـ مادة " الفتاء " ويقال : " أفتى الفقيه في المسألة ، إذا بين حكمها " ابن فارس ، المصدر السابق مادة " فتى " . .

وأما في الإصلاح ، فقد اختلف العلماء في تعريفه على آراء أهمها :

١ – أن المفتي هو المجتهد المطلق ، وهو الفقيه ، على حد تعبير صاحب " تحرير الكمال " محمد علي بن حسين ، تهذيب الفروق ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، ط أولى سنة ١٣٤٤ هـ ٢ / ١١٦ ، ولهذا يقول " الصيرفي " المصدر نفسه والصفحة نفسها : إنه " موضوع لمن قام للناس بأمر دينهم ، وعلم جمل عموم القرآن ، وخصوصه ، وناسخه ومنسوخه ، وكذلك في السنن والاستنباط ، ولم يوضع لمن علم مسألة وأدرك حقيقتها " ويقول " ابن السمعاني " المصدر نفسه ص ١١٦– ١١٧ : " هو من استكمل فيه ثلاثة شروط : الاجتهاد ، والعدالة ، والكف عن الترخيص والتساهل . وللمتساهل حالتان : إحداهما : أن يتساهل في طلب الأدلة وطرق الأحكام ، ويأخذ ببادئ النظر وأوائل الفكر ، وهذا مقصر في حق الاجتهاد ، ولا يحل له أن يفتي ولا يجوز . والثانية : أن يتساهل في طلب الرخص وتأول السنة ، فهذا متجوز في دينه ، وهو آثم من الأول " .

---

٢ – ويذهب بعض العلماء إلى أن المفتي يكفي فيه أن يكون متبحرا في مذهب إمامه ، فاهما لكلامه ، عالما لراجحه من مرجوحه ، خبيرا بالمرجوع عنه من المرجوع إليه ، فلا يشترط فيه أن يكون مستطيعا لاستنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية ، ولا متبحرا في الكتاب والسنة ، عالما بوجوه مباحثهما .

وقد أيد أصحاب هذا القول كلامهم بأن اشتراط الاجتهاد المطلق في المفتي ، يفضي إلى حرج عظيم ، واسترسال الخلق في أهوائهم ابن السبكي ، توشيح الترشيح ، اقتبسه محمد علي بن حسين في كتابه (الفروق) ٢ / ١١٧ ، ثم إن المفتي حينما يكون متبحرا في مذهب إمامه يكون ذلك كافيا ؛

حيث إنه يغلب على ظن العامي أنه حكم الله عنده المصدر نفسه والصفحة نفسها ، والقضاء –وهو مركز عظيم – قد أطبق الناس فيه على تنفيذ أحكام من تولاه دون مراعاة لحصول شرط الاجتهاد فيه المصدر نفسه والصفحة نفسها ، فليكن للمفتي ما للقاضي من حيث عدم اشتراط الاجتهاد فيه ، بل إنه قد انعقد الإجماع على جواز الإفتاء لمن يتوفر فيه هذا الشرط ، فقد قال الشيخ " تاج الدين السبكي المصدر نفسه والصفحة نفسها " : " وقد انعقد الإجماع في زماننا على هذا النوع من الفتيا " .

وإذا أضفنا إلى ما تقدم ما يحدثنا به التاريخ من أن أناسا برزوا في العصور الزاهية للإسلام وملأوا الدنيا بعلومهم وآرائهم الصائبة ، وادعوا الاجتهاد المطلق تبعا لذلك ، ومع ذلك لم يسلم لهم أهل عصرهم به ،

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٦٠)

وإذا أضفنا – أيضا – إلى ذلك ، ما نشاهده في واقع الأمة الإسلامية ، من كثرة الجهل بأحكام الدين في كثير من أفرادها ، وكثرة المشاغل التي تنتاب الفئة المتخصصة في أحكام الشريعة الإسلامية مما قد يحول بينهم وبين الوصول إلى درجة الاجتهاد المطلق في أحكام شريعتها ، إذا أضفنا ذلك كله إلى ما تقدم ، تبين لنا أنه لا يشترط لمن يتبوأ هذا المنصب أن تتوفر فيه صفة الاجتهاد المطلق .

(٢١٢/١)

ولعل من نافلة القول أنه جاز لمن هذه صفته أن يتصدى للفتيا ، فإنه يجوز بالأولى لمن كان مجتهدا مطلقا ، أو مجتهدا مقيدا في مذهب من ائتم به " بأن يعرف قواعده ، وتفصيل مذهبه ، ويقوى على استخراج الأحكام فيما لم ينص عليه إمامه ، مراعيا قواعد إمامه ، وعلى ترجيح قول على آخر داخل المذهب ، حينما يجهل المتقدم منها من المتأخر " شيخنا الشيخ (عبد الرزاق عفيفي) ، من أماليه ، كان يقرر لنا هذه القضية .

ولهذا نرى الإمام " ابن القيم " (المتوفى سنة ٧٥١ هـ رحمه الله) أعلام الموقعين ، ت محي الدين عبد الحميد ، مصر مطبعة السعادة ط أولى ١٣٧٤هـ ٤ / ٢١٢-٢١٤ – حين تحدث عمن يجوز لهم أن ينتصبوا للفتيا ، ويجوز للعامة أن يتجهوا إليهم بالأسئلة عن أحكام دينهم – يقسمهم إلى أربعة أقسام :

أحدهم : العالم بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وأقوال الصحابة ، فهو المجتهد في أحكام النوازل ، يقصد فيها موافقة الأدلة الشرعية حيث كانت ، ولا ينافي اجتهاده تقليده لغيره أحيانا . فلا تجد أحدا من الأئمة إلا هو مقلد من هو أعلم منه في بعض الأحكام . . .

النوع الثاني : مجتهد مقيد في مذهب من ائتم به ، فهو مجتهد في معرفة فتاويه وأقواله ومأخذه وأصوله ، عارف بها ، متمكن من التخريج عليها ، وقياس ما لم ينص من ائتم به عليه على منصوصه ، من غير أن يكون مقلدا لإمامه لا في الحكم ولا في الدليل ، لكن سلك طريقه في الاجتهاد والفتيا ، ودعا إلى مذهبه ، ورتبه ، وقرره ، فهو موافق له في مقصده وطريقه معا . . .

النوع الثالث : من هو مجتهد في مذهب من انتسب إليه ، مقرر له بالدليل ، متقن لفتاويه ، عالم بها ، لكن لا يتعدى أقواله وفتاويه ، ولا يخالفها إذا وجد نص إمامه لم يعدل عنه إلى غيره ألبتة . . .

(٢١٣/١)

النوع الرابع : طائفة تفقهت في مذهب من انتسبت إليه ، وحفظت فتاويه وفروعه ، وأقرت على أنفسها بالتقليد المحض من جميع الوجوه ، فإن ذكروا الكتاب والسنة يوما في مسألة ، فعلى وجه التبرك والفضيلة ، لا على وجه الاحتجاج والعمل ، وإذا رأوا حديثا صحيحا مخالفا لقول من انتسبوا إليه ، أخذوا بقوله ،

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٦١)

وتركوا الحديث ، وإذا رأوا أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وغيرهم من الصحابة (رضي الله عنهم) قد أفتوا بفتيا ، ووجدوا لإمامهم فتيا تخالفها ، أخذوا بفتيا إمامهم ، وتركوا فتاوى الصحابة قائلين : الإمام أعلم بذلك منا ، ونحن قد قلدناه ، فلا نتعداه ولا نتخطاه ، بل هو أعلم بما نذهب إليه منا ، ومن عدا هؤلاء ، فمتكلف متخلف ، قد دنا بنفسه عن رتبة المشتغلين ، وقصر عن درجة المحصلين ، فهو مكذلك مع الهكذلكين ، وإن ساعد القدر واستقل بالجواب ، قال : يجوز بشرطه ، ويصح بشرطه ، ويجوز ما لم يمنع منه مانع شرعي ، ويرجع في ذلك إلى رأي الحاكم ، ونحو ذلك من الأجوبة ، التي يستحسنها كل جاهل ، ويستحي منها كل فاضل " .

(٢١٤/١)

منزلة المفتي

والإفتاء : منصب عظيم ، به يتصدى صاحبه لتوضيح ما يغمض على العامة من أمور دينهم ، ويرشدهم إلى المناهج المستقيمة ، التي في سلوكهم لها فلاحهم ونجاحهم ، ولهذا سموا أولي الأمر ، وأمر الناس بطاعتهم بل قرنت طاعتهم بطاعة الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) حيث يقول الله

تعالى : سورة النساء الآية ٥٩ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ . بل هو المنصب الذي تولاه الله (سبحانه) بنفسه حيث يقول (تعالى) : سورة النساء الآية ١٢٧ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ، ويقول أيضا : سورة النساء الآية ١٧٦ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، وكفى بهذا المنصب عظما وجلالة أن يتولاه رب السماوات والأرض ، وكفى بمن يتولاه شرفا ومنزلة عالية أن يكون نائبا عن الله في هذا المنصب ابن القيم ، أعلام الموقعين ١ / ١١ والمفتي – أيضا – قائم مقام النبي (صلى الله عليه وسلم) في وراثته لعلم الشريعة منه (صلى الله عليه وسلم) ، وإبلاغها للناس ، وتعليمها للجاهل بها ، والإنذار بها .

(٢١٥/١)

فأما قيامه مقامه (صلى الله عليه وسلم) في وراثة الشريعة ، فيدل له قوله (صلى الله عليه وسلم) فيما رواه عنه أبو داود والترمذي بسنديهما : سنن أبو داود العلم (٣٦٤١)،سنن الدارمي المقدمة (٣٤٢). إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، ولكن ورثوا العلم ، وما رواه عنه البخاري ومسلم بسنديهما : صحيح البخاري العلم (٨٢)،صحيح مسلم فضائل الصحابة (٢٣٩١)،سنن الترمذي الرؤيا (٢٢٨٤)،مسند أحمد بن حنبل (١٤٧/٢)،سنن الدارمي الرؤيا (٢١٥٤). بينا أنا نائم ، أتيت بقدح من لبن فشربت حتى أني لأرى الري يخرج من أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب ، قالوا : فما أولته يا رسول الله ؟ قال : العلم ، وقال الله (تعالى) :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٦٢)

سورة التوبة الآية ١٢٢ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .

وأما قيامه مقامه (صلى الله عليه وسلم) في إبلاغها للناس ، وتعليمها للجاهل ، فيدل له قوله (صلى الله عليه وسلم) فيما رواه البخاري بسنده : صحيح البخاري العلم (١٠٥)،صحيح مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (١٦٧٩)،مسند أحمد بن حنبل (٣٧/٥). ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وما رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي أنه (صلى الله عليه وسلم) قال : صحيح البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٧٤)،سنن الترمذي العلم (٢٦٦٩)،مسند أحمد بن حنبل (١٥٩/٢)،سنن الدارمي المقدمة (٥٤٢). بلغوا عني ولو آية ، وما رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس ، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : سنن أبو داود العلم (٣٦٥٩)،مسند أحمد بن حنبل (٣٢١/١). تسمعون ، ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم .

وأما قيامه مقامه (صلى الله عليه وسلم) في الإنذار بها ، فيدل له قول الله (تعالى) : سورة هود الآية ١٢ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ مع قوله (تعالى) : سورة التوبة الآية ١٢٢ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ .

وبهذا يتضح لنا ما للمفتي في الشريعة الإسلامية من منزلة عظمى ، حيث كان يتبوأ مقام النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما قدمناه من أمور ، ويخبر عن الله (سبحانه) ، ويوقع شريعته على أفعال المكلفين ينظر الشاطبي ، الموافقات ، ت عبد الله دراز ، مصر ، المطبعة الرحمانية ، ٤ / ٢٤٤- ٢٤٦ . .

شروط المفتي

يشترط العلماء في المفتي بمعناه الاصطلاحي – الذي رجحناه فيما مضى – شروطا كثيرة ، وأهمها ما يأتي :

١ – الإسلام : فلا يمكن لأحد أن يتبوأ منصب الإفتاء إلا حين يكون مسلما ، وهذا الشرط مما أجمع الناس عليه أحمد بن حمدان الحراني ، صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ، مشق ، نشر المكتب الإسلامي ط أولى ، ص١٣ ؛ إذ أنه يخبر عن الله ، وينوب عن رسوله (صلى الله عليه وسلم) ويتلقى الناس ما يقوله على أنه دين الله (تعالى) ، ولا يتصف بذلك إلا من كان مسلما .

٢ – التكليف : وذلك بأن يكون المتولي لهذا المنصب بالغا عاقلا ، وهذا الشرط مما أجمع عليه أيضا المصدر نفسه والصفحة نفسها ، فإن الصبي لا حكم لقوله في مثل هذا ، والمجنون مرفوع عنه القلم ، فلا يتسنى له أن يحتل مكانة الإفتاء .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٦٣)

٣ – العلم : وهو شرط أساسي لمن تقلد هذا المنصب ؛ إذ أنه مبلغ عن الله أحكامه ، ولا يبلغ عنه من جهل أحكامه ، ولهذا يروي الخطيب البغدادي (المتوفى سنة ٤٦٢ هـ) بسنده الفقيه والمتفقه ، مطابع القصيم ، سنة ١٣٨٩ هـ ، ٢ / ١٥٥ أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : من أفتى بغير علم لعنته الملائكة ، ويروى أيضا المصدر نفسه ، والصفحة نفسها . أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : سنن ابن ماجه المقدمة (٥٣)،سنن الدارمي المقدمة (١٥٩). من أفتى بفتيا بغير ثبت ، فإنما إثمه على من أفتاه .

(٢١٨/١)

---

٤ – العدالة : في الأقوال والأفعال وذلك بأن يكون مستقيما في أحواله ، محافظا على مروءته ، صادقا فيها بقوله ، موثوقا به ، ويفسر لنا الشيخ " أحمد بن حمدان الحراني الحنبلي " صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ، ص ١٣ (المتوفى سنة ٦٩٥ هـ) المتصف بالعدالة ، فيقول : " والعدل من استمر على فعل الواجب والمندوب والصدق وترك الحرام والمكروه والكذب ، مع حفظ مروءته ومجانبة الريب والتهم . . . " وهذا الشرط قد دل عليه الإجماع ؛ حيث إن المفتي يخبر عن الله (تعالى) بحكمه ، ولا يكون ذلك إلا لمن اتصف بالعدالة المصدر نفسه – والصفحة نفسها ، ثم إن " علماء المسلمين لم يختلفوا في أن الفاسق غير مقبول الفتوى في أحكام الدين ، وإن كان بصيرا بها " كما صرح بذلك الخطيب البغدادي الفقيه والمتفقه ، ٢ / ١٥٧ وأما حين تظهر عليه صفة " العدالة " ، لكن باطنه مجهول في ذلك ، فلعلمائنا (رحمهم الله) قولان في وصفه بالعدالة أو عدم وصفه بها أظهرهما عدم وصفه بها صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ص١٣ .

(٢١٩/١)

---

٥ – حسن الطريقة ، وسلامة المسلك ، ورضا السيرة : فلا بد لمن تقلد هذا المنصب أن يتصف بذلك ، فيكون حسن الطريقة ، سليم المسلك ، مرضي السيرة ، حتى يثق الناس بأقواله ، ويقبلوا ما يقوله لهم ؛ حيث إنهم يتلقون منه أمورا هي أعظم شيء في نفوسهم ، وهي أحكام الدين ، ومن المعلوم أنهم لا يتلقون ذلك إلا ممن تحروا فيه هذه الأوصاف ، وأما من يتحلى بها ، فهم يعرضون عنه مهما كانت درجته الكبرى في الناحية العلمية ، لذلك نرى الإمام القرافي (المتوفى سنة ٦٨٤ هـ) يؤكد هذا الشرط ويوضحه أتم إيضاح حيث يقول " وينبغي للمفتي أن يكون . . . حسن السيرة . . . ويقصد بجميع ذلك التوسل إلى تنفيذ الحق وهداية الخلق ، فتصير هذه الأمور كلها قربات عظيمة ، وإليه الإشارة بقوله (تعالى) حكاية عن إبراهيم (عليه السلام) : سورة الشعراء الآية ٨٤ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . قال العلماء :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٦٤)

معناه ، ثناء جميل ، حتى يقتدي بي الناس . . "

٦ – الورع والعفة عن كل ما يخدش الكرامة ، والحرص على استطابة المأكل :

(٢٢٠/١)

فحري بمن انتصب لهذا الأمر العظيم ألا يقوم به حق القيام إلا حين يكون متصفا بالورع ، جاعلا نصوص الوعيد والتهديد لمن خالف أوامر الله بين عينيه ، وحري به ألا يقوم به حق القيام إلا حين يكون عفيفا عما في أيدي الناس ، وعما يعتبر في عرفهم من صفات الدناءة والضعة ، وإلا حين يكون حريصا أشد الحرص على أن يكون مكسبه حلالا ، وطرق معاملته مع الناس قائمة في أصولها وفروعها على وفق منهج الله ، وفي حدود ما رسمه في شرعه ، وأن يكون مأكله حلالا خالصا ؛ بأن يكون قد عرف طرق حصوله وأيقن بحلها ؛ فهذه صفات لا بد من حصولها في المفتي كي يوفق في أداء رسالته ؛ إذ أن من لا يتورع عن الشبهات ، ولا يعف عما في أيدي الناس ، ولا يرعى العرف في تقويم الأمور وتنزيلها منازلها ، من حيث الإقدام عليها ، أو الإحجام عنها ، ولا يحرص على أن يكون ما يتناوله طيبا وحلالا خالصا ، إن من لا يرعى ذلك كله حري به ألا يوفق فيما يفتي به ، وألا يصيب حكم الله فيما يسأل عنه ، وألا يسمع منه حين يفتي ، ولا يستجاب لقوله حين يقول ، ولهذا نرى الخطيب البغدادي الفقيه والمتفقه ، ٢ / ١٥٨ يؤكد اشتراط هذه المعاني ، فيقول في معرض ذكره لما يشترط في المفتي : " وينبغي أن يكون المفتي . . . حريصا على استطابة مأكله ، فإن ذلك أول أسباب التوفيق ، متورعا عن الشبهات " . ويتابعه القرافي (رحمه الله) الأحكام في تمييز الفتاوي عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام ، ص ٢٧٤ في ذلك فيقول : " . . . وأن يكون (المفتي) قليل الطمع ، كثير الورع ، فما أفلح مستكثر من الدنيا ، ومعظم أهلها وحطامها " .

٧ – رصانة الفكر وجودة الملاحظة ، والتأني في الفتوى ، والتثبت فيما يفتي به :

فهذه صفات يلزم وجودها فيمن يتصدى للفتيا ؛ إذ أن من كان ناقصا في فهمه ، أو متصفا بالغفلة ، أو معروفا بالعجلة في فتواه والتسرع بالإجابة عما يسأل عنه – دون أن يتثبت من ذلك – إذ أن من كانت أوصافه كذلك ، قد فقد أول أسباب التوفيق ، وحري بمن فقد أولها ألا يحالفه الحظ في وجدان آخرها ، وألا ينال في آخر المطاف غايته التي قصدها الخطيب البغدادي ، الفقيه والمتفقه ، ٢ / ١٥٨ .

٨ – طلب المشورة من ذوي الدين والعلم والرأي :

وهذا شرط مأخوذ من عمومات الشريعة في غير موضوع الفتوى ، ومما درج عليه السلف الصالح فيها ، حيث كانوا يستشيرون حين تعرض لهم المشكلة ، أو يسألون عنها ، ودليل ما نقوله أن الله (

سبحانه وتعالى) أثنى على المؤمنين ؛ حيث كان أمرهم شورى بينهم ، وأمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) بأن يشاورهم في الأمر ، وما كان من شأن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، حيث كانت المسألة تنزل عليه ، فيستشير فيها من حضر من الصحابة

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٦٥)

بل ربما جمعهم وشاورهم ، حتى كان يشاور ابن عباس (رضي الله عنهما) وهو إذ ذاك أحدث القوم سنا .

وينبغي أن يعلم أن هذا الشرط مقيد بما إذا " لم يعارضه مفسدة ؛ من إفشاء سر السائل ، أو تعريضه للأذى ، أو مفسدة لبعض الحاضرين " ابن القيم إعلام الموقعين ٤ / ٢٥٧ ؛ فإنه إن عارضه ذلك ، فلا ينبغي أن يرتكب ؛ دفعا لتلك المفاسد.

٩ – رؤيته لنفسه بأنه أهل لهذا المنصب ، وشهادة الناس له بالأهلية له :

(٢٢٢/١)

فهذا شرط يورثه اليقين بصلاحيته للفتيا فيمضي فيها ، ويرشحه في نظر العامة لهذا المقام ، فيقدمون عليه يتلقون عنه أحكام دينهم ، وما لم يعزز الإنسان بهذين الوصفين ، فلن يكون صالحا لتبوء هذا المنصب ، ولن يكون موثوقا بما يفتي به ، ولا مقبولا عند العامة في سماع ما يقوله لهم في أمر دينهم ، ولمالك بن أنس (رحمه الله) نصوص تدل لذلك ، فقد ذكر القرافي عنه الفروق ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، ط أولى سنة ١٣٤٤ هـ ٢ / ١١٠ ، أنه قال : " لا ينبغي للعالم أن يفتي حتى يراه الناس أهلا لذلك ، ويرى هو نفسه أهلا لذلك ، يريد تثبت أهليته عند العلماء ، ويكون هو بيقين ، مطلعا على ما قاله العلماء في حقه من الأهلية ؛ لأنه قد يظهر من الإنسان أمر على ضد ما هو عليه ، فإذا كان مطلعا على ما وصفه به الناس ، حصل اليقين في ذلك ، وما أفتى مالك حتى أجازه أربعون محنكا " لأن التحنك هو شعار العلماء ، انظرالمصدر نفسه ، والصفحة نفسها ، كما روى الخطيب البغدادي الفقيه والمتفقه ، ٢ / ١٥٤ بسنده ، أن مالك بن أنس يقول : " ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك " وروى المصدر نفسه ، والصفحة نفسها بسنده أيضا إلى خلف بن عمر – صديق كان لمالك – قال : " سمعت مالكا يقول : " ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني : هل تراني موضعا لذلك ؟ ؛ سألت ربيعة ، وسألت يحيى بن سعيد ، فأمراني بذلك ، فقلت له : يا أبا عبد الله : لو نهوك ؟ قال : كنت أنتهي ؛ لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلا لشيء ، حتى يسأل من هو أعلم منه " .

(٢٢٣/١)

أمور ينبغي للمفتي أن يتفطن لها

هناك أمور كثيرة ينبغي لمن تقلد منصب الإفتاء أن يتفطن لها ، وأن يأخذ نفسه بها ؛ إذ هي لا تقل أهمية عما ذكرناه من الأمور التي تشترط له كي يتقلد هذا المنصب العظيم . ومن العسير جدا أن نلم بها في بحث كهذا – في قصره – ، ولكن حسبنا من ذلك معظمها مما نرى أنه يحتل المكانة الكبرى بالنسبة لغيره .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٦٦)

ومن هنا يمكننا أن نلخصها فيما يأتي :

١ – جمال المظهر وحسن الزي على الطريقة التي تتناسب مع الوضع الشرعي :

وإنما كان هذا الأمر مطلوبا ؛ لأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ولأن الخلق مجبولون على تعظيم الصور الظاهرة ، والمفتي مطلوب منه أن يعمل ما يجعله عظيما في قلوب العامة حتى يقتدوا به ، ويستنيروا بأقواله ، ولهذا كان اتصافه بهذا الأمر قربة لله ينال بها الثواب حيث قصد بذلك التوسل إلى تنفيذ الحق وهداية الخلق القرافي ، الأحكام ، ص٢٧١ ولهذا قال عمر (رضي الله عنه) : " أحب إلى أن أنظر القارئ أبيض الثياب . أي ليعظم في نفوس الناس ، فيعظم في نفوسهم ما لديه من الحق " المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

ويدخل في هذا الأمر اتصافه بالسكينة والوقار ، وظهوره بمظهر الاحتشام والأدب ؛ فإن ذلك مما يؤدي إلى أن يرغب المستمع في قبول ما يقول " الآمدي ، الأحكام في أصول الأحكام ، ٤ / ٢٢٢ ، ومما يكون سببا فيما يقصده من وصول القول الحق إلى العامة وعملهم به .

٢ – البداءة بالنفس في كل خير يفتي به : فذلك أمر مطلوب من المفتي ؛ إذ هو علامة صدقه في فتواه ، وهو السبيل لوضع البركة في قوله ، وتيسير قبوله في نفوس مستمعيه ، ولذا نجد القرآن يعتبر في الصدق مطابقة القول والفعل ، وفي الكذب مخالفته له ، وذلك كقول الله (تعالى) :

سورة الأحزاب الآية ٢٣ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ويقول (تعالى) : سورة التوبة الآية ٧٥ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ سورة التوبة الآية ٧٦ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ سورة التوبة الآية ٧٧ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وقد سلك الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذا المسلك ، فجاءت أقواله مطابقة لأفعاله ، وسيرته ممتلئة بالشواهد لذلك .

ومنها ما أخرجه " مسلم " من أن صحيح مسلم الصيام (١١٠٨). عمر بن أبي سلمة " سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن تقبيل الصائم .
فقال له : " سل هذه (لأم سلمة) فأخبرته أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يفعل ذلك ، فقال : يا رسول الله : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٦٧)

(٢٢٥/١)

فقال له : والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له أبو البركات ابن تيمية ، منتقى الأخبار ، باب "الرخصة في القبلة للصائم إلا لمن يخاف على نفسه " . ، وروى مسلم ، أيضا أنه (صلى الله عليه وسلم) لما نهى عن الربا في خطبة حجة الوداع ، قال : مسند أحمد بن حنبل (٧٣/٥)،سنن الدارمي البيوع (٢٥٣٤). وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب ، وروى الخمسة ابن الديبع ، تيسير الوصول إلى جامع الأصول ، باب "حد السرقة " . ، أنه (صلى الله عليه وسلم) قال صحيح البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٨٨)،صحيح مسلم الحدود (١٦٨٨)،سنن الترمذي الحدود (١٤٣٠)،سنن النسائي قطع السارق (٤٨٩٨)،سنن أبو داود الحدود (٤٣٧٣)،سنن ابن ماجه الحدود (٢٥٤٧)،مسند أحمد بن حنبل (١٦٢/٦)،سنن الدارمي الحدود (٢٣٠٢). حين شفع عنده في حد السرقة : " وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها ، فهذا منه (صلى الله عليه وسلم) ظاهر في المحافظة على مطابقة القول للفعل بالنسبة إليه وإلى قرابته ، وهكذا ينبغي لمن تصدى لأحكام الله من الناس .
كما جاء الشرع ذاما للفاعل بخلاف ما يقول ، فقال الله (تعالى) : سورة البقرة الآية ٤٤ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وقال أيضا – : سورة الصف الآية ٢ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ سورة الصف الآية ٣ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا .

(٢٢٦/١)

ومما ينبغي التنبيه إليه ، أن هذا الأمر يعتبر وجوده أكمل في انتفاع المستفتي ، وقبوله لما يقوله المفتي وليس معناه أنه لا بد من وجوده من أجل صحة الفتوى من الناحية الشرعية ، اللهم إلا إذا سقطت درجة المفتي إلى مرحلة الفسق ، فإنه حينئذ لا تقبل فتواه ؛ لاختلال شرط العدالة فيه ، ولهذا يقول الشاطبي (المتوفى سنة ٧٩٠ هـ) في ذلك الموافقات ، ٤ / ٢٥٦ . : " والمراد بما سقنا

من عدم مخالفة المفتي لما يفتي به ، أن هذا أكمل في الانتفاع ولا يعني هذا عدم صحة الفتوى من الناحية الشرعية ، ما لم ينحط المفتي إلى رتبة الفسق بالمخالفة " .

٣ – معرفة أحوال الناس والتفطن لتصرفاتهم ، واليقظة التامة للطرق التي يسلكونها :

وذلك لينكشف للمفتي مكر بعض المستفتين وخداعهم ، فلا يغتر بظواهر ما يدلون به فيفتيهم تبعا لها ، كما ينبغي له أن يسلك الطريق المستقيم ، فيفتي في القضية حيث ظهر له أنه جوابها ، دون أن يسلك طريقا معوجا ، يحتال به على إسقاط واجب ، أو تحليل محرم ؛ فإن ذلك مكر وخداع ، وقد عاقب الله من فعل ذلك أشد العقاب ، وأحل عليهم لعنته ، وتوعدهم بالنار ، فقد قال (تعالى) :

سورة النمل الآية ٥٠ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ سورة النمل الآية ٥١ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ وفي صحيح مسلم عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : سنن الترمذي البر والصلة (١٩٤١). ملعون من ضار مسلما أو مكر به وقال : لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل وقال : المكر والخديعة في النار .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٦٨)

(٢٢٧/١)

---

٤ – الكف عن النظر في الفتوى حينما يكون مع المستفتي فتوى قد كتبها من لا يصلح لذلك ، وعدم الكتابة معه حينما يكون الأمر كذلك ، ولو كان جواب المفتي له صحيحا ؛ إذ أن في الكتابة معه والحالة هذه تقريرا لصنيعه ، وتساهلا عظيما في شأن الفتوى ؛ حيث يتصدى لها ناقص العلم أو الدين أو غيرهما مما يشترط في المفتي ينظر القرافي ، الأحكام ، ص٢٦٦ . .

٥ – النظر في السؤال والسائل قبل الفتوى ، وعقد المقارنة بين مستوى السؤال من الناحية العلمية ومستوى السائل ، فإن كان السائل على مستوى السؤال ، أجابه المفتي بما يراه الحق ، وإن كان السؤال أعلى مستوى من مستوى السائل من الناحية العلمية ؛ حيث يكون من العوام ، أو يكون السؤال من المعضلات ، أو من دقائق الأمور ، أو متشابه الآيات ، ونحو ذلك مما لا يخوض فيه إلا أكابر العلماء ينظر أمثله لذلك في تعليق الشيخ " عبد الفتاح أبو غده " على القرافي ، الأحكام ص٢٨٣ ، فينبغي للمفتي أن ينظر في حال المستفتي : هل هذا السؤال منه نتيجة شبهة عرضت له ، يريد إزالتها ، أو أن ذلك نتيجة ترف فكري وفراغ وقتي جعلاه يتأمل في أشياء ليس هو من أهلها ؟ فإن كان الأول وجب على المفتي أن يقبل على مستفتيه ويتلطف معه ، ويحاول بقدر ما أمكنه أن يزيل ما اشتبه عليه ، وإن كان الثاني ، فينبغي له أن يمتنع عن إجابته ، بل ينبغي له أن ينكر عليه سؤاله ، ويوجهه نحو ما ينفعه ، ويقول له : " اشتغل بما يعنيك من السؤال عن صلاتك

وأمور معاملاتك ولا تخض فيما عساه يهلكك ؛ لعدم استعدادك له " القرافي ، الأحكام ، ص٢٨٣ .

.

٦ – الشعور بالافتقار إلى الله (سبحانه) في إلهام الصواب ، والدعاء بما يناسب

فينبغي للمفتي أن ينبعث من قلبه شعور صحيح بالافتقار إلى الله في أن يلهمه الصواب ، ويوفقه لطريق الخير ، ويهديه للجواب الصحيح .

(٢٢٨/١)

وحري بمن اتصف بذلك أن يوفقه الله في مراده ، وأن يدله على طريق الخير ، كما ينبغي له – أيضا – أن يدعو بما يناسب المقام ، ومن ذلك الحديث الصحيح .

صحيح مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٧٠)،سنن الترمذي الدعوات (٣٤٢٠)،سنن النسائي قيام الليل وتطوع النهار (١٦٢٥)،سنن أبو داود الصلاة (٧٦٧)،سنن ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٥٧)،مسند أحمد بن حنبل (١٥٦/٦). اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

وقد كان ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨ هـ رحمه الله) كثير الدعاء بذلك ، وكان إذا أشكلت عليه المسائل ، يقول : يا معلم إبراهيم علمني . . . " ابن القيم ، أعلام الموقعين ، ٤ / ٢٥٧ .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٦٩)

٧ – مراعاة العرف والعادة ؛ إذ إن اختلافهما له أثر في اختلاف الحكم القرافي ، الأحكام ، ص٢٤٩ :

وهذا يستوجب من المفتي أن يسأل – أول ما يسأل _ المستفتي – حين يجهل بلده عنها ، وعن عرف أهلها في مثل هذا اللفظ ، وعلى ضوء ذلك يجيب عما سأله " وهذا (السؤال من المفتي) أمر متعين واجب لا يختلف فيه العلماء ، وأن العادتين متى كانتا في بلدين ليستا سواء ، أن حكمهما ليس سواء " المصدر نفسه ، والصفحة نفسها . .

وأما حين يكون اللفظ صريحا في مدلوله من جهة اللغة ، فقد اختلف العلماء في مراعاة العرف في ذلك ، حيث يكون له مدلول غير مدلول اللغة ، فقيل : يقدم المدلول اللغوي للفظ ، وقيل يقدم العرف عليه ، وقد رجح الإمام القرافي المصدر نفسه والصفحة نفسها . تقديم العرف قائلا : " والصحيح تقديمه ؛ لأنه ناسخ ، والناسخ مقدم على المنسوخ إجماعا ، فكذلك هاهنا " .

(٢٢٩/١)

٨ – التريث في الفتوى حين يشتمل اللفظ على بعض الملابسات التي تجعل المفتي يغلب على ظنه أن صيغة السؤال لا تعبر عن حقيقة الواقع تماما :

وذلك كأن يكون السائل عاميا لا يدري مدلول اللفظ ، فنجده يطلق اللفظ الصريح على غير مدلوله ، ويأتي باللفظ الخاص على مدلول عام ، فينبغي للمفتي إذا غلب على ظنه أن مثل ذلك لا يقع له ، أن يتأنى في شأن الفتيا حتى يتفقد قرائن أحوال المستفتي ، وحتى ينكشف له واقع الحال ، فيفتيه في ضوء ما تبين له ، لا في حدود ما أطلقه من لفظ ، وإن لم يصل المفتي إلى كشف الواقع ، فلا يحل له أن يفتيه المصدر نفسه ، ص٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٣٥٢ . .

ومن الملابسات التي تجعل المفتي يغلب على ظنه أن صيغة السؤال لا تعبر عن حقيقة الواقع ، أن يكون المسئول عنه ما مثله لا يسأل عنه ، فالغالب على الظن حينئذ أنه يقصد بالسؤال أمر لو صرح به ، لامتنعت الفتيا به ، ولهذا ينبغي للمفتي أن يتأنى في الفتيا ، ويستكشف حال المستفتي ويبحث عن حقيقة سؤاله .

ويروي لنا القرافي لمصدر نفسه ، ص٢٥٢ ، ٢٥٣ ، قصة حصلت له ، تمثل ذلك أتم التمثيل ، فيقول : " ولقد سئلت مرة عن عقد النكاح بالقاهرة : هل يجوز أم لا ؟ فارتبت وقلت له : ما أفتيك حتى تبين لي : ما المقصود بهذا الكلام ؟ فإن كل أحد يعلم أن عقد النكاح بالقاهرة جائز ، فلم أزل به حتى قال : إنا أردنا أن نعقده خارج القاهرة فمنعنا ؛ لأنه استحلال ، فجئنا للقاهرة (فعقدناه) ، فقلت له : هذا لا يجوز بالقاهرة ، ولا بغيرها " .

٩ – النصح والشفقة على المستفتي : ولذلك صور كثيرة ، ووجوده متعددة ؛ إلا أن أبرزها دلالته على الأمر المباح ، وتوجيهه للطريق المستقيم ، وذلك حين يستفتي عن أمر محرم فيمنعه المفتي منه وحاجته

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٧٠)

(٢٣٠/١)

تدعوه إليه ، ومصلحته تستدعي أن يكون مباحا تناوله ، فمن تمام النصح والشفقة للمستفتي ، أن يدله المفتي على الأمر المباح ، الذي يكون عوضا عن الممنوع ، وقائما في سد الحاجة مقام ذلك المحرم ، وهو حين يسلك هذا المسلك ، يكون مثله مثل طبيب الأبدان : يحمي العليل مما يضره ، ويصف له ما ينفعه .

وقد جاءت أقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأحكامه بهذا ، ففي الصحيح أنه (صلى الله

عليه وسلم) قال : صحيح مسلم الإمارة (١٨٤٤)،سنن النسائي البيعة (٤١٩١)،سنن أبو داود الفتن والملاحم (٤٢٤٨)،سنن ابن ماجه الفتن (٣٩٥٦)،مسند أحمد بن حنبل (١٩١/٢). ما بعث الله من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم ، كما يروي البخاري أنه (صلى الله عليه وسلم) منع عامله على خيبر من شراء الصاع من التمر الجيد بالصاعين من الرديء ، ثم دله على الطريق المباح ؛ فقال : صحيح البخاري البيوع (٢٠٨٩)،صحيح مسلم المساقاة (١٥٩٣)،سنن النسائي البيوع (٤٥٥٣)،موطأ مالك البيوع (١٣١٤). بع الجمع بالدراهم ، ثم اشتر بالدراهم جنيبا .

وكان العلماء (رحمهم الله) يسلكون ذلك الطريق ، ويتحرونه في فتاويهم " ومن تأمل فتاوى ابن تيمية ، وجد ذلك ظاهرا فيها " ابن القيم ، أعلام الموقعين ، ٤ / ١٥٩ . .

١٠ – مراعاة الحكم الشرعي الذي يتفق مع مقاصد الشريعة ، وحمل المستفتي على الأخذ به :

ومعلوم أن الذي يتفق مع مقاصد الشريعة ، ما كان من الأحكام جاريا على المعهود والوسط بين الشدة والخفة ؛ فلا يحمل المستفتي على الشديد ، ولا يفتح له باب الخفة المفضي إلى التحلل من أحكام الشرع .

ودليل قولنا ، أن من تتبع الشريعة في مصادرها ومواردها ، وجدها تنحو المنحي الوسط في الأمور ، وتقصد الاعتدال في كل ما يقوم به المكلفون من أعمال ، فالخروج عن ذلك إلى التشديد والتخفيف المفرط ، خروج عن مقصد الشريعة .

(٢٣١/١)

ثم إن ذلك مفهوم من أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه (رضي الله عنهم) ، والوقائع الصحيحة التي وصلت إلينا أخبارها مما لا يحصيه العد ، تدل على صحة ما ذكر ، ومن ذلك ما رواه البخاري وأحمد ومسلم من " أنه (صلى الله عليه وسلم) صحيح البخاري النكاح (٤٧٨٦)،صحيح مسلم النكاح (١٤٠٢)،سنن الترمذي النكاح (١٠٨٣)،سنن النسائي النكاح (٣٢١٢)،سنن ابن ماجه النكاح (١٨٤٨)،مسند أحمد بن حنبل (١٨٣/١)،سنن الدارمي النكاح (٢١٦٩). رد على عثمان بن مظعون التبتل ، أبو البركات بن تيمية ، منتقى الأخبار ، كتاب النكاح . وما رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من " أنه (صلى الله عليه وسلم) صحيح البخاري الأدب (٥٧٥٥)،صحيح مسلم الصلاة (٤٦٥)،سنن النسائي الإمامة (٨٣٥)،سنن أبو داود الصلاة (٧٩٠)،سنن ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (٩٨٦)،مسند أحمد بن حنبل (٣٠٨/٣). قال لمعاذ : أفتان أنت يا معاذ ، وما رواه البخاري من أنه (صلى الله عليه وسلم) قال : صحيح البخاري الأذان (٦٧٠)،صحيح مسلم الصلاة (٤٦٦)،سنن ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها

(٩٨٤)،مسند أحمد بن حنبل (١١٨/٤)،سنن الدارمي الصلاة (١٢٥٩). إن منكم منفرين وما رواه البخاري الصحيح ، كتاب الإيمان . من أنه (صلى الله عليه وسلم) قال : صحيح البخاري الإيمان (٣٩)،سنن النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٣٤). سددوا وقاربوا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة . إلى غير ذلك مما يدل على أن الشريعة ، قد بنيت على القصد والاعتدال ، وروعي فيها اجتناب التشديد ، أو التخفيف الذي يؤدي إلى التحلل من أحكام الإسلام .

ولما تقدم " كان ما خرج عن المذهب الوسط مذموما عند العلماء والراسخين الشاطبي ، الموافقات ، ٤ / ٢٥٨ . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٧١)

(٢٣٢/١)

---

١١ – حسن النية ، وسلامة القصد من المفتي : وذلك بأن يكون الهدف الأساسي له في فتواه الإرشاد إلى الحق ، وهداية العامة طريق الرشاد ، والعمل بأحكام الشرع الحنيف ، فلا يداخله رياء أو سمعة ، أو حب للظهور بين الناس بمظهر العالم الجليل ، أو الغيرة على شريعة الله ، دون أن يكون لذلك رصيد في قلبه : من حسن في النية ، وحب لإسداء الخير للناس ، كما لا يجوز أن يداخله قصد لحطام الدنيا أو عرض من أعراضها ينظر الآمدي ، الأحكام ٤ / ٢٢٢ . .

١٢ – الاحتراز وأخذ الحيطة في الفتوى : ويتجلى ذلك في صور متعددة ، تختلف في مقاصدها لكنه يجمعها معنى الاحتراز والحيطة اللذين تشتمل عليها .

ومن هذه الصور أن يكون السؤال محتملا لصور متعددة ، ولا يخلو الأمر في هذه الحالة من أن يكون المفتي عالما بالصورة التي يقصدها المستفتي بسؤاله أو لا ؟ فإن لم يكن عالما بذلك لم يجب عن أي صورة منها ابن القيم ، أعلام الموقعين ٤ / ٢٥٥ . ، وإن كان عالما بما يقصده المستفتي ، فقد اختلف العلماء (رحمهم الله) في الطريقة التي يسوغ للمفتي أن يسلكها في إجابته . فذهب بعضهم إلى أنه يسوغ له أن يخصها وحدها بالجواب ، ولكن يحتاط في نفي توهم أن الإجابة عن غيرها ؛ بأن يضع قيودا تدل دلالة واضحة على أنها هي المقصودة بالجواب ، وأنها المخصوصة به دون غيرها ، كأنه يقول : " إن كان الأمر كيت وكيت ، أو كان المسئول عنه كذا وكذا ، فالجواب كذا وكذا " المصدر نفسه ، والصفحة نفسها ، كما يسوغ له عند هؤلاء طريق آخر ، وذلك بأن يذكر جميع الصور المحتملة في المقام ، ثم يذكر حكم كل صورة من هذه الصور على حدة . ويرى فريق آخر من العلماء ، أنه لا يسوغ للمفتي إلا أن يتبع الطريقة الأولى – طريقة تخصيص الصورة المسئول عنها بالجواب – ولا يسوغ له ذكر جميع الصور ، وذكر أحكامها .

ويعضد رأيه بما يأتي :

أولا :

(٢٣٣/١)

أن في ذلك تعليما للحيل ، وفتح أبواب كثيرة ، يستطيع المستفتي أن يدخل ويخرج من أيها شاء .

ثانيا :

أن ذلك قد يؤدي إلى ضياع مقصود من سؤاله ؛ إذ أنه يقصد به الوصول إلى جواب يعمل به في واقعته التي سأل عنها ، فإذا وجد نفسه أمام أحكام متعددة لصور مختلفة لا تعنيه ولا يهمه أمرها ، ازدحمت عنده الأحكام ، وصعب عليه فهمها ، واستخلاص ما يحتاج إليه منها ، ومن هنا يكون هذا المسلك

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٧٢)

سببا لفوات مقصوده .

وبينما نجد العلماء يختلفون فيما بينهم على هذا النحو الذي بينا ، نجد الإمام ابن القيم يرى مذهبا وسطا بين المذهبين ، فيقول المصدر نفسه والصفحة نفسها . : " والحق التفصيل ؛ فيكره حيث استلزم ذلك (ضياع مقصود العامي) ولا يكره – بل يستحب – إذا كان فيه زيادة إيضاح وبيان إزالة لبس " .

وأيد رأيه المصدر نفسه ، ٤ / ٢٥٦ . بما ورد عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من التفصيل في كثير من أجوبته بقوله : إن كان كذا ، فالأمر كذا ، وذكر من ذلك قصة الذي وقع على جارة امرأته ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " إن كان استكرهها فهي حرة ، وعليه لسيدتها مثلها ، وإن كانت مطاوعة ، فهي له ، وعليه لسيدتها مثلها " .

(٢٣٤/١)

ومن هذه الصور التي يتجلى فيها معنى الاحتراز والحيطة ما إذا كانت الفتوى قد يفهم منها أنها بنيت على معنى من المعاني ، فقد يذهب نظر المستفتي إلى أنه هو العمدة في هذا الحكم ، فيراعيه في القضايا التي يوجد فيها ، وحين يكون هناك مانع يمنع من هذا ، ينبغي التنبيه إليه ، والاحتراز مما قد يؤدي إليه الفهم منه ، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : صحيح مسلم الجنائز (٩٧٢)،سنن الترمذي الجنائز

(١٠٥٠)،سنن النسائي القبلة (٧٦٠)،سنن أبو داود الجنائز (٣٢٢٩)،مسند أحمد بن حنبل (١٣٥/٤). لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها أبو البركات بن تيمية ، منتقى الأخبار ، باب "المواضيع المنهي عنها والمأذون فيها للصلاة " . ، ففي النهي عن الجلوس عليها نوع تعظيم لها ، وحيث خشي (صلى الله عليه وسلم) أن يراعى تعظيمها فيعمل كل ما كان من شأنه خدمة هذا المعنى ، ومن ذلك الصلاة إليها – لما خشي ذلك ، صرح بالنهي عن المبالغة في تعظيمها ، حتى تجعل قبلة يصلى إليها ابن القيم ، أعلام الموقعين ٤ / ١٦٠ . .

ومن هذه الصور أيضا أن المفتي حينما يلقي الحكم على المستفتي ، فمن اللائق به أن يذكر دليل الحكم ومأخذه ؛ فإن في هذه الطريقة احتياطيا لكسب ثقة المستفتي بمفتيه ، واطمئنان نفسه بالحكم الذي تلقاه منه ، وفيها احتياطيا للمفتي بحيث يبرهن لغيره أنه إنما أفتاه عن علم ويقين لا عن تخرص وتخمين المصدر نفسه ، ٤ / ١٦١ .

والناظر في فتاوى النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي قوله حجة بنفسه ، لا يحتاج إلى شيء يعضده ويسانده ، يجدها مشتملة على التنبيه إلى حكمة الحكم ، ووجه مشروعيته ، ونظيره من الأحكام حتى يتأيد بها .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٧٣)

(٢٣٥/١)

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد والنسائي وأبو داود وابن ماجة عن سعد بن أبي وقاص قال : سنن الترمذي البيوع (١٢٢٥)،سنن أبو داود البيوع (٣٣٥٩)،سنن ابن ماجه التجارات (٢٢٦٤)،مسند أحمد بن حنبل (١٧٩/١)،موطأ مالك البيوع (١٣١٦). سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) يسأل عن اشتراء التمر بالرطب ، فقال لمن حوله : أينقص الرطب إذا يبس ؟ قالوا : نعم ، فنهى عن ذلك أبو البركات بن تيمية ، منتقى الأخبار . فمن المعلوم يقينا أنه (صلى الله عليه وسلم) يعلم نقصان الرطب بعد يبسه ، ولكنه أراد بهذا السؤال أن ينبههم إلى علة تحريم بيعه بالتمر .

ومن ذلك ما رواه أحمد وأبو داود من سنن أبو داود الصوم (٢٣٨٥)،مسند أحمد بن حنبل (٢١/١)،سنن الدارمي الصوم (١٧٢٤). قوله (صلى الله عليه وسلم) لعمر حين سأله عن حكم تقبيل الصائم لامرأته : " أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم ؟ قلت : لا بأس بذلك ؟ قال (صلى الله عليه وسلم) : ففيم ؛ فهو أتى بين يدي الفتوى بمقدمة الشرب للصائم وهي المضمضة ، وسأله عن حكمها ليتوصل من هذا إلى نقل مثل هذا الحكم إلى تقبيل الصائم لامرأته ؛ إذ هما نظيران فكل واحد منهما مقدمة لمحظور ، ولا يلزم من ذلك أن يكونا محظورين .

ومن هذه الصور – أيضا – أن المسألة حينما يكون في حكمها خلاف بين العلماء ، فإن المفتي

ينظر فيها على أساس من الاحتياط والاحتراز ، فإن رأى أن الفتوى فيها ستثير استنكار بعض العلماء ، وتوقع في التنازع ، وتؤدي إلى الطعن فيه ، فإن الاحتراز من ذلك يقضي بأن يحكى ما فيها من خلاف ، ويورد ما لكل مذهب من أدلة ، وينقل من الكتب ما يلائم المقام من نصوص . وبذلك يبين وجه الصواب لغيره ممن نازعه من العلماء ، ويصون عرضه مما قد يحتمل من الطعن فيه .

(٢٣٦/١)

وإن رأى أن الفتوى لا يقصد بها إلا مجرد الاسترشاد ، ولا يحتمل من ورائها أن تثير استنكارا ، ولا أن توقع في نزاع ، أو تؤدي إلى طعن ، فإنه يقتصر حينئذ على الجواب عن السؤال مجردا عن ذكر الخلافات وما يصاحبها من أدلة متباينة ونقول مختلفة ، وهذا هو ما تقضي به مراعاة الاحتراز في الفتوى عن التشويش على المستفتي ، والخوف من وقوعه في بلبلة فكرية من كثرة الآراء التي ألقيت عليه ، فلا يدري بأيها يأخذ القرافي ، الأحكام ، ص٢٦٨ . . ومن صور الاحتراز التي ينبغي للمفتي التفطن لها أن لا يترك شيئا مما تلفظ به المستفتي مما له تأثير في الحكم إلا كتبه ؛ وذلك أن المستفتي قد يأتي بفتوى محررة ، لكنه يتلفظ بأمور ليست مكتوبة ، وهي لها أثر في الحكم ، فحينئذ ينبغي للمفتي أن يكتبها " بخطه بين الأسطر ، أو يقول : قال المستفتي من لفظه كذا " المصدر نفسه ، ص٢٥٥ . ؛ لأن في ترك ذلك – مع أنه قد راعاه في الفتيا – طعنا عليه في فتياه ، فينبغي له أن يتحرز من هذا الطعن .

كما ينبغي له أن يتفقد أسطر الورقة تفقدا تاما ، فإذا رأى في السطر بياضا سدده ، وإذا رأى في السطر الأخير نقصا أكمله بخطه بما يكتبه في الفتيا ؛ وذلك لأن مثل هذه الفراغات تكون مجالا للتوصل للباطل

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٧٤)

(٢٣٧/١)

والتتميم بما يخالف الحكم ، فينشأ عن ذلك فتن عظيمة بين العلماء ، وطعن أليم على المفتين ، ويروي " القرافي " المصدر نفسه ، والصفحة نفسها . قصة حصل فيها هذا المحذور ؛ بسبب إهمال هذا المفتي لهذه الفراغات ، وإكمال المستفتي لها بما يخالف حكم المفتي ، فيقول " وقد استفتي بعض العلماء المشهورين عن رجل مات وترك أما وأخا لأم ، وترك الكاتب في آخر السطر بياضا

ثم قال : وابن عم ، فكتب المفتي : للأم الثلث ، وللأخ لأم السدس ، والباقي لابن العم ، فلما أخذ المستفتي الفتيا ، كتب في ذلك البياض : وأبا ، ثم دور الفتيا على الناس بالكوفة ، وقال انظروا فلانا كيف حجب الأب بابن العم ، فقال له أصحابه : مثله ما يجهل هذا ، فقال : هذا خطه شاهد عليه ، فوقعت فتنة عظيمة بين فئتين عظيمتين من الفقهاء " .

وأمثال هذه القصة كثير بسبب ما تزين للمستفتي نفسه أن يضيفه حين يجد المجال مفتوحا أمامه للإضافة ، ولهذا فإنه ينبغي للمفتي التفطن التام لذلك " فإذا رأى فرجة يمكن أن يكتب فيها شيء ، فليملأها بلفظ " صح ، صح " ونحوها مما يشغل به تلك الفرجة ، وإذا بقيت فرجة في آخر السطر ، فليسدها بمثل " والحمد لله " أو " حسبنا الله " ، ولينو بها ذكر الله تعالى . . . " ابن فرحون ، تبصرة الحكام ، ط البهية ، سنة ١٣٠٢هـ ، ١ / ٢٠٩ . .

١٣ – تأدبه في صورة وضع الفتيا ، حين يكون قد أفتى في القضية غيره ممن هو أعلى منه منزلة في العلم : ذلك أن في هذا تواضعا ، والله يحب من اتصف بهذه الصفة ، وفيه احتراما لذوي المنزلة العلمية ، واعترافا بفضلهم ومكانتهم .

والتأدب في صورة وضع الفتيا له ناحيتان : ناحية من حيث التلفظ بالفتوى ، وناحية من حيث الموضع الذي يكتبها فيه ، ولكل من الناحيتين درجات تختلف قربا وبعدا عن التواضع .

(٢٣٨/١)

وقد أوضح " القرافي " الأحكام ، ص٢٦٤– ٢٦٥ . هذه الدرجات مبينا علل قربها أو بعدها عن التواضع ، فقال : " فإن كان الذي تقدمه ، في غاية الجلالة ، فليقل : " كذلك جوابي " إن كان يعتقد صحة ما قاله من تقدمه ، ودون ذلك في التواضع " جوابي كذلك " ؛ لأن تقديم لفظ الجواب قبل التشبيه ، تقديم لجوابه على جواب من تقدمه الكائن في التشبيه ، وإن قال : " كذلك جوابي " ، فالإشارة ب " ذلك " الذي دخلت عليه كاف التشبيه ، هو جواب من تقدمه ، فيكون قد قدم جواب السابق عليه قبل ذكر جوابه ، والتقديم تعظيم واهتمام ، فهو أدخل في الأدب .

ودون هاتين المرتبتين في التواضع ، وأقرب إلى الترفع أن يكتب مثل الجواب بعبارة أخرى ، ولا يشبه جوابه بجواب من تقدمه أصلا ، وأرفع من ذلك وأبعد عن التواضع ، أن يقول : " الجواب صواب " أو " الجواب صحيح " وهذا لا يستعمل إلا لمن يصلح للثاني أن يجيزه في الفتيا أو يزكيه في

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٧٥)

قوله ، وأن يكون معه في معنى التلميذ والتبع ؛ لأنه أظهر أن جواب السابق في صورة من يشهد له هو بالصحة ، أو بالصواب من جهة الثاني ، وهذه أدنى الرتب لخلو اللفظ عن التعظيم بالكلية .

هذا من حيث اللفظ .

وأما من حيث الموضع الذي يكتب فيه ، فإن اتضع ، كتب خطه تحت خط الأول ، وإن ترفع ، كتب قبالته في يمين الخط أو شماله ، وكذلك الجهة اليمنى أشرف من الجهة اليسرى ، فالمتواضع يضع في اليسرى ، والذي لا يقصد التواضع ، ويقصد التعظيم للجهة اليمنى لكونها يمنى يضع فيها " .

(٢٣٩/١)

خاتمة

كان للواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية في أفرادها ، ومن يتصدر للفتيا في دين الله ، سبب قوي جعلني أفكر في موضوع هذا البحث ، وأطلب العون من الله في استجلاء كثير من حقائقه كما كان لبعض جوانبه أثر في نفسي أقوى من الجوانب الأخرى ، تلك هي ما يتصل بالأسس الأصيلة ، التي ينبنى عليها تكوين المفتي ، والمطالب الهامة التي ينبغي أن يتصف بها ويترسمها في حياته العامة وأثناء قيامه بمهمة الفتيا ، والمكانة العظيمة التي قد منحها مما يدل على عظم شأنه ، وعلو منزلته .

لذلك حاولت – بقدر ما أمدني الله به من عون – أن أستجلي من هذه الجوانب ما رأيته في المنزلة الأولى بين جوانبه المتعددة .

ومن هنا جاء البحث قائما على الحقائق التالية :

الحقيقة الأولى : أن قدمت له بتمهيد ؛ بينت فيه مكانة هذا البحث في ميدان البحوث العلمية ، والمدى البالغ لأهميته في عصرنا الحاضر ؛ حيث فشا الجهل في أفراد الأمة بأحكام دينها وصار الكثير ممن يتصدر الفتيا لا ينطبق عليهم ما هو مشترط لمن يتصدى لهذا المنصب العظيم .

الحقيقة الثانية : أن أوضحت معناه في اللغة ، وعرضت الخلاف بين العلماء في تعريفه اصطلاحا ، ورجحت بالأدلة ما تبين لي رجحانه ، وذيلت هذه الحقيقة بعرض لأقسام المفتين ، وتعريف مختصر بهم .

الحقيقة الثالثة : أن بينت المنزلة الرفيعة التي يحتلها المفتي ؛ حيث كان قائما مقام النبي (صلى الله عليه وسلم) في وراثته لعلم الشريعة منه (صلى الله عليه وسلم) ، وإبلاغها للناس ، وتعليمها للجاهل بها ، والإنذار بها ، وأقمت الأدلة الناصعة لذلك من الكتاب العزيز ، والسنة المطهرة .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٧٦)

(٢٤٠/١)

الحقيقة الرابعة : أن ذكرت الشروط التي ينبغي أن تتوفر فيمن اصطلحنا سابقا على تسميته بالمفتي الذي تؤخذ الفتوى عنه ، وإن كان غيره ممن هو أعلى مرتبة في العلم ، وأرسخ قدما في الفهم والاستنباط ، تؤخذ عنه من باب أولى ؛ فكانت على النحو التالي :

الإسلام والتكليف ، والعلم ، والعدالة ، وحسن الطريقة ورضا السيرة ، والورع والعفة والحرص على استطابة المأكل ، ورصانة الفكر وجودة الملاحظة ، والتأني في الفتوى والتثبت فيما يفتى به ، وطلب المشورة ، ورؤية المفتي لنفسه بأنه أهل لهذا المنصب ، وشهادة الناس له بذلك .

وقد ذكرت بعد كل شرط ما يدل على اشتراطه ، فبان بذلك تحتم وجودها فيمن نصب نفسه للإفتاء " وتحتم امتناع من لم تتوفر فيه عن ذلك .

الحقيقة الخامسة : أن سجلت في هذا البحث أهم الأمور التي ينبغي لمن تصدى للفتيا بأن يتحلى بها ، ويأخذ نفسه بها ، فاجتمع لنا منها ما يأتي :

(٢٤١/١)

جمال المظهر وحسن الزي على الطريقة التي تتناسب مع الوضع الشرعي ، والبداءة بالنفس في كل خير يفتى به ، ومعرفة أحوال الناس والتفطن لتصرفاتهم ، والكف عن النظر في الفتوى حينما يكون مع المستفتي فتوى قد كتبها من لا يصلح لذلك ، وعدم الكتابة مع المستفتي حينما تكون حاله مثل ذلك ، والنظر في سؤال السائل من حيث مطابقته لمستوى السائل وعدم مطابقته لذلك ، وإعطاء كل حالة حكمها المناسب لها ؛ من حيث إفتاؤه وعدم إفتائه ، والشعور بالافتقار إلى الله (سبحانه) في إلهام الصواب ، والدعاء بما يتناسب مع هذا المقام ، ومراعاة العرف والعادة في الفتوى حيث تختلف بلدان المستفتين ، وعرض الخلاف حين يتعارض العرف مع المدلول اللغوي للفظ الصريح ، والتريث في الفتوى حين يشتمل اللفظ على بعض الملابسات التي تجعل المفتي يغلب على ظنه أن صيغة السؤال لا تعبر عن حقيقة الواقع تماما ، والنصح والشفقة على المستفتي ؛ إما بتوجيهه للطرق المباحة حين يستفتي عن أمر محرم ، فيمنعه المفتي منه ، وإما غير ذلك مما يدخل في معنى النصح والشفقة ، ومراعاة الحكم الشرعي الذي يتفق مع مقاصد الشريعة ، وهو ما كان جاريا على المعهود الوسط بين الشدة والخفة ، وحسن النية ، وسلامة القصد من المفتي ، والاحتراز وأخذ الحيطة في الفتوى – وقد ذكرت لذلك صورا كثيرة متنوعة بجمعها هذا المعنى – وختمت هذه الأمور بأمر يتصل بالتواضع المشروع في الإسلام ، وهو تأدب المفتي في صورة وضع الفتيا حين يكون قد أفتى في القضية غيره ممن هو أعلى منه منزلة في العلم .

وقد سلكت في بحث هذه الأمور ذكر الأدلة الشرعية لها ، وعرض الخلاف حيث يوجد فيها ، وتفصيل الحالات المحتملة حيث يوجد الاحتمال ، وإيراد الحكم لكل حالة مقرونا بدليله .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٧٧)
تلك : هي مكانة المفتي في الإسلام ، وهذه هي الحقائق التي ينبغي لمن تصدى للإفتاء بأن تتوفر فيه ، ويتجلى بها .

(٢٤٢/١)

فما مدى انطباقها على المفتين في العالم الإسلامي المعاصر ؟ إننا نقرر – والأسى يحز في نفوسنا – واقعا مريرا تعيشه الأمة الإسلامية في هذا الجانب ؛ ذلك أن كثيرا من أولئك المفتين لا تتوفر فيه تلك الشروط ، ولا تجتمع فيه الأمور التي ينبغي لمن أفتى أن يتحلى بها ، ولا شك أن هذا كان له الأثر السيئ في المجتمع الإسلامي ؛ فأحكام الدين تؤخذ – في كثير من الأحيان – عن أفواه من لا يصلح للفتيا ، والثقة بما يقال في ذلك انتزعت ؛ لكون القائل ليس أهلا لما يقول ، والاضطراب في الفتاوي بين العامة انتشر حتى صار سببا للفوضى بينهم ، والتشويش عليهم فيما يأخذون أنفسهم به .
والشيء الذي يتبادر إلى الذهن اقتراحه إزاء هذه المشكلة ؛ للقضاء عليها ، أو الحد من خطرها ، أن لا يترك الباب للإفتاء مفتوحا لمن أراد أن يلج منه ، بل ينبغي لولاة الأمور ومن يعنيهم هذا الشأن أن يضعوا قواعد أساسية بها يقومون الشخص ، ويعلمون مدى صلاحيته لذلك ، فيرشحوه لهذا الأمر ، ويوجهوا عامة الناس نحوه في أخذ الأحكام ، حين يحتاجون لذلك ، وأن يمنعوا عن الإفتاء من لا يصلح لذلك ، وينذروه إن لم ينته عنه ، ويعاقبوه بما يتناسب مع حاله حين يتصدى له ، ولو أصاب في ذلك ، فإن إصابته مرة سيتبعها خطؤه مرات كثيرة في حالات أخرى ، وليس فيما نقول تحجير لواسع ؛ فإنه لا مانع من أن يختار في كل بلد من يصلح لذلك ؛ حتى يفتيها في أمور دينها ، ويخلصها مما قد ينبهم عليها في صلتها مع ربها ، كما أنه ليس فيما نقول ابتكار لقول لم نسبق إليه وإلى العمل به ؛ فقد قال الخطيب البغدادي الفقيه والمتفقه ، ٢ / ١٥٣ . : " قلت ينبغي لإمام المسلمين ، أن يتصفح أحوال المفتين ؛ فمن كان يصلح للفتوى ، أقره عليها ، ومن لم يكن من أهلها منعه منها ، وتقدم إليه بأن لا يتعرض لها ، وأوعده بالعقوبة ، إن لم ينته عنها " .

(٢٤٣/١)

ويستأنس في عرض رأيه هذا بما حصل من خلفاء بني أمية في تعيينهم من يتصدى للفتيا بمكة ، ومنعهم لغيرهم منها ، فيقول المصدر نفسه ، ١٥٣- ١٥٤ . : " وقد كان الخلفاء من بني أمية ينصبون للفتوى بمكة في أيام الموسم قوما يعينونهم ، ويأمرون بأن لا يستفتي غيرهم (ويروي بسنده) إلى أبي يزيد الصنعاني عن أبيه قال : كان يصيح الصائح في الحاج : لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح ، فإن لم يكن فعبد الله بن أبي نجيح " .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٧٨)

ويتابع " ابن الجوزي " (المتوفى سنة ٥٩٦ هـ) الخطيب البغدادي فيقول : " يلزم ولي الأمر منهم كما فعل بنو أمية " أحمد بن حمدان الحرافي الحنبلي صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ص٢٤ . .

كما أن من يتصدرون الفتيا – ممن كانوا أهلا لها – ينبغي لهم توعية العامة بهذا الشأن ، والعمل على صرف الناس عمن لا يصلح للفتيا ، والحد من نشاطهم ، والمنع من نفوذهم بكل الوسائل التي تخدم هذه المقاصد .

ولهذا نرى القرافي يعرض رأيا ، هو في نفسه أحد هذه الوسائل ، فيقول : الأحكام ، ص٢٦٦ . " وينبغي للمفتي متى جاءته فتيا ، وفيها خط من لا يصلح للفتيا ، ألا يكتب معه ؛ فإن كتابته معه تقرير لصنيعه ، وترويج لقوله الذي لا ينبغي أن يساعد عليه ، وإن كان الجواب في نفسه صحيحا ؛ فإن الجاهل قد يصيب ، ولكن المصيبة العظيمة ، أن يفتي في دين الله من لا يصلح للفتيا ؛ إما لقلة علمه ، أو لقلة دينه ، أو لهما معا " .

نسأل الله (عز وجل) أن ينصر دينه ، ويعلي كلمته ، وأن يوفق القائمين على شئون المسلمين لما فيه خير دينهم ، وصلاح من تحت رعايتهم ؟

(٢٤٤/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٧٩)

مجلة

البحوث الإسلامية

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

العبادات

حكم السعي فوق سقف المسعى

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٨٠)

العبادات

الحمد لله ،

وبعد : فبناء على خطاب سمو نائب وزير الداخلية للمملكة العربية السعودية رقم ٢٦ / ١٠٦١٢ وتاريخ ٢١ / ٣ / ١٣٩٣ هـ . المتضمن رغبة وزارة الداخلية في دراسة موضوع السعي فوق سقف المسعى من قبل هيئة كبار العلماء بالمملكة ، وبناء على ما تقتضيه لائحة سير عمل الهيئة من قيام اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بإعداد بحث علمي فيما يحتاج إلى بحث من المواضيع التي تتجه الرغبة إلى دراستها في الهيئة . قامت اللجنة بإعداد بحث في حكم السعي فوق سقف المسعى ، وفيما يلي ما تيسر إعداده من النصوص والنقول التي يمكن أن يستعان بها في هذا الموضوع :

الحمد لله وحده

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد : فإنه قد عرض على هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية في دورتها الرابعة المنعقدة ما بين ٢٩ / ١٠ / ٩٣ هـ و ١٢ / ١١ / ١٣٩٣ هـ موضوع حكم السعي فوق سقف المسعى ليكون وسيلة لعلاج ازدحام الناس في السعي أيام موسم الحج ، وأطلقت الهيئة على البحث المقدم عنه من الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء المعد من قبل اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء . . . ورغبة في إطلاع القراء الكرام على هذا البحث القيم تقدمه بكامله

وهذا نصه .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٨١)

الفهرس

يمكن

أن يرجع في حكم السعي بين الصفا والمروة فوق سقف المسعى إلى الأمور الآتية :

إن من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين " ١ " .

الطواف والسعي على بعير ونحوه .

استقبال الكعبة في الصلاة .

رمي الحاج الجمرات وهو راكب .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٨٢)

حكم

السعي فوق سقف المسعى

أما الأمر الأول

قال البخاري في صحيحه حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال : حدثني طلحة بن عبد الله أن عبد الرحمن بن عمرو بن سهل أخبره أن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : صحيح البخاري المظالم والغصب (٢٣٢٠)،صحيح مسلم المساقاة (١٦١٠)،سنن الترمذي الديات (١٤١٨)،مسند أحمد بن حنبل (١٩٠/١)،سنن الدارمي البيوع (٢٦٠٦). من ظلم من الأرض شيئا طوقه من سبع أرضين قال ابن حجر : وفي الحديث تحريم الظلم والغصب وتغليظ عقوبته وإمكان غصب الأرض وأنه من الكبائر قاله القرطبي وكأنه فرعه على أن الكبيرة ما ورد فيه وعيد شديد وأن من ملك أرضا ملك أسفلها إلى منتهى الأرض وله أن يمنع من حفر تحتها سربا أو بئرا بغير رضاه وفيه أن من ملك ظاهر الأرض ملك باطنها بما فيه حجارة ثابتة وأبنية ومعادن وغير ذلك وأن له أن ينزل بالحفر ما شاء ما لم يضر بمن يجاوره . ا هـ صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري جـ٥ ص٣٨ . .

وقال العيني بعد أن ساق حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : صحيح البخاري المظالم والغصب (٢٣٢٠)،صحيح مسلم المساقاة (١٦١٠)،سنن الترمذي الديات (١٤١٨)،مسند أحمد بن حنبل (١٩٠/١)،سنن الدارمي البيوع (٢٦٠٦). من ظلم من الأرض شيئا طوقه من سبع أرضين صحيح البخاري مع شرحه عمدة القاري جـ١٢ ص٢٩٨ . . ذكر ما يستفاد منه ، فيه دليل على أن من ملك أرضا ملك أسفلها إلى منتهاها وله أن يمنع من حفر

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٨٣)

(٢٤٦/١)

تحتها سربا أو بئرا سواء أضر ذلك بأرضه أو لا قاله الخطابي ، وقال ابن الجوزي : لأن حكم أسفلها تبع لأعلاها ، وقال القرطبي : وقد اختلف فيها إذا حفر أرضه فوجد فيها معدنا أو شبهه فقيل هو له وقيل بل للمسلمين ، وعلى ذلك فله أن ينزل بالحفر ما شاء ما لم يضر بجاره وكذلك له أن يرفع في الهواء المقابل لذلك القدر من الأرض من البناء ما شاء ما لم يضر بأحد . ا هـ .

وقال الأبي صحيح مسلم مع شرحه إكمال المعلم جـ٤ ص٣١٣ ، ٣١٤ . : قوله صحيح البخاري بدء الخلق (٣٠٢٦)،صحيح مسلم المساقاة (١٦١٠)،سنن الترمذي الديات (١٤١٨)،مسند أحمد بن حنبل (١٨٧/١)،سنن الدارمي البيوع (٢٦٠٦). من ظلم شبرا من الأرض . . . . واستدل بعضهم على أن من ملك ظاهر الأرض يملك ما تحته مما يقابله فله منع من يتصرف فيه أو يحفر ، وقد اختلف العلماء في هذا الأصل فيمن اشترى دارا فوجد فيها كنزا أو وجد في أرضه معدنا فقيل له

وقيل للمسلمين ، ووجه الدليل من الحديث أنه غصب شبرا فعوقب بحمله من سبع أرضين . . . . . إلى أن قال : وكذلك يملك ما قبل ذلك من الهواء يرفع فيه من البناء ما شاء ما لم يضر بأحد . ا هـ .

فدل ما تقدم على أن حكم أعلى الأرض وأسفلها تابع لحكمها في التملك والاختصاص ونحوهما وعلى ذلك يمكن أن يقال أن السعي فوق الطابق الذي جعل سقفا لأرض المسعى له حكم السعي على أرض المسعى .

(٢٤٧/١)

أما الأمر الثاني

وقد جاءت أحاديث في هذا الباب عن النبي صلى الله عليه وسلم من رواية ابن عباس أن صحيح البخاري الحج (١٥٥١)،سنن أبو داود المناسك (١٨٨٥)،مسند أحمد بن حنبل (٢١٥/١)،سنن الدارمي المناسك (١٨٤٥). النبي صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت وهو على بعير . ومن رواية أم سلمة : صحيح البخاري الصلاة (٤٥٢)،صحيح مسلم الحج (١٢٧٦)،سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٢٥)،سنن أبو داود المناسك (١٨٨٢)،مسند أحمد بن حنبل (٣١٩/٦)،موطأ مالك الحج (٨٣٢). شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أشتكي فقال : " طوفي وأنت راكبة . وقد بوب البخاري في صحيحه فقال : " باب المريض يطوف راكبا " ثم ساق الحديثين السابقين حديث ابن عباس وحديث أم سلمة ، قال ابن حجر صحيح البخاري مع شرحه الفتح جـ٣ ص٤٦٠ . : أن المصنف حمل سبب طوافه صلى الله عليه وسلم راكبا على أنه كان عن شكوى وأشار بذلك إلى ما أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس بلفظ صحيح مسلم الحج (١٢٧٢)،سنن الترمذي الحج (٨٦٥)،سنن النسائي المساجد (٧١٣)،سنن أبو داود المناسك (١٨٨١)،سنن ابن ماجه المناسك (٢٩٤٨)،مسند أحمد بن حنبل (٢٤٨/١)،سنن الدارمي المناسك (١٨٤٥). قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة وهو يشتكي فطاف على راحلته ووقع في حديث جابر عند مسلم أن صحيح مسلم الحج (١٢٧٣)،سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٧٥)،سنن أبو داود المناسك (١٨٨٠). النبي صلى الله عليه وسلم طاف راكبا ليراه الناس وليسألوه .

طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على راحلته يستلم الحجر بمحجنه ليراه الناس ويشرف ليسألوه " .

فيحتمل أن يكون فعل ذلك لأمرين وحينئذ لا دلالة فيه على جواز الطواف راكبا لغير عذر ، وكلام الفقهاء يقتضي الجواز إلا أن المشي أولى والركوب مكروه تنزيها ، والذي يترجح المنع لأن طوافه

صلى الله عليه وسلم
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٨٤)

(٢٤٨/١)

وكذا أم سلمة كان قبل أن يحوط المسجد ووقع في حديث أم سلمة طوفي من وراء الناس وهذا يقتضي منع الطواف في المطاف . وإذا حوط المسجد امتنع داخله إذ لا يؤمن التلويث فلا يجوز بعد التحويط بخلاف ما قبله فإن كان لا يحرم التلويث كما في المسعى وعلى هذا فلا فرق في الركوب إذا ساغ بين البعير والفرس والحمار . وأما طواف النبي صلى الله عليه وسلم راكبا فللحاجة إلى أخذ المناسك عنه ولذلك عده بعض من جمع خصائصه فيها . ا هـ .
وفي صحيح البخاري بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : صحيح البخاري الحج (١٥٣٠)،صحيح مسلم الحج (١٢٧٢)،سنن النسائي المساجد (٧١٣)،سنن أبو داود المناسك (١٨٧٧)،سنن ابن ماجه المناسك (٢٩٤٨). طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجن .

(٢٤٩/١)

قال العيني : وأخرج مسلم عن أبي الطفيل : صحيح مسلم الحج (١٢٧٥)،سنن أبو داود المناسك (١٨٧٩)،سنن ابن ماجه المناسك (٢٩٤٩)،مسند أحمد بن حنبل (٤٥٤/٥). رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت ويستلم الركن بمحجن ، وروى مسلم عن جابر : طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على راحلته يستلم الحجر بمحجنه ليراه الناس وليشرف ليسألوه . . . .
قال ذكر معناه قوله : صحيح البخاري الحج (١٥٣٠)،صحيح مسلم الحج (١٢٧٢)،سنن النسائي المساجد (٧١٣)،سنن أبو داود المناسك (١٨٧٧)،سنن ابن ماجه المناسك (٢٩٤٨). طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على بعير . قال ابن بطال استلامه بالمحجن راكبا يحتمل أن يكون لشكوى به . . . إلى أن قال : وقال النووي قال أصحابنا الأفضل أن يطوف ماشيا ولا يركب إلا لعذر من مرض ونحوه أو كان يحتاج إلى ظهوره ليستفتي ويقتدي به فإن كان لغير عذر جاز بلا كراهة لكنه خلاف لأولى . . . إلى أن قال : وقال مالك وأبو حنيفة : إن طاف راكبا لغير عذر أجزأ ولا شيء عليه وإن كان لغير عذر فعليه دم قال أبو حنيفة وإن كان بمكة أعاد الطواف . ا هـ
صحيح البخاري مع شرحه عمدة القاري جـ٦ ص٢٥٢ . .

وقال السرخسي : وإن طاف راكبا أو محمولا فإن كان لعذر من مرض أو كبر لم يلزمه شيء ، وإن كان لغير عذر أعاده ما دام بمكة فإن رجع إلى أهله فعليه الدم عندنا ، وعلى قول الشافعي لا شيء عليه لأنه صح في الحديث مسند أحمد بن حنبل (٢٣٧/١). أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف للزيارة يوم النحر على ناقته واستلم الأركان بمحجنه المصدر نفسه .

(٢٥٠/١)

ولكنا نقول المتوارث من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا الطواف ماشيا ، وهذا على قول من يجعله كالصلاة لأن أداء المكتوبة راكبا من غير عذر لا يجوز فكان ينبغي أن لا يعتد بطواف الراكب من غير عذر ، ولكنا نقول المشي شرط الكمال فيه فتركه من غير عذر يوجب الدم لما بينا – فأما تأويل الحديث فقد ذكر أبو الطفيل – رحمه الله – أنه طاف راكبا لوجع أصابه وهو أنه وثبت رجله فلهذا طاف راكبا ، وذكر أبو الزبير عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف راكبا لكبر سنه ، وعندنا إذا كان لعذر فلا بأس به وكذلك إذا طاف بين الصفا والمروة محمولا أو راكبا وكذلك لو طاف الأكثر راكبا أو محمولا فالأكثر يقوم مقام الكل على ما بينا . ا هـ المبسوط جـ٤ ص٤٥ .

وقال ابن الهمام على قول صاحب الهداية " وإن أمكنه أن يمس الحجر شيئا في يده " كالعرجون وغيره ثم قبل ذلك فعل ، لما روى أنه عليه السلام صحيح مسلم الحج (١٢٧٣)،سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٧٥)،سنن أبو داود المناسك (١٨٨٠). طاف على راحلته واستلم الأركان بمحجنه .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٨٥)

وقوله وإن أمكنه أن يمس الحجر شيئا في يده ، أو يمسه بيده ويقبل ما مس به فعل أما الأول فلما أخرج الستة إلا الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن صحيح البخاري الحج (١٥٥١)،صحيح مسلم الحج (١٢٧٢)،سنن الترمذي الحج (٨٦٥)،سنن النسائي المساجد (٧١٣)،سنن أبو داود المناسك (١٨٧٧)،سنن ابن ماجه المناسك (٢٩٤٨)،مسند أحمد بن حنبل (٢٤٨/١)،سنن الدارمي المناسك (١٨٤٥). النبي صلى الله عليه وسلم طاف في حجة الوداع على راحلته يستلم الحجر بمحجنه لأن يراه الناس ويشرف وليسألوه فإن الناس غشوه .

(٢٥١/١)

وأخرجه البخاري عن جابر إلى قوله : صحيح مسلم الحج (١٢٧٣)،سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٧٥)،سنن أبو داود المناسك (١٨٨٠). لأن يراه الناس . ورواه مسلم عن أبي الطفيل صحيح مسلم الحج (١٢٧٥)،سنن أبو داود المناسك (١٨٧٩)،سنن ابن ماجه المناسك (٢٩٤٩)،مسند أحمد بن حنبل (٤٥٤/٥). رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت على راحلته ويستلم الركن بمحجن معه ويقبل المحجن ثم أورد إشكالا حديثيا وهو أن الثابت بلا شبهة أنه عليه السلام رمل في حجة الوداع وطوافه راكبا على البعير ينافي ذلك – إلى أن قال – والجواب أن في الحج للآفاقي أطوفة فيمكن كون المروي من ركوبه كان في طواف الفرض يوم النحر ليعلمهم ومشيه كان في طواف القدوم وهو الذي يفيده حديث جابر الطويل لأنه حكى ذلك الطواف الذي بدأ به أول دخوله مكة كما يفيده سوقه للناظر فيه : فإن قلت فهل يجمع بين ما عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما إنما طاف راكبا ليشرف ويراه الناس فيسألوه ، وبين ما عن سعيد بن جبير أنه إنما طاف كذلك لأنه كان يشتكي . كما قال محمد أخبرنا أبو حنيفة عن حماد بن أبي سليمان أنه سعى بين الصفا والمروة مع عكرمة فجعل حماد يصعد الصفا وعكرمة لا يصعد ويصعد حماد المروة وعكرمة لا يصعد فقال حماد يا أبا عبد الله ألا تصعد الصفا والمروة فقال هكذا كان طواف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حماد فلقيت سعيد بن جبير فذكرت له ذلك فقال : إنما طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته وهو شاك يستلم الأركان بمحجن فطاف بين الصفا والمروة على راحلته فمن أجل ذلك لم يصعد . اهـ شرح فتح القدير ج٢ ص١٤٧ . .

(٢٥٢/١)

وقال الدسوقي (قوله إذ هو واجب . إلخ) حاصله أن المشي في كل من الطواف والسعي واجب على القادر عليه فلا دم على عاجز طاف أو سعى راكبا أو محمولا ، وأما القادر إذا طاف أو سعى محمولا أو راكبا فإنه يؤمر بإعادته ماشيا ما دام بمكة لا يجبر بالدم حينئذ كما يؤمر العاجز بإعادته إن قدر ما دام بمكة وإن رجع لبلده فلا يؤمر بالعودة لإعادته ويلزمه دم فإن رجع وأعاده ماشيا سقط الدم عنه ثم قال : وهذا في الطواف الواجب ، وأما الطواف غير الواجب فالمشي فيه سنة وحينئذ فلا دم على تارك المشي فيه قاله عج . اهـ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ج٢ ص٤٠ . .

قال النووي : والأفضل أن يطوف راجلا لأنه إذا طاف راكبا زاحم الناس وآذاهم وإن كان به مرض يشق معه الطواف راجلا لم يكره الطواف راكبا لما روت صحيح البخاري الصلاة (٤٥٢)،صحيح مسلم الحج (١٢٧٦)،سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٢٥)،سنن أبو داود المناسك (١٨٨٢)،مسند أحمد بن حنبل (٣١٩/٦)،موطأ مالك الحج (٨٣٢). أم سلمة أنها قدمت مريضة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم " طوفي وراء الناس وأنت راكبة ، وإن كان راكبا من غير عذر جاز لما روى

جابر : صحيح مسلم الحج (١٢٧٣)،سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٧٥)،سنن أبو داود المناسك (١٨٨٠). أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف راكبا ليراه الناس ويسألوه . حديث أم سلمة رواه البخاري وحديث جابر رواه مسلم وثبت طواف النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيحين أيضا من رواية ابن عباس وثبت أيضا
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٨٦)

(٢٥٣/١)

من رواية غير هؤلاء ، ولفظ حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم صحيح البخاري الحج (١٥٣٠)،صحيح مسلم الحج (١٢٧٢)،سنن النسائي المساجد (٧١٣)،سنن أبو داود المناسك (١٨٧٧)،سنن ابن ماجه المناسك (٢٩٤٨). طاف في حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجن رواه البخاري ومسلم ، وفي حديث صحيح مسلم الحج (١٢٧٣)،سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٧٥)،سنن أبو داود المناسك (١٨٨٠). طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على راحلته يستلم الركن بمحجنه لأن يراه الناس وليشرف فيسألوه فإن الناس غشوه رواه مسلم . وعن عائشة قالت صحيح مسلم الحج (١٢٧٤)،سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٢٨). طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع حول الكعبة على بعير يستلم الركن كراهة أن يضرب عنه الناس رواه مسلم .
وأما الأحكام
فقال أصحابنا الأفضل أن يطوف ماشيا ولا يركب إلا لعذر مرض أو نحوه أو كان ممن يحتاج الناس إلى ظهوره ليستفتى ويقتدى بفعله فإن طاف راكبا بلا عذر جاز بلا كراهية لكنه خالف الأولى كذا قاله جمهور أصحابنا – إلى أن قال – " فرع " قد ذكرنا مذهبنا في طواف الراكب ، ونقل الماوردي إجماع العلماء على أن طواف الماشي أولى من طواف الراكب . اهـ المهذب مع شرحه المجموع للنووي ج٨ ص٢٩– ٣٠ . . وقال أيضا : أما سنن الطواف وآدابه فثمان ، أحدها – : أن يطوف ماشيا فإن طاف راكبا لعذر يشق معه الطواف ماشيا أو طاف راكبا ليظهر ويستفتى ويقتدى بفعله جاز ولا كراهة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم طاف راكبا في بعض أطوافه وهو طواف الزيارة ولو طاف راكبا بلا عذر جاز . اهـ . .
وقال ابن حجر الهيثمي في حاشيته على الشرح قوله : وهو طواف الزيارة أما ما أشار إليه من ركوبه صلى الله عليه وسلم فيه أنما كان ليظهر فيستفتى هذا ما رواه مسلم .

(٢٥٤/١)

قال السبكي وهذا أصح من رواية من روى أنه طاف راكبا لمرض أشار بذلك إلى ما رواه أبو داود على أن في إسناده من لا يحتج به ، وقال البيهقي في حديثه لفظة لم يوافق عليها وهي قوله سنن أبو داود المناسك (١٨٨١). وهو يشتكي . ومن ثمة قال الشافعي لا أعلم أنه صلى الله عليه وسلم فعله ماشيا ، وخبر مسلم صحيح مسلم الحج (١٢٧٣)،سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٧٥)،سنن أبو داود المناسك (١٨٨٠). أنه طاف في حجة الوداع راكبا على راحلته بالبيت وبالصفا والمروة لا ينافي ذلك وإن كان سعيه في تلك الحجة إنما كان مرة واحدة وعقب طواف القدوم لأن الواو لا تقتضي ترتيبا . اهـ متن الإيضاح في مناسك الحج للنووي مع شرحه لابن حجر الهيثمي ج١١ ص٢٥٥ . . وقال في الإيضاح أيضا : ويجوز الطواف في أخريات المسجد وفي أروقته وعند بابه من داخله وعلى أسطحته ولا خلاف في شيء من هذا لكن قال بعض أصحابنا يشترط في صحة الطواف أن يكون البيت أرفع بناء من السطح كما هو اليوم حتى لو رفع سقف المسجد فصار سطحه أعلى من البيت لم يصح الطواف على هذا السطح وأنكره عليه الإمام أبو القاسم الرافعي . اهـ الإيضاح للنووي ج١ ص٢٣٩ مع شرحه للهيثمي . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٨٧)

وقال ابن قدامة : لا نعلم خلافا في صحة طواف الراكب إذا كان له عذر . . . إلى أن قال – فصل – فأما الطواف راكبا أو محمولا لغير عذر فمفهوم كلام الخرقي أنه لا يجزئ وهذا هو إحدى الروايات عن أحمد لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٢٢)،مسند أحمد بن حنبل (٦٤/٤). الطواف بالبيت صلاة . ولأنها عبادة تتعلق بالبيت فلم يجز فعلها راكبا لغير عذر كالصلاة .

والثانية يجزئه ويجبره بدم ، وهو قول مالك ، وبه قال أبو حنيفة إلا أنه قال : يعيد ما كان بمكة فإن رجع جبره بدم لأنه ترك صفة واجبة من واجبات الحج فأشبه ما لو وقف بعرفة نهارا ودفع قبل غروب الشمس .

(٢٥٥/١)

والثالثة يجزئه ولا شيء عليه اختارها أبو بكر وهي مذهب الشافعي وابن المنذر لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالطواف مطلقا فكيفما أتى به أجزأه ولا يجوز تقييد المطلق إلا بدليل ثم قال : فصل فأما السعي راكبا فيجزئه لعذر ولغير عذر لأن المعنى الذي منع الطواف راكبا غير موجود فيه. اهـ المغني والشرح الكبير جـ٢ ص٤١٥ . .

وقال البهوتي كشاف القناع جـ٢ ص٤٣٣ . : ومن طاف أو سعى راكبا أو محمولا لغير عذر لم يجزئه الطواف ولا السعي لقوله صلى الله عليه وسلم سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٢٢)،مسند أحمد بن حنبل (٦٤/٤). الطواف بالبيت صلاة (ولأنه عبادة تتعلق بالبيت فلم يجز فعلها راكبا كالصلاة والسعي كالطواف والطواف أو السعي راكبا أو محمولا لعذر يجزئ لحديث ابن عباس صحيح البخاري الحج (١٥٣٠)،صحيح مسلم الحج (١٢٧٢)،سنن النسائي المساجد (٧١٣)،سنن أبو داود المناسك (١٨٧٧)،سنن ابن ماجه المناسك (٢٩٤٨). أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف في حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجن ، وعن أم سلمة قالت صحيح البخاري الصلاة (٤٥٢)،صحيح مسلم الحج (١٢٧٦)،سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٢٥)،سنن أبو داود المناسك (١٨٨٢)،مسند أحمد بن حنبل (٣١٩/٦). شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أشتكي فقال : " طوفي من وراء الناس راكبة . متفق عليه . ولأن طوافه صلى الله عليه وسلم راكبا لعذر كما يشير إليه قول ابن عباس صحيح مسلم الحج (١٢٦٤). كثر عليه الناس يقولون هذا محمد هذا محمد حتى خرج العواتق من البيوت ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا تضرب الناس بين يديه فلما كثروا عليه ركب . رواه مسلم ، واختار الموفق والشارح يجزئ السعي راكبا ولو لغير عذر . ا هـ .

(٢٥٦/١)

مما تقدم يتبين أنه يجوز للحاج والمعتمر أن يطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة راكبا لعذر باتفاق ولا شيء عليه – أما غير المعذور فله أن يسعى راكبا لكن المشي له أفضل ، وفي طوافه راكبا خلاف فقيل يجزئه ولا شيء عليه لأن النبي صلى الله عليه وسلم طاف طواف الزيارة راكبا ، وقيل يجزئه وعليه دم جبرا ، لأن الطواف له حكم الصلاة في الجملة ، والمفترض لا يصلي محمولا ، ولأن ركوبه صلى الله

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٨٨)

عليه وسلم في الطواف كان لوجع في رجله أو ليراه الناس فيسألوه وقيل لا يجزئه لحديث سنن النسائي مناسك الحج (٢٩٢٢)،مسند أحمد بن حنبل (٦٤/٤). الطواف بالبيت صلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام والمفترض لا تصح صلاته راكبا لغير عذر ، وطواف النبي صلى الله عليه وسلم راكبا كان لعذر كما تقدم ، .

وعلى هذا يمكن أن يقال بإجزاء السعي على سقف المسعى بل بجوازه وإن كان المشي أفضل لشبهه بالسعي راكبا بعيرا ونحوه ، إذ الكل غير مباشر للأرض في سعيه وخاصة أنه لم يرد في السعي ما يلحقه بالصلاة في حكمها بل أنه أولى من الطواف راكبا بالإجزاء فإذا صح الطواف راكبا لعذر صح

السعي فوق سقف المسعى لعذر ، وفي سعيه فوقه لغير عذر يكون فيه الخلاف في جوازه وإجزائه ، وأخيرا إن اعتبر في إجزاء السعي فوق سقف المسعى أو جوازه وجود العذر نظر في زحام السعاة في الحج والعمرة ، هل يقوم عذرا أو لا . والله الموفق .

(٢٥٧/١)

وأما الأمر الثالث

وقد يسترشد فيه بالقرآن وأقوال الفقهاء قال الله تعالى سورة البقرة الآية ١٤٩ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ في هذه الآية خطاب من الله للناس في كل مكان أن يولوا وجوههم قبل المسجد الحرام سواء منهم من كان بأرض منخفضة عن المسجد الحرام فيكون مستقبلا في صلاته لتخوم أرضه ومن كان منهم بمكان مرتفع عن سطح الكعبة ، فيكون مستقبلا لما فوق الكعبةمن الهواء ، فدل ذلك على أن حكم ما تحت البيت الحرام من تخوم الأرض وما فوقه من الهواء في استقبال القبلة في الصلاة حكم استقبال البيت نفسه . وفيما يلي نقول عن بعض أهل العلم في الموضوع :

قال السرخسي : ومن صلى على سطح الكعبة جازت صلاته عندنا وإن لم يكن بين يديه سترة ، وقال الشافعي : لا يجوز إلا أن يكون بين يديه سترة بناء على أصله أن البناء معتبر في جواز التوجه إليه للصلاة ثم قال : وعندنا القبلة هي الكعبة فسواء كان بين يديه سترة أم لم يكن فهو مستقبل القبلة ، وبالاتفاق من صلى على أبي قبيس جازت صلاته وليس بين يديه شيء من بناء الكعبة فدل على أنه لا معتبر للبناء . ا هـ المبسوط ج٢ ص٧٩ . .

وقال المرغيناني الهداية وعليها فتح القدير ج١ ص١٨٩ . : " ومن كان غائبا ففرضه إصابة جهتها هو الصحيح لأن التكليف بحسب الوسع .

وقال ابن الهمام تعليقا على قول المرغيناني : إصابة جهتها . قال : قوله " إصابة جهتها " في الدراية عن شيخه ما حاصله أن استقبال الجهة أن يبقى شيء من سطح الوجه مسامتا للكعبة أو لهوائها لأن المقابلة إذا قعت في مسافة بعيدة لا تزول بما يزول به من الانحراف لو كانت مسافة قريبة ، ويتفاوت ذلك بحسب تفاوت

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٨٩)

(٢٥٨/١)

البعد وتبقى المسامتة مع انتقال مناسب لذلك البعد فلو فرض خط من تلقاء وجه المستقبل للكعبة على التحقيق في بعض البلاد ، وخط آخر يقطعه على زاويتين قائمتين من جانب يمين المستقبل وشماله لا تزول تلك المقابلة والتوجه بالانتقال إلى اليمين والشمال على ذلك الخط بفراسخ كثيرة . . ا هـ .

وقال الدسوقي : حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ج١ ص٢٢٩ . " قوله وبطل فرض على ظهرها " أي على ظهر الكعبة " قوله فيعاد أبدا " أي على المشهور ولو كان بين يديه قطعة من حائط سطحها بناء على أن المأمور به استقبال جملة البناء لا بعضه ولا الهواء وهو المعتمد ، وقيل إنما يعاد بناء على كفاية استقبال هواء البيت أو استقبال قطعة من البناء ولو من حائط سطحه. ا هـ .

وقد ذكر نحوا من ذلك الحطاب مواهب الجليل على مختصر خليل ج١ ص٥١١- ٥١٣ . .

وقال الشيخ محمد عرفة الدسوقي : ملخصا حكم الصلاة على ظهر الكعبة " فتحصل من كلام الشارح أن الفرض على ظهرها ممنوع اتفاقا ، وأما النفل ففيه أقوال ثلاثة ، الجواز مطلقا ، والجواز إن كان غير مؤكد ، والمنع وعدم الصحة مطلقا ، قال شيخنا : وهذا الأخير هو أظهر الأقوال ، " تنبيه " سكت المصنف عن حكم الصلاة تحت الكعبة في حفرة ، وقد قدم أن الحكم بطلانها مطلقا ، فرضا أو نفلا ، لأن ما تحت المسجد لا يعطى حكمه بحال ، ألا ترى أن الجنب يجوز له الدخول تحته ، ولا يجوز له الطيران فوقه ، كذا قرره شيخنا . .

وكتب الشيخ محمد عليش في تقريره على حاشية الدسوقي والشرح الكبير للشيخ أحمد الدردير ما نصه : " وإنما جاز على جبل أبي قبيس مع أنه أعلى من بنائها لأن المصلي عليه مصل إليها وأما المصلي على ظهرها فهو فيها ، انتهى ضوء الشموع " ا هـ .

(٢٥٩/١)

وقال النووي المهذب مع شرحه المجموع للنووي جـ٣ ص١٩٨ . : أما حكم المسألة فقال أصحابنا لو وقف على أبي قبيس أو غيره من المواضع العالية على الكعبة وبقربها صحت صلاته بلا خلاف لأنه يعد مستقبلا وإن وقف على سطح الكعبة نظر إن وقف على طرفها واستدبر باقيها لم تصح صلاته بالاتفاق لعدم استقبال شيء منها وهكذا لو انهدمت –والعياذ بالله – فوقف على طرف العرصة واستدبر بلقيها لم تصح صلاته ولو وقف خارج العرصة واستقبلها صح بلا خلاف ، وأما إذا وقف في وسط السطح أو العرصة فإن لم يكن بين يديه شيء شاخص لم تصح صلاته على الصحيح المنصوص ، وبه قال أكثر الأصحاب ، وقال ابن سريج تصح وبه قال أبو حنيفة (الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٩٠)

وداود ، ومالك في رواية عنه كما لو وقف على أبي قبيس ، وكما لو وقف خارج العرصة واستقبلها

، والمذهب الأول والفرق أنه لا يعد هنا مستقبلا بخلاف ما قاس عليه ، وهذا الوجه الذي لابن سريج جاز في العرصة والسطح كما ذكرنا كذا نقله عنه إمام الحرمين وصاحب التهذيب وآخرون ،وكلام المصنف يوهم أنه لا يقول به في السطح وليس الأمر كذلك . ا هـ .

وقال ابن قدامة : ولو صلى على جبل عال يخرج من مسامتة الكعبة صحت صلاته ، وكذلك لو صلى في مكان ينزل عن مسامتتها لأن الواجب استقبالها وما يسامتها من فوقها وتحتها بدليل ما لو زالت الكعبة – والعياذ بالله – صحت الصلاة إلى موضع جدارها . ا هـ المغني مع الشرح الكبير ج١ ص٤٦٣ . .

(٢٦٠/١)

وقال البهوتي : ولا يضر علو على الكعبة كما لو صلى على أبي قبيس ، ولا نزوله عنها كما لو صلى في حفيرة تنزل عن مسامتتها لأن العبرة بالبقعة لا بالجدران . ا هـ متن الإقناع مع شرح كشاف القناع ج٢ ص٧٩ . . مما تقدم يتبين أن من صلى على مكان مرتفع عن سطح الكعبة مستقبلا ما فوق سطحها من هواء صحت صلاته إجماعا . كمن صلى فوق جبل أبي قبيس أو في بلاد سطح أرضها أعلى من سطح الكعبة ، ومن صلى الفريضة فوق الكعبة مستقبلا ما أمامه من هوائها أو مستقبلا سترة بين يديه ففي صحة صلاته خلاف ، بناء على الاكتفاء باستقبال جزء من بناء الكعبة أو جزء من هوائها في صحة الصلاة ، وعدم الاكتفاء بذلك بل لا بد من شاخص أو استقبال جملة البناء أو جملة الهواء أما من على سطحها أو في جوفها فيقال فيه أنه مستدير الكعبة أو هواءها باعتبار كما يقال أنه مستقبل باعتبار آخر فلم يتحقق فيه شرط الاستقبال بإطلاق ، فلا تصح صلاته . ومن صلى على طرفها وجعل هواءها وراءه بطلت صلاته لأنه لم يستقبل شيئا من بنائها ولا من هوائها ، وعلى هذا يمكن أن يقال : إذا كان استقبال ما فوق الكعبة من هواء في الصلاة كاستقبال بنائها فالسعي فوق سقف المسعى في حكم السعي على أرض المسعى .

(٢٦١/١)

وأما الأمر الرابع

فروى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال :

قال صحيح مسلم الحج (١٢٩٧)،سنن النسائي مناسك الحج (٣٠٦٢)،سنن أبو داود المناسك (١٩٧٠)،مسند أحمد بن حنبل (٣٣٧/٣). رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي الجمرة على

راحلته يوم النحر ويقول لتأخذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه . رواه أحمد ومسلم والنسائي المنتقى مع شرح للشوكاني ج٥ ص٧٠ . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٩١)

وما روى أبو داود وابن ماجه في سننهما عن يزيد بن أبي زياد عن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أمه قالت سنن أبو داود المناسك (١٩٦٦)،سنن ابن ماجه المناسك (٣٠٣١)،مسند أحمد بن حنبل (٣٧٩/٦). رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي الجمرة من بطن الوادي وهو راكب يكبر مع كل حصاة ورجل خلفه يستره فسألت عن الرجل فقالوا الفضل بن عباس وازدحم الناس فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس لا يقتل بعضكم بعضا وإذا رأيتم الجمرة فارموا بمثل حصى الحذف سكت أبو داود عن الحديث وقال المنذري في إسناده يزيد بن أبي زياد مختصر سنن أبي للمنذري ج٢ ص٤١٥ . .

وقال الشوكاني : قوله على راحلته استدل به على أن رمي الراكب لجمرة العقبة أفضل من رمي الراجل ، وبه قالت الشافعية ، والحنفية ، والناصر ، والإمام يحيى ، وقال الهادي والقاسم : إن رمي الراجل أفضل . ا هـ نيل الأوطار ج٥ ص٧١ . .

(٢٦٢/١)

وقال ابن عابدين : وقوله " وجاز الرمي راكبا – إلخ " عبارة الملتقى أخص وهي جاز الرمي راكبا وغير راكب أفضل في جمرة العقبة . انتهى ، وفي اللباب ، والأفضل أن يرمي جمرة العقبة راكبا وغيرها ماشيا في جميع أيام الرمي – إلى أن قال : والضابط أن كل رمي يقف بعده فإنه يرميه ماشيا وهو كل رمي بعده رمي كما مر ومالا فلا ثم هذا التفصيل قول أبي يوسف وله حكاية مشهورة ذكرها (ط) وغيره وهو مختار كثير من المشايخ كصاحب الهداية والكافي والبدائع وغيرهم ، وأما قولهما فذكر في البحر أن الأفضل الركوب في الكل على ما في الحاشية ، والمشي في الكل على ما في الظهيرية وقال : فتحصل إن في المسالة ثلاثة أقوال – ثم قال : " قوله ورجحه الكمال " أي بأن أداءها ماشيا أقرب إلى التواضع والخشوع وخصوصا في هذا الزمان فإن عامة المسلمين مشاة في جميع الرمي فلا يؤمن من الأذى بالركوب بينهم – بالزحمة ، ورميه عليه السلام راكبا إنما هو ليظهر فعله ليقتدى به كطوافه راكبا . ا هـ .

قال في البحر : " ولو قيل بأنه ماشيا أفضل إلا في رمي جمرة العقبة وفي اليوم الأخير لكان له وجه لأنه ذاهب إلى مكة في هذه الساعة كما هو العادة وغالب الناس راكب فلا إيذاء في ركوبه مع تحصيل فضيلة الاتباع له عليه الصلاة والسلام . ا هـ رد المحتار على الدر المختار ج١ ص٢٥٤ . . وقال السرخسي : وإن رماها راكبا أجزأه لحديث جابر رضي الله عنه سنن الترمذي الحج

(٨٩٩)،سنن ابن ماجه المناسك (٣٠٣٤)،مسند أحمد بن حنبل (٢٣٢/١). أن النبي صلى الله عليه وسلم " رمى الجمار راكبا . ا هـ المبسوط ج٤ ص٦٩ . .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٩٢)

(٢٦٣/١)

وفي المدونة الكبرى : قلت فهل يرمي الرجل الجمار راكبا أو ماشيا قال : قال مالك أما الشأن يوم النحر فيرمي جمرة العقبة راكبا كما يأتي على دابته يمضي كما هو يرمي ، وأما في غير يوم النحر فكان يقول يرمي ماشيا قلت فإن ركب في رمي الجمار في الأيام الثلاثة أو مشي يوم النحر إلى جمرة العقبة فرماها ماشيا هل عليه لذلك شيء ؟ قال : ليس عليه لذلك شيء . ا هـ المدونة الكبرى جـ١ ص٢٣٥ . .
وقال الدسوقي : " قوله وإن راكبا " أي هذا إذا وصل إليها ماشيا بل إن وصل إليها راكبا وهذا من تعليقات الندب أي أنه يندب أن يرميها حين وصوله على الحالة التي وصل عليها من ركوب أو مشي فلا يصبر حتى ينزل إذا وصل راكبا ولا يصبر حتى يركب إذا وصل إليها ماشيا لأن فيه عدم الاستعجال برميها . ا هـ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير جـ٢ ص٤٥ .
وقال الشافعي : ولا يرمي يوم النحر إلا جمرة العقبة وحدها ويرميها راكبا وكذلك يرميها يوم النفر راكبا ويمشي في اليومين الآخرين أحب إلي ثم قال : وإن ركب فلا شيء علي – ثم ساق رواية قدامة بن عبد الله بن عمار الكلابي قال سنن الترمذي الحج (٩٠٣)،سنن النسائي مناسك الحج (٣٠٦١)،سنن ابن ماجه المناسك (٣٠٣٥)،مسند أحمد بن حنبل (٤١٣/٣)،سنن الدارمي المناسك (١٩٠١). رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي جمرة العقبة على ناقته الصهباء وليس ضرب ولا طرد ولكن قيل إليك إليك . ا هـ الأم للشافعي جـ٢ ص٢١٣ . .

(٢٦٤/١)

وقال النووي : المجموع للنووي جـ٨ ص١٨٣ . (فرع) مذهبنا أنه يستحب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا إن كان دخل منى راكبا ويرمي في أيام التشريق ماشيا إلا يوم النفر فراكبا ، وبه قال مالك ، قال ابن المنذر : وكان ابن عمر وابن الزبير وسالم يرمون مشاة واستحبه أحمد وكره جابر الركوب إلى شيء من الجمار إلا لضرورة . قال وأجمعوا على أن الرمي يجزئه على أي حال إذا وقع في المرمى دليلنا الأحاديث الصحيحة السابقة سنن الترمذي الحج (٨٩٩)،سنن ابن ماجه

المناسك (٣٠٣٤)،مسند أحمد بن حنبل (٢٣٢/١). أن النبي صلى الله عليه وسلم رمى جمرة العقبة راكبا يوم النحر والله أعلم .

وقال ابن قدامة المغني مع الشرح الكبير جـ٣ ص٤٤٩ . : ويرميها راكبا أو راجلا كيفما شاء لأن النبي صلى الله عليه وسلم رماها على راحلته رواه جابر وابن عمر وأم أبي الأحوص وغيرهم قال جابر : صحيح مسلم الحج (١٢٩٧)،سنن النسائي مناسك الحج (٣٠٦٢)،سنن أبو داود المناسك (١٩٧٠)،مسند أحمد بن حنبل (٣٣٧/٣). رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي على راحلته يوم النحر ويقول خذوا عني مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتى هذه .

وقال نافع : كان ابن عمر يرمي جمرة العقبة على دابته يوم النحر وكان لا يأتي سائرها بعد ذلك إلا ماشيا ذاهبا وراجعا وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يأتيها إلا ماشيا ذاهبا وراجعا رواه أحمد في المسند .

ثم قال وفي هذا بيان للتفريق بين هذه الجمرة وغيرها . ا هـ .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٩٣)

(٢٦٥/١)

وقال البهوتي كشاف القناع ج٢ ص ٤٤٩ : فإذا وصل إلى منى . . . بدأ بها راكبا إن كان راكبا الحديث صحيح مسلم الحج (١٢٩٦)،سنن الترمذي الحج (٩٠١)،سنن النسائي مناسك الحج (٣٠٧٣)،سنن أبو داود المناسك (١٩٧٤)،سنن ابن ماجه المناسك (٣٠٣٠)،مسند أحمد بن حنبل (٤٢٧/١). ابن مسعود أنه انتهى إلى جمرة العقبة فرماها من بطن الوادي بسبع حصيات وهو راكب يكبر مع كل حصاة . . – إلى أن قال – : ههنا كان يقوم الذي أنزلت عليه سورة البقرة . رواه أحمد . وظاهر كلام الأكثر ماشيا وإلا أي لم يكن راكبا رماها ماشيا . ا هـ .

مما تقدم يتبين أن النبي صلى الله عليه وسلم رمى الجمرة راكبا وأن الفقهاء اتفقوا على أنه يجزئ الرمي راكبا وماشيا ، واختلفوا في الأفضل منهما ، هل هو الرمي ماشيا ، لأنه أقرب للتواضع والبعد عن إيذاء المشاة ، وإنما رماها صلى الله عليه وسلم راكبا ليراه الناس ويسألوه ويقتدوا به ، أو الرمي راكبا اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وعلى هذا يمكن أن يقال : إذا جاز رمي الجمرات راكبا جاز السعي فوق سقف المسعى ، فإن كلا منهما نسك أدي من غير مباشرة مؤديه للأرض التي أدى عليها ، بل السعي فوق السقف أقرب من أداء أي شعيرة من شعائر الحج أو العمرة فوق البعير ونحوه لما في البناء من الثبات الذي لا يوجد في المراكب .

ونظرا إلى أن السعي فوق سقف المسعى لم نقف فيه على نصوص للفقهاء وأن ما يرجع إليه من

أقوالهم للاسترشاد بها على هذه المسألة ليس بكثير وليس الخلاف فيه كثيرا اكتفينا بما نقلناه سائلين الله التوفيق للجميع ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، ، ، ، ، ،

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو ... عضو ... نائب الرئيس ... رئيس اللجنة

عبد الله بن سليمان بن منيع ... عبد الله بن عبد الرحمن بن غديان ... عبد الرزاق عفيفي ... إبراهيم بن محمد آل الشيخ

(٢٦٦/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٩٤)

الخلاصة

وبعد اطلاع الهيئة على البحث المتقدم ، ودراستها للمسألة ، واستعراض أقوال أهل العلم في حكم الطواف والسعي والرمي راكبا والصلاة إلى هواء الكعبة أو قاعها ، وكذا حكم الطواف فوق أسطحة الحرم وأروقته ، وحكمهم بأن من سلك أرضا ملك أسفلها وأعلاها . وبعد تداول الرأي والمناقشة انتهى المجلس بالأكثرية إلى الإفتاء بجواز السعي فوق سقف المسعى عند الحاجة بشرط استيعاب ما بين الصفا والمروة وإن لا يخرج عن مسامتة المسعى عرضا لما يأتي :

١ – لأن الحكم أعلى الأرض وأسفلها تابع لحكمها في التملك والاختصاص ونحوهما فللسعي فوق سقف المسعى حكم السعي على أرضه .

٢ – لما ذكره أهل العلم من أنه يجوز للحاج والمعتمر أن يطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة راكبا لعذر باتفاق ولغير عذر على خلاف من بعضهم ، فمن يسعى فوق سقف المسعى يشبه من يسعى راكبا بعيرا ونحوه إذ الكل غير مباشر للأرض في سعيه وعلى رأي من لا يرى جواز السعي راكبا لغير عذر فإن ازدحام السعاة في الحج يعتبر عذرا يبرر الجواز . . .

٣ – أجمع أهل العلم على أن استقبال ما فوق الكعبة من هواء في الصلاة كاستقبال بنائها بناء على أن العبرة بالبقعة لا بالبناء ، فالسعي فوق سقف المسعى كالسعي على أرضه . .

٤ – اتفق العلماء على أنه يجوز الرمي راكبا وماشيا واختلفوا في الأفضل منهما ، فإذا جاز رمي الجمرات راكبا جاز السعي فوق سقف المسعى فإن كلا منهما نسك أدي من غير مباشرة مؤديه للأرض التي أداه عليها بل السعي فوق السقف أقرب من أداء أي شعيرة من شعائر الحج أو العمرة فوق البعير ونحوه لما في البناء من الثبات الذي لا يوجد في المراكب . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٩٥)

٥ – لأن السعي فوق سقف المسعى لا يخرج عن مسمى السعي بين الصفا والمروة ولما في ذلك من التيسير على المسلمين والتخفيف مما هم فيه من الضيق والازدحام .

(٢٦٧/١)

وقد قال الله تعالى : سورة البقرة الآية ١٨٥ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وقال تعالى : سورة الحج الآية ٧٨ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مع عدم وجود ما ينافيه من كتاب أو سنة بل أن فيما تقدم من المبررات ما يؤيد القول بالجواز عند الحاجة وقد ذكر ابن حجر الهيثمي رحمه الله رأيه في المسألة فقال في حاشية على الإيضاح لمحيي الدين النووي ص (١٣١) ولو مشى أو مر في هواء السعي فقياس جعلهم هواء المسجد مسجدا صحة سعيه . ا هـ .

(٢٦٨/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٩٦)

سورة الأنعام الآية ١٥٣

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ

(٢٦٩/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٩٧)

مجلة البحوث الإسلامية

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

الاقتصاد

حكم الأوراق النقدية

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٩٨)

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد وآله وصحبه .

وبعد : فقد عرض على هيئة كبار العلماء رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية– موضوع " الورق النقدي " حيث تم إدراجه في جداول أعمال الهيئة

لدورتها الثالثة المنعقدة في شهر ربيع الثاني عام ١٣٩٣ هـ .

وفي تلك الدورة قدمت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بحثا في الموضوع هذا نصه : . . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ١٩٩)

الفهرس

تعريف النقد

نشأة النقود وتطورها

قاعدة النقد الورقي

سر القابلية العامة لاعتبار النقد واسطة تعامل

آراء فقهية في حقيقة الأوراق النقدية

الأوراق النقدية أسناد

الأوراق النقدية عروض

الأوراق النقدية فلوس

الأوراق النقدية متفرعة عن ذهب أو فضة ، وأجناس تتعدد بتعدد جهات إصدارها

علة الربا في النقدين

الأوراق النقدية نقد قائم بنفسه

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٠٠)

حكم الأوراق النقدية

تعريف النقد

يقول علماء الاقتصاد : إن للنقد ثلاث خصائص متى توفرت في مادة ما اعتبرت هذه المادة نقدا .

الأولى : أن يكون وسيطا للتبادل .

الثانية : أن يكون مقياسا للقيم .

الثالثة : أن يكون مستودعا للثروة .

وعلى هذا الأساس قيل إن النقد هو أي شيء يلقى قبولا عاما كوسيط للتبادل مهما كان ذلك الشيء وعلى أي حال يكون ، وفي أقوال بعض أهل العلم الشرعي ، ما قد يؤيد هذا التعريف ، ففي المدونة الكبرى ما نصه :

ولو أن الناس أجازوا بينهم الجلود حتى يكون لها سكة وعين لكرهتها أن تباع بالذهب والورق نظرة .

ا هـ انظر كتاب الصرف من المدونة . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٠١)

قد يقال إن كراهة مالك لذلك من باب الاحتياط ، لا لأنه أنزلها منزلة الذهب والفضة حقيقة بدليل ما جاء في المدونة الكبرى من كتاب الزكاة ، قال ابن القاسم : سألت مالكا عن الفلوس تباع بالدراهم والدنانير نظرة ويباع الفلس بالفلسين ، قال مالك : إني أكره ذلك وما أراه مثل الذهب والورق في الكراهية .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : وأما الدرهم والدينار فما يعرف له حد طبعي ولا شرعي ، بل مرجعه إلى العادة والاصطلاح ، وذلك لأن في الأصل لا يتعلق المقصود به بل الفرض أن يكون معيارا لما يتعاملون به ، والدراهم والدنانير لا تقصد بنفسها بل هي وسيلة إلى التعامل بها ، ولهذا كانت أثمانا بخلاف سائر الأموال ، فإن المقصود الانتفاع بها نفسها فلهذا كانت مقدرة بالأموال الطبيعية أو الشرعية ، والوسيلة المحضة التي لا يتعلق بها غرض لا بمادتها ولا بصورتها يحصل بها المقصود كيف ما كانت . أهـ انظر ص ٢٤١ – ٢٥٢ من الجزء التاسع عشر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية . .

وبهذا يمكن القول بأن النقد شيء اعتباري سواء كان ذلك الاعتبار ناتجا عن حكم سلطاني أو عرف عام ، وقد يقال إن النقد ليس شيئا اعتباريا محضا ناتجا عن حكم سلطة الإصدار بل يتوقف اعتباره نقدا على قيمة ذاتية أو غطاء كامل مع اعتبار السلطة لنقديته أو جريان العرف بذلك .

(٢٧١/١)

نشأة النقود وتطورها

الإنسان مدني بطبعه ، قليل بنفسه كثير بغيره ، فكل محتاج إلى ما عند غيره ، ومن طبيعة الإنسان أن يضن ببذل ما عنده إلا بعوض ، لذا نشأت الحاجة إلى ما يسمى بالمقايضة ، ويذكر أن نظام المقايضة قد ساد وقتا ما إلا أن تطور الحياة ، وما في الأخذ بالمقايضة من صعوبات أدى إلى الأخذ بوسيط آخر يكون أيسر ، ويصلح وحده للمحاسبة ، ومقياسا للقيم ، وخزانة للثروة وقوة شرائية غير محدودة ، إلا أن كل أمة اختارت وسيطا يناسب البيئة التي تعيشها ، ولم يعد هذا الوسيط أن يكون سلعا متنوعة من الأصداف ، والخرز ، والرياش ، وأنياب الفيلة ، ونحوها ، ولما تطورت الحياة البشرية ظهر عجز السلع عن مسايرة هذا التقدم فاتجه الفكر إلى وسيط سهل الحمل عظيم القيمة له من المميزات ما يحفظه من عوامل التلف والتأرجح بين الزيادة والنقصان ، فاتخذوا الوسيط للتبادل من المعادن النفيسة على شكل سبائك وقطع غير مسكوكة ، غير أن اختلاف أنواعها وعدم وجود سكة لها أدى إلى التلاعب في وزنها ، وإلى صعوبات في تقديرها عند التبادل ، فتدخل ولاة

الأمر ورأوا احتكار إصدار الوسيط
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٠٢)

(٢٧٢/١)

وأن يكون قطعا متنوعة من المعادن معلومة الوزن مختوما على كل قطعة ما يدل على مسئولية الحاكم عنها ، وبهذا تحقق في النقد الثقة والاطمئنان إليه والقدرة على إدارة التعامل به ، إلا أن هذه القدرة غير تامة للصعوبة النسبية في حمله ونقله من مكان إلى آخر ، لذلك اتجه الفكر إلى الأخذ بالعملات الورقية ، على أن الأخذ بالعملات الورقية لم يكن دفعة واحدة ، وإنما كان على مراحل ، فخوفا على ضياع النقد في الأسفار التجارية اختار التجار طريق التحويل لمن يريدون التعامل معه ، ثم رأوا عدم تعيين أشخاصهم في الحوالة ، ولما كثر التعامل بهذه الطريقة ، ووجدت الأوراق التحويلية قبولا أصدر الصيارفة أوراقا مصرفية جديدة بقدر الجزء المتداول في الأسواق ، وبهذا صارت جزءا من النقود لها قبول عام ، وصارت خزائن للثروة ومقياسا للقيم ، وقوة شرائية مطلقة . لكن إصدارها كان مشوبا بالفوضى والتلاعب فساءت سمعة هذه الأوراق وضعفت الثقة بها فتدخل ولاة الأمور في الإصدار ومراقبته وتحديده وتعيين شكل للورقة النقدية فاكتسبت بذلك قوة الإبراء التام ، ثم جرى العمل على أن من طلب من جهة الإصدار والاستعاضة عما تعهدت به في الورقة بنقود معدنية دفع إليه ، ثم تخلف الوفاء بهذا التعهد إلا إذا كان ما طلب استرجاعه كثيرا ، وأخيرا تخلف الوفاء بما تعهد به إلا بمثله من الورق ، وبذلك انقطعت العلاقة بين الورقة النقدية والنقد المعدني وصارت قيمة وحدة النقود الورقية قيمة مستقلة .

(٢٧٣/١)

قاعدة النقد الورقي
لا شك أن أي نقد قابل للتداول العام كوسيط للتبادل لا بد أن يكون له ما يسنده ويدعو إلى الثقة به كقوة شرائية لا حد لها ، هذا السند إما أن يكون في ذات النقد نفسه كالذهب والفضة ، إذ فيهما قيمتها المقاربة لما يقدران به ، أو يكون ركيزة تدعم النقد وتوحي بالثقة به ، ثم إن هذه الركيزة قد تكون شيئا ماديا محسوسا كالغطاء الكامل للأوراق من ذهب أو فضة أو عقار أو أوراق مالية من أسهم وسندات ، وقد تكون التزاما سلطانيا باعتبارها وضمان قيمتها ، وتكون بذلك أوراقا وثيقية ، وقد تكون الركيزة المستند عليها النقد شيئا ماديا محسوسا والتزاما سلطانيا معا ، فيغطي بعض النقد

الورقي بقيمتها المادية عينا ، ويلتزم السلطان في ذمته بقيمة باقية دون أن يكون لهذا الباقي غطاء مادي محفوظ ، وقد يمثل هذا الباقي غالب النقد الورقي انظر مبادئ الاقتصاد السياسي للدكتورين رأفت المحبوب، وعاطف صدقي وكتاب قصة النقود لوهيب مسيحه .

(٢٧٤/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٠٣)

سر القابلية العامة لاعتبار النقد واسطة تعامل

لعلماء الاقتصاد ثلاث نظريات في سر قابلية النقد للتبادل العام ، قد تكون كل منها صحيحة في فترة ما .

الأولى : النظرية المعدنية :

إن النقد مادة لها قيمة في نفسها قبل اتخاذها وسيطا للتبادل ، كذلك حصلت الثقة بها وكانت ذات قابلية عامة للوساطة في التبادل ، وهذه النظرية صحيحة حينما كان النقد معدنيا، أما اليوم فإن النقد كلما لقي من الناس قبولا عاما وثقة في اعتباره وسيطا للتبادل فيدخل في ذلك النقد الورقي سواء أكان له غطاء حسي أم كان من اعتبار الحاكم له وسيطا وضمانه له .

الثانية : النظرية السلطانية :

وهذه النظرية تقول بأن أمر السلطان هو الذي أكسب الرقد قبولا عاما وثقة به ، ولا شك أن مجرد أمر السلطان لا يكفي في ذلك دون أن يستند إلى مبرر يضمن اطمئنان الأمة إلى هذا الوسيط لتقف إلى جانب السلطان طائعة مختارة .

الثالثة : النظرية النفسانية :

بأن النقد هو الذي تطمئن النفس إلى اعتباره قوة شرائية مطلقة ثقة به واطمئنانا إليه ، سواء أكان له غطاء أم لا ، وسواء أكانت له قيمة ذاتية أم لا ، وسواء أمر السلطان باعتباره أم حصل التراضي والتعارف على استعماله وقبوله .

مما تقدم يمكن أن يستنتج ما يلي :

١ – النقد هو كل شيء يلقى قبولا عاما كوسيط متبادل .

٢ – التعهد المسجل على لكل ورقة نقدية بتسليم حاملها قيمتها عند الطلب كان سابقا في وقت ما لاعتبار خاص بالأوراق النقدية ، أما الآن فليس له من واقع التعامل به نصيب ، وإنما هو الآن يحكي ما مضى ويعني التذكير بمسئولية الجهات المختصة تجاه قيمتها والحد من إصدارها بلا تقدير .

٣ – من الجائز وجود كميات من الأوراق النقدية رعاية عن الغطاء العيني إلا أن الغالب ألا تزيد هذه الكميات عن ٦٥ % من مجموع الأوراق النقدية المتداولة .

(٢٧٥/١)

---

٤ – ليس متعينا أن تكون القاعدة للورق النقدي ذهبا أو فضة إذ لا مانع أن تكون من غيرها كعقار أو أوراق مالية .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٠٤)

٥ – القابلية العامة للنقد من حيث هو نقد في الجملة ليس ناتجا عن قيمة ذاتية في النقد أو عن وازع سلطاني يفرض التعامل به فقط ، وإنما هو الثقة العامة به كقوة شرائية مطلقة ، سواء أكانت هذه الثقة صادرة عن تغطيتها بالمعدن النفيس أو عن الانقياد إلى حكم سلطاني باعتبارها أو عن أي اعتبار آخر يضمن هذه الثقة .

هذه الأمور المستنتجة يمكن أن تكون عونا في إدراك حقيقة الأوراق النقدية والقدرة على تكييفها فقهيا .

(٢٧٦/١)

آراء فقهية في حقيقة الأوراق النقدية

لم تكن الأوراق النقدية معروفة عند قدماء فقهاء الإسلام لعدم تداولها في زمنهم فلذا لم نجد منهم من تعرض لحكمها ، ولما كثر تداولها في البلاد الإسلامية بعد ذلك بحثها الفقهاء من حيث الحقيقة والحكم واختلفت أنظارهم في ذلك تبعا لاختلاف تصورهم لحقيقتها ، وجملة ذلك خمسة أقوال :

الأوراق النقدية أسناد

القول الأول : أن الأوراق النقدية إسناد بدين على جهة إصدارها ، ويوجه أصحاب هذا القول قولهم بما يأتي :

أ – التعهد المسجل على كل ورقة نقدية بتسليم قيمتها لحاملها عند طلبه .

ب – ضرورة تغطيتها بذهب أو فضة أو بهما معا في خزائن مصدريها .

ج – انتقاء القيمة الذاتية لهذه الأوراق حيث إن المعتبر ما يدل عليه من العدد لا قيمتها الورقية .

د – ضمان سلطات إصدارها قيمتها عند إبطالها ومنع التعامل بها .

مستلزمات هذا القول :

إن القول باعتبار الأوراق النقدية أسنادا على مصدريها يستلزم الأحكام الشرعية الآتية :
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٠٥)
أ – منع السلم بها فيما يجوز السلم فيه إذ يشترط في صحة السلم قبض رأس مال السلم في مجلس العقد ، وقبض البائع الأوراق النقدية والحال أنها أسناد يعتبر حوالة بها على مصدريها .
ب – عدم جواز صرفها بنقد معدني من ذهب أو فضة ولو كان يدا بيد لأن الورقة النقدية على رأي أصحاب هذا القول وثيقة بدين غائب عن مجلس العقد ومن شروط الصرف التقابض في مجلس العقد .

(٢٧٧/١)

ج – يعتبر التعامل بالأوراق النقدية بموجب هذا القول من قبيل الحوالة بالمعاطاة على الجهة التي أصدرتها وفي القول بصحة العقود بالمعاطاة خلاف بين أهل العلم فالمشهور في مذهب الشافعي – رحمه الله– عدم صحتها مطلقا لاشتراط أن يكون الإيجاب والقبول فيها لفظيين ، وعلى فرض أن القول باعتبار المعاطاة موضع اتفاق بين أهل العلم فمن شروط الحوالة أن يستطيع المحال استيفاء حقه من المحال عليه وفي مسألتنا لا يمكن أن يستوفي المحال مقابل الورقة من رصيدها كما يدل على ذلك التطبيق العملي فتعتبر الحوالة بذلك باطلة .
د – القول باعتبارها أسنادا بديون على مصدريها يخضعها للخلاف بين أهل العلم في زكاة الدين هل تجب زكاته قبل قبضه أم بعده ، وبالتالي عدم وجوب زكاتها لدى من يقول بعدم وجوبها قبل قبض الدين لامتناع قبض مقابل هذه الأسناد .
هـ – بطلان بيع ما في الذمة من عروض أو أثمان بهذه الأوراق لكونها وثائق بديون غائبة ؛ لأن ذلك من قبيل بيع الكالئ بالكالئ ، وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن بيع الكالئ بالكالئ .
مناقشة هذا القول : المبررات التي وجه بها أصحاب هذا القول قولهم يمكن الإجابة عنها بما يلي :
أولا : أن التعهد القاضي بتسليم المبلغ المرقوم على الورقة لحاملها وقت الطلب ليس له من حقيقة معناه نصيب ؛ إذ لا يختلف اثنان أن المرء لو تقدم لمؤسسة النقد السعودي أو لغيرها من البنوك المركزية المختصة بإصدار الأوراق النقدية بورقة نقدية صادرة ممن تقدم إليه طالبا منه الاستعاضة عنها بما تحتويه من ذهب أو فضة لما وجد استجابة لذلك ولا وفاء لهذا التعهد ، وإنما يرجع الإبقاء على هذا المتعهد –بالرغم من أن الوفاء به لا يتم– إلى تأكيد مسئوليته على جهات إصداره .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٠٦)

(٢٧٨/١)

ثانيا : أما الاستدلال على سنديتها بضرورة تغطيتها جميعا بذهب أو فضة أو بهما معا فقد سبق القول بأن الحاجة إلى تغطيتها جميعها ليست ملحة ، وإنه يكفي تغطية بعضها ، فإنا نجد أن الغالب في النقد الورقي أنه غير مغطى بنقد معدني ، وإنما غطاؤه التزام سلطاني بضمان قيمته في حال تعرضه للبطلان ، وإذن فلا يصلح هذا الدليل سندا لهذا القول .

ثالثا : أما انتفاء القيمة لهذه الأوراق فقد سبق لنا تعريف النقد بأنه أي شيء يلقى قبولا عاما كوسيط للتبادل كما سبقت الإشارة إلى بعض أقوال أهل العلم الشرعي المؤيدة لهذا التعريف ، وعليه فمتى ثبت للأوراق النقدية القابلية العامة لتكون وسيطا فلا فرق بين أن تكون قيمتها في ذاتها أو في خارج عنها ، ويؤيد هذا أن سلطات سك النقود المعدنية جرت على أن تجعل للنقود المعدنية قيما أكثر من قيمتها الذاتية حفاظا على بقائها ومنعا من صهرها سبائك معدنية ، ومتى كنا نرى جزءا من قيمة النقد المعدني ليس له مقابل إلا الالتزام السلطاني ولم نقل بأن الزيادة على قيمته الذاتية سند على الدولة فليبطل القول بأن الأوراق النقدية سند على الدولة على أن هذا القول لا يعني انتفاء مسئولية الدولة عن الهيمنة على ثبات قيمتها في حدود المستوى الاقتصادي العام أو ضمان قيمتها في حال إبطالها .

رابعا : أما ضمان سلطات إصدارها قيمتها وقت إبطالها وتحريم التعامل بها فهذا سر اعتبارها والثقة بتمولها وتداولها ، إذ أن قيمتها ليست في ذاتها ، وإنما هي في ضمان السلطات لها وليس في هذا دلالة على اعتبارها أسنادا بديون على مصدريها ما دام الوفاء بسدادها نقدا معدنيا عند الطلب مستحيلا .

(٢٧٩/١)

على أن القول بسنديتها من الحرج والضيق وإيقاع الناس في مشقة عظيمة في معاملاتهم ما يتنافى مع المقتضيات الشرعية لا سيما بعد أن عم التعامل بهذه الأوراق بين الشعوب الإسلامية وأصبحت هي العملة الوحيدة الرائجة السائدة وما عداها من أنواع النقود فقد كاد ترك استعمالها وسيطا للتبادل يسلبها صفة النقد وأحكامه .

ومن الأصول العامة في الشريعة الإسلامية أن الأمر الذي لم ينص على حكمه إذا دار بين ما يقتضي التشديد على الناس وما يقتضي التخفيف عليهم في عباداتهم ومعاملاتهم ترجح جانب التخفيف على جانب التشديد سورة الحج الآية ٧٨ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ وقوله تعالى سورة البقرة الآية ١٨٥ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وقوله تعالى سورة النساء الآية ٢٨

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد في مسنده والنسائي (الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٠٧)

(٢٨٠/١)

وابن ماجة عن أنس بن مالك ورواه البخاري وغيره عن أبي موسى الأشعري صحيح مسلم الجهاد والسير (١٧٣٢)،سنن أبو داود الأدب (٤٨٣٥)،مسند أحمد بن حنبل (٤١٢/٤). يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها صحيح مسلم السلام (٢١٦٥)،سنن الترمذي الاستئذان والآداب (٢٧٠١)،سنن ابن ماجه الأدب (٣٦٩٨)،مسند أحمد بن حنبل (١٩٩/٦)،سنن الدارمي الرقاق (٢٧٩٤). إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على سواه وفي لفظ صحيح مسلم البر والصلة والآداب (٢٥٩٤)،سنن أبو داود الأدب (٤٨٠٨)،مسند أحمد بن حنبل (٢٢٢/٦). إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه وفي الترمذي وغيره : صحيح البخاري الحدود (٦٤٠٤)،صحيح مسلم الفضائل (٢٣٢٧)،سنن أبو داود الأدب (٤٧٨٥)،مسند أحمد بن حنبل (١٣٠/٦)،موطأ مالك الجامع (١٦٧١). ما خير صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما

(٢٨١/١)

القول الثاني

هذا القول أن الأوراق النقدية عرض من العروض لها ما للعروض من الخصائص والأحكام ويوجهه القائلون به بتوجيهات نلخصها فيما يلي :

أ – الورق النقدي مال متقوم مرغوب فيه ومدخر ويشترى وتخالف ذاته ومعدنه ذات الذهب والفضة ومعدنهما .

ب – الورق النقدي ليس بمكيل ولا موزون وليس له جنس من الأجناس الربوية المنصوص عليها .

جـ – ما كتب عليها من تقدير قيمتها وتعيين اسمها يعتبر أمرا اصطلاحيا مجازيا لا تخرج به عن حقيقتها من أنها مال متقوم ليست من جنس الذهب والفضة ولا غيرهما من الأموال الربوية .

د – انتفاء الجامع بين الورق النقدي والنقد المعدني في الجنس وإمكان التقدير والمماثلة أما الجنس فالورق النقدي قرطاس والنقد المعدني معدن نفيس من ذهب أو فضة أو غيرهما من المعادن ، وأما

إمكان التقدير فالنقد المعدني موزون ، أما القرطاس فلا دخل للوزن ولا للكيل فيه .

هـ – الأصل في المعاملات الحل حتى يرد دليل المنع ، وليس عندنا دليل يمنع ذلك .

مستلزمات هذا القول :

إن القول بعرضية الأوراق النقدية يستلزم الأحكام الشرعية التالية :

أ – عدم جواز السلم بها لدى من يقول باشتراط أن يكون رأس مال السلم نقدا من ذهب أو فضة أو غيرهما من أنواع النقد ؛ لأن الأوراق النقدية بمقتضى هذا القول عروض ، وليست أثمانا .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٠٨)

ب – عدم جريان الربا بنوعيه فيها ، فلا بأس ببيع بعضها ببعض متفاضلة فيجوز بيع العشرة بخمسة عشر أو أقل أو أكثر كما يجوز بيع بعضها ببعض أو بثمن من الأثمان الأخرى كالذهب أو الفضة أو البرنز أو غيرها من المعادن النقدية نسيئة .

جـ – عدم وجوب الزكاة فيها ما لم تعد للتجارة ؛ لأن من شروط وجوب الزكاة في العروض إعدادها للتجارة .

مناقشة هذا القول :

---

١ – أن في القول بعرضية الأوراق النقدية تفريطا تنفتح به أبواب الربا على مصاريعها وتسقط به الزكاة عن غالب الأموال المتمولة في زماننا هذا يتضح ذلك بالمثال الآتي :

مسلم يملك مليون جنيه إسترليني أودعه بأحد المصارف بفائدة قدرها ٨ % لم يقصد بهذا المبلغ التجارة ، وإنما يريده باقيا عند البنك بصفة مستمرة على أن يأخذ فائدته ليقوم بصرفها على نفسه في شئون حياته مثلا ، فلا بأس بمقتضى هذا القول بصنيعه هذا ؛ لأن هذا المبلغ ليس نقدا فيجري فيه الربا ولا زكاة فيه لكونه عرضا لم يقصد به التجارة .

٢ – إذا عمدت الجهات المختصة إلى نوع من جنس الورق فأخرجت للناس منه قصاصات صغيرة مشغولة بالنقش والصور والكتابات وقررت التعامل بها وتلقاها الناس بالقبول فقد انتقل هذا الورق من جنسه باعتبار وانتفى عنه حكم جنسه لذلك الاعتبار لانتفاء فوائد الانتفاع به ورقا يكتب فيه وتحفظ فيه الأشياء فإذا كان الناس يحرصون على الحصول عليه ويرضونه ثمنا لسلعهم سواء أكانت سلعا عينية أم خدمات فليس لأنه مال متقوم مرغوب فيه بعد تقطيعه قصاصات صغيرة مشغولة بالنقش والكتابة والصور ، بل لأنه انتقل إلى جنس ثمني بدليل فقده قيمته كليا في حال إبطال السلطان التعامل به .

أما مخالفة ذاته ومعدنه ذات النقدين الذهب والفضة ومعدنهما فالجواب عن ذلك فرع عن تحقيق

القول في علة الربا في النقدين هل هي الثمنية كما هو رأي المحققين من أهل العلم فينتفي الفارق المؤثر بينهما لاشتراكهما فيها أم أن العلة غيرها .

(٢٨٣/١)

---

٣ – أما القول بأن قيمتها النقدية وتعيين اسمها اصطلاح مجازي لا تخرج به عن حقيقتها من أنها مال متقوم ليس له جنس الذهب ولا الفضة ولا غيرهما من الأموال الربوية فيمكن أن يجاب عن ذلك بأن تسمية هذه الوراق بريال أو جنيه أو دولار أو دينار أو غيرها تعتبر حقائق عرفية لا مجازية لا سيما في وقتنا هذا الذي اختفى فيه الذهب والفضة عن الأسواق كنقد سائد في التداول وحلت هذه المسميات

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٠٩)

محلها في الثمنية .

٤ – وأما القول بانتفاء الجامع بينهما في الجنس وإمكان التقدير فيمكن أن يجاب عنه بعد تحقيق القول في علة الربا في النقدين فإذا كانت العلة في ذلك الثمنية كما سيأتي بيانه وتوضيحه فالجامع موجود .

٥ – وأما القول بأن الأصل في المعاملات الحل حتى يرد دليل المنع فيجاب بالتسليم بهذه القاعدة إلا أن دليل المنع وارد بناء على أن علة الربا في النقدين الثمنية .

(٢٨٤/١)

القول الثالث

الأوراق النقدية فلوس

يتلخص هذا الرأي في أن الأوراق النقدية كالفلوس في طروء الثمنية عليها فما ثبت للفلوس من أحكام الربا والزكاة والسلم وغيرها ثبت للأوراق النقدية مثلها ، ويوجه أصحاب هذا القول رأيهم بأن الأوراق النقدية عملة رائجة أعيانها بما رقم عليها رواج النقدين بقيمتها المرقومة عليها ، وليست ذهبا ولا فضة ، وإنما هي كالفلوس ، ولكنهم اختلفوا في مقتضيات هذا القول فمنهم من لم يلحقها بالنقدين مطلقا ، فلم يوجب فيها الزكاة إلا بنية التجارة ، ولم يجر فيها الربا بنوعيه ، ومنهم من فصل فألحقها بالنقدين في وجوب الزكاة وجريان ربا النسيئة فيها للإجماع على حرمته واعتراف من حرم ربا الفضل بأن حرمة ربا النسيئة أشد إثما من ربا الفضل ولدخول النسيئة في الأنواط في عموم قوله تعالى :

سورة آل عمران الآية ١٣٠ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ولأن مفسدة بيع عشرة أنواط باثني عشر منها بأحد النقدين إلى أجل لا تقل عن مفسدة بيع عشرة دنانير ذهبا باثني عشر دينارا ، وتكاد معرفة الفساد فيهما تكون ضرورية .

وأباح هؤلاء ربا الفضل في الأنواط فأجازوا بيع بعضها ببعض أو بأحد النقدين مع التفاضل إذا كان ذلك يدا بيد ؛ لأن ربا الفضل حرم تحريم الوسائل ، ولكونها غير نقود حقيقية ولموضع الحاجة ، ونظير هذا أن بعض العلماء أجاز بيع الفلوس بعضها ببعض أو بأحد النقدين مع التفاضل إذا كان يدا بيد ومنع من ذلك مؤجلا ، ولأن ربا الفضل أبيح منه ما تدعو إليه الحاجة كبيع العرايا ، ولأن بعض العلماء أجاز بيع الحلي من الذهب بالدنانير وبيع الحلي من الفضة بالدراهم متفاضلا يدا بيد فجعلوا للصنعة أثرا .

مناقشة هذا القول :

١ – إن قياس الأوراق النقدية بالفلوس قياس مع الفارق ، ويتبين ذلك فيما يأتي :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢١٠)

أ – الأوراق النقدية بمزيد قبولها وكثرة رواجها في المعاملات وطغيانها على سائر الأثمان في سوق المعاوضات صارت موغلة في الثمنية إيغالا لا تقصر دونه الفلوس بل نقود الذهب والفضة بعد ندرة التعامل بهما في المعاوضات .

ب – في انتقال الأوراق النقدية من أصلها العرضي إلى الثمنية قوة أفقدتها القدرة على رجوعها إلى أصلها في حال إبطالها بخلاف الفلوس فهي إذا كسدت أو أبطل السلطان التعامل بها فلها قيمة في نفسها كسائر العروض .

جـ – الأوراق النقدية في غلاء قيمتها كالنقدين بل إن بعضا من الورق النقدي يعجز عن اللحاق بقيمته أكبر قطعة نقدية من ذهب أو فضة .

د – تستخدم الفلوس في تقييم المحقرات من السلع ، وهذه المحقرات مما تعم الحاجة إليها فالتخفيف في أحكامها أمر حاجي تقتضيه المصلحة العامة كالعرايا والتجاوز عن يسير الغرر والجهالة .

هـ – نظرا لتفاهة قيمة الفلوس فإن الصفقات ذات القيمة العالية لا تتم بها ، وإنما تتم بالنقدين أو بالأوراق النقدية ، والربا في الغالب لا يكون إلا في صفقات ذات قيمة عالية نسبيا .

هذه الفروق لها أثرها في إعطاء الأوراق النقدية مزيد فضل على الفلوس تختلف به عنها في الأحكام وتجعلها في معنى النقدين الذهب والفضة في الثمنية وفي جريان الأحكام .

(٢٨٦/١)

---

٢ – على فرض التسليم بإلحاق الأوراق النقدية بالفلوس فقد بحث العلماء –رحمهم الله– مسألة الفلوس ، واختلفوا في تكييفها ، وانقسموا في ذلك الاختلاف قسمين تبعا لعاملين يتجاذبانها : عامل أصلها وهو العرضية ، وعامل ما انتقلت إليه وهو الثمنية ، فبعضهم اعتبر أصلها وهو العرضية ففرق بينها وبين النقدين فأثبت لها أحكام أصلها ومنع عنها أحكام النقدين في الربا والصرف والسلم والزكاة وغيرها ، والبعض الآخر اعتبرها نقدا وأثبت لها ما للنقدين من أحكام في الربا والصرف والسلم والزكاة وغيرها وبمزيد من العمق في دراسة مسألة الفلوس والموازنة بين الرأيين يظهر وجاهة القول باعتبارها نقدا لها ما للنقدين الذهب والفضة من أحكام .

(٢٨٧/١)

القول الرابع

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢١١)

الأوراق النقدية متفرعة عن ذهب أو فضة

يتلخص هذا القول في أن الأوراق النقدية بدل لما استعيض بها عنه وهما النقدان الذهب والفضة وللبدل حكم المبدل عنه مطلقا ، ويوجهه أصحابه بأن هذه الأوراق النقدية قائمة في الثمنية مقام ما تفرعت عنه من ذهب أو فضة حالة محلها جارية مجراها معتمدة على تغطيتها بما تفرعت عنه منهما والأمور الشرعية بمقاصدها يؤيد القول بثمنيتها أنه إذا زالت عنها الثمنية أصبحت مجرد قصاصات ورق لا تساوي بعد إبطالها شيئا مما كانت تساويه قبل الإبطال ، ويلزم سلطة الإصدار تعويض حاملها إما بمقابلها من جنس رصيدها وإما بأوراق أخرى تقوم مقام مقابلها من الرصيد ما تراه الدولة من المصلحة .

مستلزمات هذا الرأي :

يستلزم هذا الرأي ما يأتي :

أ – جريان الربا بنوعيه في الأوراق النقدية .

ب – ثبوت الزكاة فيها متى بلغت قيمتها مائتي درهم فضة أو عشرين مثقالا ذهبا إذا استكملت شروط وجوب الزكاة في النقدين ، مع ملاحظة أن ما كان بدلا عن ذهب فلا تجب زكاته حتى تبلغ ثمنيته نصاب الذهب ، وما كان بدلا عن فضة فلا تجب زكاته حتى تبلغ ثمنيته نصاب الفضة .

ج – جواز السلم بها .

د – اعتبارها بغض النظر عن أشكالها وأسمائها وجنسياتها متفرعة عن جنسين هما الذهب والفضة فما كان عن ذهب فله حكم الذهب وما كان عن فضة فله حكم الفضة .
هـ – إذا بودل بين نوعين من الورق النقدي متفرعين عن ذهب أو فضة امتنع التفاضل بينهما ، وإذا بودل بين جنسين من الورق أحدهما متفرع عن ذهب والثاني متفرع عن فضة جاز فيهما التفاضل إذا كان يدا بيد ، وامتنع فيهما التأخير .
مناقشة هذا القول :

(٢٨٨/١)

هذا الرأي مبني على افتراض أن الأوراق النقدية مغطاة غطاء كاملا بذهب أو فضة ، وحيث إن الواقع خلاف ذلك وأن غالب الأوراق النقدية مجرد أوراق وثيقية مستمدة من سن الدولة التعامل بها وتلقي الناس إياها بالقبول ، وأن القليل المغطى لا يلزم أن يغطى بالذهب أو الفضة بل قد يغطى بغيرهما من عقار أو أوراق مالية من أسهم أو سندات لا تقدر قيمتها بذهب ولا فضة ، وإنما تقدر بعمل ورقية ، فضلا عن الحرج والمشقة في القول بهذا الرأي في مسائل الصرف عند اشتراط المماثلة في الجنس وذلك إذا صح ما قيل بانتقاء أي نقد ورقي غطاؤه فضة ، ويمكن أن يورد على هذا النقاش ما يلي :
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢١٢)

(٢٨٩/١)

إن رصيد الأوراق النقدية وإن كان مختلفا ، فبعضه ذهب أو فضة وآخر منه عقار أو أوراق مالية من أسهم وأسناد إلا أن ما كان منه عقارا أو أوراقا مالية لم يعتبر رصيدا بنفسه ، وإنما اعتبر بما قدر به من العمل المتعامل بها سابقا في دولة الإصدار ، ذهبا كانت أم فضة ، وكذا ما كان أوراقا وثيقية عمادها التزام سلطة الإصدار ليست قيمتها من مجرد سن الدولة التعامل بها ، لما سبق في بيان السبب الثاني من أسباب سر قابلية النقد وسيطا في التبادل ، وإنما كسبت الأوراق الوثيقية ثقة الناس بها وقبولها إياها وسيطا في التعامل من ملاءة سلطة الإصدار القائمة مقام الذهب أو الفضة مع سنها التعامل بها ، فعاد الأمر إلى قيم ما كان به مليئا من ذهب أو فضة أو ما يقدر بهما ، وبذلك كان بعض الرصيد ذهبا أو فضة بالفعل ، وبعضه الآخر في حكم الذهب أو الفضة تبعا لنوع العمل المتعارف عليها في الدولة قبل إصدار الأوراق النقدية أما ما قيل من أن هذا الرأي يستلزم

الحرج والمشقة في مسائل الصرف ؛ لاشتراط المماثلة في الجنس فغير مسلم ، فإن ما اشترط من المماثلة في حال معاوضة بديل الذهب مثلا بعضه ببعض قد اشترط في حال معاوضة الذهب نفسه بعضه ببعض ولم يعتبر ذلك حرجا ، فكذا لا يعتبر اشتراط المماثلة في حال المعاوضة في البديل حرجا ، ويؤيد ما ذكر من البديلة واعتبار الرصيد قائما أن قيمة الأوراق النقدية لا تخضع في صعودها وهبوطها لحالة السوق التجارية عرضا وطلبا فقط ، بل تخضع في ذلك أيضا لحالة رصيدها قوة وضعفا ، فإن كان لها نسبة معتبرة من الرصيد مع ملاءة الدولة أو ارتبطت بعملة لدولة أخرى مليئة معتبرة ، كعملة الدولار أو الإسترليني في الوقت الحاضر أثبتت وجودها وعلت قيمتها ، وإلا تزلزلت وهبطت قيمتها ، ومن هنا قيل هذه عملة صعبة وقيل في أخرى ليست صعبة ويشهد لذلك حالة الورق النقدي في بعض الدول العربية حينما انفصل عن الإسترليني فهبط بعد أن كان صاعدا مرتفعا

(٢٩٠/١)

سعره في السوق العالمية ، ويؤيد اعتبار الرصيد أيضا ، وأنه لم يزل قائما أن الدولة إذا أبطلت نوعا من الأوراق النقدية لزمها تعويض من بيده الأوراق إما بأصل الرصيد أو بأوراق أخرى تقوم مقام نصيبها من الرصيد ، وإنما منعت الدولة التعويض عن الأوراق بما يقابلها من نفس الرصيد محافظة على خاماتها الثمينة وحماية لها من تلاعب الناس فيها أو تهريبها إلى غير هذا من أنواع العبث ، وقد يكون احتفاظها بالرصيد لمعنى اقتصادي جعل الدولة تحل الأوراق محل الذهب أو الفضة .

(٢٩١/١)

الأوراق النقدية نقد قائم بنفسه

القول الخامس : يتلخص هذا القول في أن الورق النقدي نقد قائم بنفسه كالذهب والفضة وغيرهما من الأثمان مما يلقى قبولا عاما كوسيط للتبادل بين الناس ، وإن العملات الورقية أجناس تتعدد بتعدد جهات إصدارها .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢١٣)

توجيه هذا القول :

ويمكن أن يوجه هذا القول بما يأتي :

١ – ما عليه البلاد من حال اقتصادية .

٢ – ثقة الناس بها ثقة تامة جعلتها صالحة لتكون مستودعا عاما للادخار ، وقوة للشراء ، ومقياسا للقيم انظر ص ٦ و ٧ من الموجز في اقتصاديات النقود للأستاذ جـ . ف . كراوذ . .

٣ – قانونيتها بسن الدولة لها وحمايتها إياها والاعتراف بذلك أكسبها قوة الإبراء العام انظر ص ٩٨ و ٩٩ من كتاب قصة النقود . .

٤ – لا يحتم قانون إصدار الأوراق النقدية تغطيتها جميعها ، فيكفي تغطية بعضها بغطاء مادي له قيمة في نفسه ولو لم يكن ذهبا ولا فضة ، على أن يكون الباقي أوراقا وثيقة لا غطاء لها إلا التزام سلطة الإصدار بما سجل عليها عند إبطالها .

٥ – التعهد المسجل على هذه الأوراق لا يقصد إلا تذكير المسئولين عن مسئوليتهم تجاهها والحد من الإفراط في الإصدار دون استكمال أسباب الثقة بها ، وإذن فليست أسنادا وليس التعهد بها سر قبولها .

٦ – ليس للأوراق النقدية قيمة في نفسها ، وإنما قيمتها في أمر خارج عنها فليست عروضا .

٧ – رجحان القول بأن علة الربا في النقدين الثمنية مع الاعتراف بثمنية الأوراق النقدية .

٨ – تحقق الشبه بينها وبين الذهب والفضة المسكوكتين في الثمنية وفي وقوع الظلم والعدوان والاضطراب في المعاملات إذا جعل كل من هذه الأثمان سلعا كالعروض تباع وتشتري فأعطيت حكمها لا حكم العروض .

(٢٩٢/١)

---

٩ – اختلاف جهات الإصدار فيما تتخذه من أسباب الثقة بالأوراق النقدية لتحل محل الذهب والفضة وتكسب قبولا عاما وإبراء تاما ، واختلاف هذه الجهات أيضا قوة وضعفا وسعة وضيقا في الاقتصاد والسلطان ، وغير ذلك مما يقضي بأنها أجناس مختلفة باختلاف جهات إصدارها ، فكما أن الذهب والفضة جنسان لاختلاف كل منهما عن الآخر في القيمة الذاتية فكذلك العملات الورقية أجناس لاختلاف كل منها عن الأخرى بما تقدرها به جهات إصدارها وفيما تتخذه من أسباب لقبولها وإحلال الثقة بها .

١٠ – في القول بتفرع الأوراق النقدية عن الذهب والفضة مجانبة للواقع ، وفي العمل به حرج ومشقة حينما تعتبر الأوراق النقدية جنسا واحدا ، وحيث كان سر قبول الأوراق النقدية ثقة الناس به لا التعهد المسجل على كل ورقة بتسليم حاملها ما سجل

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢١٤)

عليها وقت الطلب ، ولا أن جميعها مغطى بذهب أو فضة ، ولا لأن سلطة الإصدار ألزمت الناس التعامل بها ، وحيث إنها أشبهت الذهب والفضة في الثمنية وتقويم الأشياء بها ، واطمئنان النفوس

إلى تمولها وادخارها ، وفي اضطراب أحوال المعاملات وانتشار الظلم والعدوان باتخاذها سلعا تباع وتشترى ، وكان الراجح في علة جريان الربا في الذهب والفضة الثمنية ، وتبين أنها ليست أسنادا ولا عروضا وأن الفلوس جارية مجرى الذهب والفضة في أحكامها ، وأنها ليست متفرعة عن الذهب والفضة ، وإن قيمة الأوراق الثمنية وقوتها الشرائية تختلف باختلاف جهات الإصدار في حالتها الاقتصادية وقوتها وضعفها ، وسعتها وضيقها في الاحتياط لحفظ كيان هذه الأوراق وفي نوع ما تسندها ثبت أنها نقد قائم بنفسه ، وأنها أجناس مختلفة تبعا لاختلاف جهات إصدارها ، وأن لها ما للذهب والفضة من أحكام .

مستلزمات هذا القول :

يستلزم هذا القول الأحكام الشرعية الآتية :

أ – جريان بنوعيه فيها كما يجري الربا بنوعيه في الذهب والفضة وغيرهما من الأثمان .

(٢٩٣/١)

ب – عدم جواز بيع الجنس الواحد بعضه ببعض أو بيع جنس منها بغيره من الأجناس الثمينة الأخرى من ذهب أو فضة أو غيرهما نسيئة .

جـ – عدم جواز بيع الجنس الواحد بعضه ببعض متفاضلا سواء كان ذلك نسيئة أو يدا بيد .

د – جواز بيع الأوراق النقدية بعضها ببعض متفاضلا إذا اختلف الجنس وكان يدا بيد فيجوز بيع الريال الفضة بريالين من الورق مثلا وبيع الليرة بريال سعودي فضة كان أو ورقا ، وبيع الدولار بخمسة ريالات أو أقل أو أكثر إذا كان يدا بيد .

هـ – وجوب زكاتها إذا بلغت أدنى النصابين من ذهب أو فضة إذا كانت مملوكة لأهل وجوبها وحال عليها الحول .

و – جواز السلم بها .

مناقشة هذا القول :

ويمكن أن تناقش هذه التوجيهات بما يأتي :

أما الأول فيناقش بأن تغير أسعار الورق النقدي ونحوه ارتفاعا وانخفاضا لا يخضع فقط لحالة السوق

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢١٥)

التجارية وعرضا وكثرة الإنتاج وقلته وكثرة الأثمان وقلتها بل يخضع أيضا لحالة رصيد هذه الأوراق قوة وضعفا ، فإذا كان لها نسبة معتبرة من الرصيد مع ملأة الدولة أو ارتبطت بعملة أخرى مليئة ، ولها رصيد معتبر كعملة الدولار والإسترليني في الوقت الحاضر أثبتت وجودها وغلت قيمتها وإلا

تزلزلت وهبط سعرها في الأسواق العالمية ، ومن هنا قيل عملة صعبة وعملة ليست صعبة ، ويشهد لذلك واقع الورق النقدي في بعض الدول العربية حينما انفصل عن الإسترليني فهبط بعد أن كان مرتفعا سعره في السوق العالمية .

ويناقش الثاني والثالث بأن ثقة الناس بها ، وقانونيتها بسن الدولة لها وحمايتها والاعتراف بذلك إنما أكسبها قوة الشراء والإبراء العام وجعلها مقياسا للقيم من أجل ما استندت إليه من رصيد لا يزال اعتباره قائما يدل على ذلك ما جاء في التوجيه الرابع والخامس والسادس والتاسع وما تقدم في بيان سر قابلية النقد الورقي للتبادل والإبراء العام .

(٢٩٤/١)

ويناقش الرابع بأنه وإن لم يتعين تغطية الأوراق النقدية بالذهب أو الفضة ، لكن لا بد من التغطية ولو بعقار يقدر بالعملة المتعارف عليها في دولة الإصدار حتى يمكن الوقوف عند حد معقول اقتصاديا في إصدار الأوراق النقدية يتناسب مع الرصيد ، وما كان غير مغطى منها قام فيه التزام جهة الإصدار المليئة مقام الغطاء بالعملة المتعارف عليها سابقا ، وبذلك كان الغطاء من عقار والتزام مثلا في حكم الذهب والفضة وكانت ثقة الناس بهذه الأوراق وكانت قوة الشراء والإبرام العام .

(انظر التعليق على مناقشة القول الرابع) :

ويناقش الخامس بأنه يحمل رده في طيه حيث ذكر فيه أن مما يقصد بالتعهد المسجل على الأوراق الحد من الإفراط في الإصدار دون استكمال أسباب الثقة ، واستكمال أسباب الثقة إنما يكون بزيادة الرصيد بنسبة ما يراد زيادة إصداره من الأوراق النقدية ، وبذلك يتبين أن اعتبار الرصيد ولو اختلف نوعه لا يزال قائما ، وإنما لم يسلم العوض ذهبا أو فضة عند إبطال عملة الأوراق ، واكتفى بتسليم عملة أخرى من الأوراق لمصلحة رآها ولي الأمر كالمحافظة على المعادن النفيسة من تهريبها مثلا أو الرغبة في الانتفاع بها فيما يعود على الدولة بالخير مع قيام أوراق نقدية لا تكلفه شيئا سوى إصدارها مع دعمها بالتزام الوفاء ورصيد يتصرف فيه رجاء فائدة تعود إلى الحكومة والأمة .

ويناقش السادس بأنه يحمل رده في طيه أيضا كالخامس بل هذا أوضح ، حيث صرح فيه بأن قيمة الأوراق النقدية في أمر خارج عنها لا في نفسها ، فدل ذلك على اعتبار الرصيد قائما وإن لم يستجب إلى من طلبه من حملة الأوراق النقدية ولم يدفع إليه شيء من الرصيد بعينه لما تقدم بيانه في رد الوجه الخامس .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢١٦)

(٢٩٥/١)

ويناقش السابع والثامن بأنه إن صح القول بأن الثمنية علة الربا في النقدين وصح قياس الأوراق النقدية عليها دل ذلك على أنها فرع عنهما لا على استقلالها جنسا أو أجناسا قائمة بنفسها ،فما كان منها متفرعا عن الذهب ألحق به وما كان منها متفرعا عن الفضة أعطي حكمها في كل ما يتعلق بالربا والزكاة ونحوهما .

ويناقش التاسع بأمرين :

الأول : أن فيه التصريح باتخاذ رصيد لهذه الأوراق ، وأنه سبب الثقة بها وحلولها محل الذهب أو الفضة وكسبها القبول العام والإبراء التام فدل على أنها فرع عما دعمت به من ذهب أو فضة أو ما يقدر بهما من عقار ونحوه فكانت بدلا عن أصلها الذي حلت محله لا جنسا أو أجناسا مستقلة بنفسها .

الثاني : أن اختلاف جهات الإصدار قوة وضعفا وسلطانا وسعة وضيقا واختلافها في نوع ما تدعم به عملتها الورقية لا تأثير له في اختلاف رصيده منهما أو مما قدر بهما فيكون بعض الورق تبعا للفضة وبعضها تبعا للذهب لا غير ، يدل على ذلك أن جهات إصدار نقد من الذهب أو الفضة لا يؤثر اختلافها ولا وحدتها في جنس كل من الذهب والفضة بل هما جنسان اتحدت الجهة أو اختلفت .

ويناقش العاشر بأنه لا حرج ولا مشقة في القول بتفرعها عن الذهب والفضة ، فإن ما اشترط فيها من المماثلة في بيع الجنس الواحد منها بعضه ببعض قد اشترط فيما هي بديل عنه من الذهب أو الفضة ، ولم يعتبر ذلك جرحا ، فهكذا لا يعتبر اشتراط المماثلة في حال المعاوضة في البديل حرجا .

(٢٩٦/١)

علة الربا في النقدين

نظرا إلى أن الأوراق النقدية أصبحت تلقى قبولا عاما في دنيا المعاوضات كوسيط للتبادل ، وأنها بذلك حلت محل الذهب والفضة في الثمنية وحيث إن السنة النبوية نصت على جريان الربا بنوعيه في الذهب والفضة ، ونظرا إلى أن أهل العلم اختلفوا في تعيين علة لجريان الربا فيهما .

نظرا إلى ذلك كله كان من المناسب أن يشتمل هذا البحث على بيان أقوال أهل العلم في علة الربا في النقدين ونقاش ما استند إليه كل قول مما يقبل النقاش .

لقد اختلف العلماء في تعليل تحريم الربا في النقدين الذهب والفضة ، فمن نفى التعليل أو تعذر عليه

إقامة دليل يرضاه لإثبات علة التحريم : قصر العلة فيهما مطلقا سواء كان تبرا أو مسكوكين أو مصنوعين وهذا مذهب أهل الظاهر ونفاة القياس ، وابن عقيل من الحنابلة حيث إنه يرى العلة فيهما ضعيفة لا يقاس عليها ، فلا ربا عند هؤلاء في الفلوس ولا في الأوراق النقدية ولا في غيرها مما يعد نقدا ، وتحريم الربا فيهما عندهم تعبدي ، وأما غيرهم فقد استنبط مناطا تنضبط به قاعدة ما يجري فيه الربا إلا أنهم اختلفوا في

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢١٧)

تخريج المناط ويمكن حصر آرائهم في ثلاثة أقوال .

الأول :

(٢٩٧/١)

يتلخص القول الأول في أن علة الربا في النقدين الوزن لقوله صلى الله عليه وسلم لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا وزنا بوزن أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي . . ولقوله : صحيح البخاري البيوع (٢٠٦٧)،صحيح مسلم المساقاة (١٥٨٤)،سنن الترمذي البيوع (١٢٤١)،سنن النسائي البيوع (٤٥٧٠)،موطأ مالك البيوع (١٣٢٤). الذهب بالذهب وزنا بوزن مثلا بمثل والفضة بالفضة وزنا بوزن مثلا بمثل وقوله : ما وزن مثلا بمثل وقوله : صحيح البخاري البيوع (٢٠٨٩)،صحيح مسلم المساقاة (١٥٩٣)،سنن النسائي البيوع (٤٥٥٣)،موطأ مالك البيوع (١٣١٤). بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا ، وقال في الميزان مثل ذلك صحيح البخاري . فجعل ضابط ما يجري فيه الربا وتجب فيه المماثلة الوزن في الموزونات ، وطرد أصحاب هذا القول القاعدة في جريان الربا في كل ما يوزن كالحديد والنحاس والرصاص والصفر والصوف والقطن والكتان ، وهذا القول هو المشهور عن الإمام أحمد وهو قول النخعي والزهري والثوري وإسحاق وأصحاب الرأي ، ويمكن أن يورد على هذا القول ما يلي :

أ – الوزن وصف طردي محض لا مناسبة فيه انظر الجزء الثاني ص ١٣٧ من إعلام الموقعين . .

ب – العلماء متفقون على جواز إسلام النقدين في الموزنات وهذا بيع موزون بموزون إلى أجل وفي جواز ذلك نقد للعلة .

جـ – أن حكمة تحريم الربا ليست مقصورة على ما يوزن ، بل هي متعدية إلى غيره مما يعد ثمنا ولا يتعامل به وزنا كالفلوس والورق النقدي فإن الظلم المراعى إبعاده في تحريم الربا في النقدين واقع في التعامل بالورق النقدي وبشكل واضح في غالبه تتضاءل معه صورة الظلم الواقع في التعامل بالذهب والفضة متفاضلا في الجنس أو نسيئة في الجنسين نظرا لارتفاع القيمة الثمنية في بعضها كفئات

المائة ريال والألف دولار .

الثاني

ويتلخص هذا القول في أن علة الربا في النقدين غلبت الثمنية ، وهذا القول هو المشهور عن الإمامين مالك والشافعي ، فالعلة عندهما قاصرة على الذهب والفضة ، والقول بغلبة الثمنية احتراز عن الفلوس إذا راجت رواج النقدين ، فالثمنية طارئة عليها فلا ربا فيها ، ويمكن أن يورد على هذا الرأي ما يلي :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢١٨)

أ – أن العلة القاصرة لا يصح التعليل بها في اختيار أكثر أهل العلم منقوضة طردا بالفلوس ؛ لأنها أثمان وعكسا بالحلي انظر الجزء التاسع من مجموع النووي ص ٤٤٥، وانظر الجزء الثاني من الفروع ص ٥٤٥ . .

ب – إن حكمة تحريم الربا في النقدين ليست مقصورة عليهما بل تتعداهما إلى غيرهما من الأثمان كالفلوس والورق النقدي .

الثالث :

ويتلخص في أن علة الربا في النقدين مطلق الثمنية ، وهذا القول إحدى الروايات عن الإمام أحمد ومالك وأبي حنيفة قال أبو بكر من أصحاب أحمد روى ذلك عن أحمد جماعة ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم –رحمهما الله– وغيرهما من محققي أهل العلم انظر جـ ٢٩ من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ص ٤٧٣ و ص ٤٧٤ وانظر جـ ٢ ص ١٣٧ من إعلام الموقعين . .

وقد أورد ابن ملفح على هذا القول إيرادا ملخصه : بأن التعليل بالثمنية تعليل بعلة قاصرة لا يصلح التعليل بها في الأكثر منقوضة طردا بالفلوس لأنها أثمان وعكسا بالحلي انظر جـ ٢ ص ٥٤٥ من الفروع وتصحيحه . .

ويمكن أن يجاب عن هذا الإيراد بأنه لا يتجه إلا على القائلين بغلبة الثمنية ، أما القائلون بمطلق الثمنية فلم يخرجوا الفلوس الرائجة عن حكم النقدين بل اعتبروها نقدا يجري فيه الربا كما يجري فيهما ، كما أنهم لم يقولوا بجريان الربا في الحلي المصنوع من الذهب أو الفضة ؛ لأن الصناعة قد نقلته من جنس الثمنية إلى أجناس السلع والثياب ، ولهذا لا تجب فيه الزكاة على القول المشهور في مذهب الإمام أحمد مع أنه من الذهب والفضة . كما يمكن أن يورد على القائلين بمطلق الثمنية إيراد ملخصه بأن إجماع العلماء منعقد على جريان الربا بنوعيه في الذهب والفضة سواء أكانا سبائك أو مسكوكين ، فما سك منهما نقدا فلا إشكال في جريان الربا فيه لكونه ثمنا ، وإنما الإشكال في جريان الربا في سبائكهما مع أنهما في حال كونهما سبائك ليسا ثمنا ، ويمكن أن يجاب عن هذا الإيراد بأن الثمنية موغلة في الذهب والفضة وشاملة لسبائكهما بدليل أن السبائك الذهبية كانت تستعمل نقدا قبل سكها نقودا ، وقد كان تقدير ثمنيتها بالوزن ومن ذلك ما رواه الخمسة وصححه الترمذي سنن الترمذي البيوع (١٣٠٥)،سنن النسائي البيوع (٤٥٩٢)،سنن أبو داود البيوع (٣٣٣٦)،سنن ابن ماجه التجارات (٢٢٢٠)،مسند أحمد بن حنبل (٣٥٢/٤)،سنن الدارمي البيوع (٢٥٨٥). عن سويد بن قيس قال جلبت أنا ومخرمة العبدي بزا من هجر فأتينا به مكة فجاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي فساومنا سراويل فبعناه وثم رجل يزن بالأجرة فقال له زن وأرجح ، ومثله حديث

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢١٩)

جابر في بيعه جمله على رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال يا بلال أقضه وزده فأعطاه أربعة دنانير وزاده قيراطا .

هذا ما تيسر إيراده وبالله التوفيق وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم . . . . . .

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو ... عضو ... نائب الرئيس ... رئيس اللجنة

(٣٠٠/١)

عبد الله بن سليمان بن منيع ... عبد الله بن عبد الرحمن بن غديان ... عبد الرزاق عفيفي ... إبراهيم بن محمد آل الشيخ

(٣٠١/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٢٠)

الخلاصة

وبعد استعراض الهيئة للبحث المذكور ، وما فيه من أقوال فقيهة قيلت في حقيقة الأوراق النقدية من اعتبارها إسنادا أو عروضا أو فلوسا أو بدلا عن ذهب أو فضة أو نقدا مستقلا بذاته وما يترتب على تلك الأقوال من أحكام شرعية . . جرى تداول الرأي فيها ومناقشة ما على كل قول منها من إيرادات .

كما استمع أعضاء الهيئة إلى آراء بعض الخبراء المتخصصين في النقد الورقي والعلوم الاقتصادية حول هذا الموضوع ، بعد ذلك رأى مجلس الهيئة بالأكثرية ما يلي :

بناء على أن النقد هو كل شيء يجري اعتباره في العادة أو الاصطلاح بحيث يلقى قبولا عاما كوسيط للتبادل ، كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال : وأما الدرهم والدينار فما يعرف له حد طبعي ولا شرعي بل مرجعه إلى العادة والاصطلاح ، وذلك لأنه في الأصل لا يتعلق المقصود به بل الغرض أن يكون معيارا لما يتعاملون به ، والدراهم والدنانير لا تقصد لنفسها بل هي وسيلة إلى التعامل بها ، ولهذا كانت أثمانا –إلى أن قال– والوسيلة المحضة التي لا يتعلق بها غرض لا بمادتها ولا بصورتها يحصل بها المقصود كيفما كانت ا هـ/ جـ (٢٩) ص : ٢٥١ من مجموع الفتاوى .

وذكر نحو ذلك الإمام مالك في المدونة من كتاب الصرف حيث قال : ولو أن الناس اجازوا بينهم الجلود حتى يكون لها سكة وعين لكرهتها أن تباع بالذهب والورق نسيئة . ا هـ .

(٣٠٢/١)

وحيث إن الورق النقدي يلقى قبولا عاما في التداول ويحمل خصائص الأثمان من كونه مقياسا للقيم ومستودعا للثروة وبه الإبراء العام ، وحيث ظهر من المناقشة مع المتخصصين في إصدار الورق النقدي والعلوم الاقتصادية أن صفة السندية فيها غير مقصودة ، والواقع يشهد بذلك ويؤكده كما ظهر أن الغطاء لا يلزم أن يكون شاملا لجميع الأوراق النقدية ، بل يجوز في عرف جهات الإصدار أن يكون جزء من عملتها بدون غطاء وأن الغطاء لا يلزم أن يكون ذهبا بل يجوز أن يكون من أمور عدة كالذهب والعملات الورقية القوية ، وأن الفضة ليست غطاء كليا أو

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٢١)

جزئيا لأي عملة في العالم ، كما اتضح أن مقومات الورقة النقدية قوة وضعفا مستمدة مما تكون عليه حكومتها من حال اقتصادية فتقوى الورقة بقوة دولتها وتضعف بضعفها ، وأن الخامات المحلية كالبترول والقطن والصوف لم تعتبر حتى الآن لدى أي من جهات الإصدار غطاء للعملات الورقية

.

وحيث إن القول باعتبار مطلق الثمنية علة في جريان الربا في النقدين هو الأظهر دليلا والأقرب إلى مقاصد الشريعة وهو إحدى الروايات عن الأئمة مالك ، وأبي حنيفة ، وأحمد ، قال أبو بكر : روى ذلك عن أحمد جماعة كما هو اختيار بعض المحققين من أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما . . وحيث إن الثمنية متحققة بوضوح في الأوراق النقدية لذلك كله فإن هيئة كبار العلماء تقرر بأكثريتها :

أن الورق النقدي يعتبر نقدا قائما بذاته كقيام النقدية في الذهب والفضة وغيرها من الأثمان ، وأنه أجناس تتعدد بتعدد جهات الإصدار بمعنى أن الورق النقدي السعودي جنس ، وأن الورق النقدي الأمريكي جنس وهكذا كل عملة ورقية جنس مستقل بذاته ، وأنه يترتب على ذلك الأحكام الشرعية الآتية :

أولا : جريان الربا بنوعيه فيها كما يجري الربا بنوعيه في النقدين الذهب والفضة وفي غيرها من الأثمان كالفلوس ، وهذا يقتضي ما يلي :

(٣٠٣/١)

أ – لا يجوز بيع بعضه ببعض أو بغيره من الأجراس النقدية الأخرى من ذهب أو فضة أو غيرهما نسيئة مطلقا ، فلا يجوز مثلا بيع الدولار الأمريكي بخمسة أريلة سعودية أو أقل أو أكثر نسيئة .

ب – لا يجوز بيع الجنس الواحد منه بعضه ببعض متفاضلا سواء كان ذلك نسيئة أو يدا بيد ، فلا يجوز مثلا بيع عشرة أريلة سعودية ورق بأحد عشر ريالا سعوديا ورقا . .

جـ – يجوز بيع بعضه ببعض من غير جنسه مطلقا إذا كان ذلك يدا بيد

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٢٢)

فيجوز بيع الليرة السورية أو اللبنانية بريال سعودي ورقا كان أو فضة أو أقل من ذلك أو أكثر وبيع الدولار الأمريكي بثلاثة أريلة سعودية أو أقل أو أكثر ، إذا كان ذلك يدا بيد ، ومثل ذلك في الجواز بيع الريال السعودي الفضة بثلاثة أريلة سعودية ورق أو أقل أو أكثر يدا بيد ؛ لأن ذلك يعتبر بيع جنس بغير جنسه ولا أثر لمجرد الاشتراك في الاسم مع الاختلاف في الحقيقة .

ثانيا : وجوب زكاتها إذا بلغت قيمتها أدنى النصابين من ذهب أو فضة أو كانت تكمل النصاب مع غيرها من الأثمان والعروض المعدة للتجارة إذا كانت مملوكة لأهل وجوبها .

ثالثا : جواز جعلها رأسمال في السلم والشركات . .

(٣٠٤/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٢٣)

مجلة

البحوث الإسلامية

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

الآداب والفنون

حكم تمثيل الصحابة

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٢٤)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فقد أحيل إلى هيئة كبار العلماء رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوى والإرشاد بالمملكة العربية السعودية في دورتها الثالثة المنعقدة في شهر ربيع الثاني عام ١٣٩٣ هـ وهو تصوير حياة " بلال " مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في

فيلم سينمائي .

وفي تلك الدورة قدمت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بحثا في الموضوع هذا نصه :

الحمد لله وحده

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد وعلى آله وصحبه ، وبعد :

فهذا بحث يتعلق بمسألة حكم تمثيل الصحابة في شكل رواية مسرحية أو فيلم سينمائي قامت اللجنة الدائمة بالبحوث العلمية والإفتاء بإعداده تمهيدا لعرض المسألة على مجلس هيئة كبار العلماء في دورتها القادمة إنفاذا لأمر المقام السامي رقم ٢٤ / ٩٣ وتاريخ ١ / ١ / ١٣٩٣ هـ

والله الموفق . . . . . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٢٥)

الفهرس

خطاب إحالة إلى هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية

اعتبارات خمسة

قرار رابطة العالم الإسلامي بشأن تمثيل الرسول صلى الله عليه وسلم في فيلم سينمائي

قرار المنظمات الإسلامية في مكة المكرمة

فتاوى الشيخ محمد رشيد رضا

قرار لجنة الفتوى بالأزهر

مفاسد تمثيل الأنبياء

قصص الأنبياء في السينما

قرارات هيئة كبار العلماء

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٢٦)

حكم

تمثيل الصحابة

في مسرحية أو فيلم سينمائي

يحسن بنا قبل تقديم ما تيسر الحصول عليه من أقوال أهل العلم في حكم تمثيل الصحابة رضوان الله عليهم أن نشير إلى اعتبارات تحسن ملاحظتها أثناء بحث المسألة .

(٣٠٥/١)

الأول : ما لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المكانة العليا في الإسلام بحكم معاصرتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيامهم بواجب نصرته وموالاته والتفاني في سبيل الله ببذلهم أموالهم وأولادهم ونفوسهم ، فقد اتفق أهل العلم على أنهم صفوة هذه الأمة وخيارها ، وأن الله شرفهم بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأثنى عليهم في كتابه الكريم بقوله : سورة الفتح الآية ٢٩ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ الآية ، وجاءت الأحاديث الصحيحة بتسجيل فضلهم وأن لهم قدم صدق عند الله ، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال حدثنا أبو سعيد الخدري –رضي الله عنه– قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صحيح البخاري المناقب (٣٤٤٩)،صحيح مسلم فضائل الصحابة (٢٥٣٢)،مسند أحمد بن حنبل (٧/٣). يأتي على الناس زمان فيغزوا فئام من الناس فيقال هل فيكم من صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٢٧)

فيقولون نعم فيفتح لهم : ثم يأتي على الناس زمان فيغزوا فئام من الناس فيقال هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون نعم فيفتح لهم

وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين –رضي الله عنه– قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيح البخاري المناقب (٣٤٥٠)،صحيح مسلم فضائل الصحابة (٢٥٣٥)،سنن الترمذي الفتن (٢٢٢٢)،سنن النسائي الأيمان والنذور (٣٨٠٩)،سنن أبو داود السنة (٤٦٥٧)،مسند أحمد بن حنبل (٤٢٧/٤). خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يفون ويظهر فيهم السمن .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في شأن بعض أصحابه رضوان الله عليهم صحيح البخاري المناقب (٣٤٧٠)،صحيح مسلم فضائل الصحابة (٢٥٤١)،سنن الترمذي المناقب (٣٨٦١)،سنن أبو داود السنة (٤٦٥٨)،سنن ابن ماجه المقدمة (١٦١)،مسند أحمد بن حنبل (٥٥/٣). لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه .

الثاني : النظرة العامة إلى مشاهدة التمثيل :

من أنه حال من أحوال اللهو والتسلية وشغل فراغ الوقت ، فمشاهده في الغالب لا يريد من المشاهدة ما فيه مجال للعظة والتأمل ، وإنما يقصد من ذلك إشباع غرائزه بما يشرح النفس وينسي الهموم ، وينقل المرء من حال الجد إلى حال العبث والهزل .

الثالث : حال محترفي التمثيل من المناحي المسلكية :

إن المتتبع لحياة الممثلين يخرج بنتيجة هي أن غالبهم سقط من الناس ليس للصلاح والتقوى مكان في حياتهم العامة ولا للأخلاق الإسلامية والعربية محل في دائرة أخلاقهم ، ولا للقيم الإنسانية اعتبار عندهم ، فإذا تقمص أحدهم شخصية صالح أو نبيل أو شهم أو عفيف أو جواد فذلك لأجل ما سيتقاضاه ثمنا لذلك ، ثم يعود إلى سيرته الأولى ضاحكا لاهيا ساخرا معرضا عن الجوانب المشرقة في حياتهم .

الرابع : أغراض التمثيل :

قد لا يختلف اثنان في أن الهدف الأول لأرباب المسارح في إقامة التمثيل فيها المكاسب المادية ومكاسبهم المادية لا تحصل إلا بمداعبة غرائز المشاهدين ، وشهواتهم ، فإذا عرفنا أن غالب المشاهدين لا يقصدون من مشاهدتهم التمثيل إلا قضاء فراغ أوقاتهم بما فيه العبث واللهو والتسلية ، وفهمنا أن الهدف الأول والأخير من التمثيل الكسب المادي أدركنا أن القائمين على التمثيل سيحرصون على إنماء رصيد مشاهدي مسرحياتهم بتحقيق رغبة المشاهد في إشباع غرائزه العاطفية ، وعرض ذلك على شاشات التمثيل وخشبات المسارح .

الخامس : اعتياد كثير من المؤرخين في مؤلفاتهم التاريخية على التساهل في تحقيق الوقائع التاريخية يضاف إلى ذلك أن مجموعة من ذوي الميول المنحرفة والأهواء المغرضة قد نفثوا سمومهم

في التاريخ
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٢٨)
الإسلامي ما بين وقائع تاريخية كاذبة وتعليلات للجوانب التاريخية في الإسلام ترمي إلى التقليل من القيمة العليا لتضحية المسلمين في سبيل الله ، فإذا كانت مادة التمثيل ستنقل من التاريخ ، وليس هناك مرجع غيره أمكن تصور وجود الكذب والافتراء على السلف الصالح لا سيما صفوة هذه الأمة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣٠٨/١)

قرار رابطة العالم الإسلامي
وقد صدر من رابطة العالم الإسلامي بخصوص تمثيل رسول الله صلى الله عليه وسلم في فيلم استعرض حكم تمثيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بما نصه :
وكما يحرم ذلك كله في حق الرسول صلى الله عليه وسلم يحرم تمثيل الصحابة الأكرمين رضي الله عنهم أجمعين باتفاق أهل العلم ؛ لشرفهم بالصحبة العظيمة واختصاصهم بها دون من عداهم من الناس ولكرامتهم عند الله تعالى وثنائه عليهم في القرآن الكريم قال تعالى : سورة الفتح الآية ٢٩ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ الآية ، فهم أحقاء إجماعا بالتكريم والتعظيم والتوقير ، ولذلك أجمع أهل العلم على حرمة تصويرهم في الأفلام أو على المسارح لما فيه من المنافاة الصارخة لكل ذلك . ١ هـ . .
كما صدر قرار من المنظمات الإسلامية العالمية المنعقدة في دورتها في مكة المكرمة في ذي الحجة سنة ١٣٩٠ هـ ، جاء فيه ما نصه : قرر المؤتمر استنكاره الشديد لمحاولة إخراج فيلم سينمائي يمثل فيه النبي صلى الله عليه وسلم بأية صورة من الصور أو كيفية من الكيفيات كما يستنكر تمثيل الصحابة رضوان الله عليهم ، ويناشد المؤتمر كل الحكومات الإسلامية أن تقضي على هذه المحاولة في مهدها . .

(٣٠٩/١)

فتاوى الشيخ محمد رشيد رضا
كما صدر ثلاث فتاوى للشيخ محمد رشيد رضا في حكم التمثيل الأخلاقي الأولى في حكم التمثيل

الأخلاقي وهذا نصها مع سؤالها انظر فتاوى رشيد رضا – جـ ٣ ص ١٠٩٠ ، المنار جـ ١٤ (١٩٩١) ص ٨٢٧ –٨٣٠ .

من صاحب الإمضاء الحرفي في (دمشق الشام) ع . .

" سيدي الأستاذ صاحب المنار الأغر ، ما رأي الأستاذ –حفظه الله– في تمثيل الروايات الأخلاقية التي لا يشوبها ضروب الخلاعة ، أو من ظهور النساء حاسرات على المسارح ، والتي تحبب الحضور بالفضيلة

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٢٩)

وتنفرهم من الرذيلة ؟ يجوز لنا أن نعتبر التمثيل غيبة فنحرمه بدعوى أن الغيبة محرمة ؟

" هل ورد في النصوص الشرعية تصريحا أو تلميحا ما يدل على حرمة التمثيل الأخلاقي ، أو يشير إلى اجتنابه ، وعهدنا بهذا النوع من التمثيل أنه خير ما يغرس في النفوس حب الفضائل وكره الرذائل ؟ .

أرجو إجابتي على هذه الأسئلة حتى لا يبقى مجال لتغرير المسلمين باسم الشريعة ، ورميها بسهام غير سديدة ، هدانا الله بمناركم الوضاح إلى أقوم طريق .

الجواب : جاءنا مثل هذا السؤال أيضا من دمشقي آخر أشار إلى اسمه بحرفي (م . ن) وجاء في سؤاله أن السؤال واقعة حال في دمشق ، وهي أن تلاميذ المدرسة العثمانية بدمشق مثلوا قصة زهير الأندلسي التي تشرح كيفية انقراض المسلمين من الأندلس ، فقام بعض الحشوية من طلاب الشهرة وأصحاب الدعوى يشنعون على المدرسة ويكفرون تلاميذها ومعلميها ، ويزعمون أنهم حاولوا هدم الإسلام بتذكير المسلمين بأسباب انقراض المسلمين من مملكة إسلامية كانت زينة ممالك الأرض بالعلوم والفنون والآداب ، وخطبوا بذلك على المنابر في رمضان ، وصدق فيهم قول من قال : إن لمتعصبي دمشق في كل رمضان ثورة .

(٣١٠/١)

أشار السائل الذي نشرنا نص سؤاله إلى ما صرح به السائل الآخر من احتجاج محرمي التمثيل على تحريمه بأنه يتضمن الغيبة وقال هذا المصرح إن بعضهم حرم قراءة الجرائد والمجلات بمثل هذا الدليل .

نقول : إن صح قولهم أن تلك القصة أو الواقعة التي مثلت في دمشق ، كانت متضمنة لشيء من الغيبة –هو ما يستبعد جدا– فالمحرم فيها هو الغيبة لا جميع القصة ولا القصص التي تمثل ولا التمثيل نفسه .

وكان الأظهر أن يقولوا إنها تتضمن الكذب في بعض جزئياتها ، وكأنهم فطنوا إلى كون الكذب غير

مقصود فيها ، ولا يتحقق إلا بالنسبة إلى مجموع القصة إذا كان ما تقرره وتودعه في الأذهان من مغزاها المراد غير صحيح ، كأن تصور قصة زهير لقرائها ، وحاضري تمثيلها أن الإسبانيين اضطهدوا المسلمين وفتنوهم عن دينهم وخيروهم بين الكفر والخروج من الوطن ، ويكون هذا الذي تصوره لم يقع أو وقع ضده .

هذه القصص التمثيلية من قبيل ما كتبه علماؤنا المتقدمون من المقامات التي تقرأ في المدارس الدينية وغير الدينية ، كمقامات البديع ومقامات الحريري ، وقد كان الحريري -رحمه الله تعالى- توقع أن يوجد في عصره أمثال أولئك المتنطعين الذين حرموا قصة زهير الأندلسي ، فرد عليهم بقوله في فاتحة مقاماته :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٣٠)

(٣١١/١)

" على أني وإن أغمض لي الفطن المتغابي ، ونضح عني المحب المحابي ، لا أكاد أخلص من غمر جاهل ، أو ذي غمر (حقد) متجاهل ، يضع مني لهذا الوضع ، ويندد بأنه من مناهي الشرع ، ومن نقد الأشياء بعين المعقول ، وأنعم النظر في مباني الأصول ، نظم هذه المقامات ، في سلك الإفادات ، وسلكها مسلك الموضوعات ، عن العجماوات والجمادات ، ولم يسمع بمن نبأ سمعه عن تلك الحكايات ، وأثم رواتها في وقت من الأوقات ، ثم إذا كانت الأعمال بالنيات ، وبها انعقاد العقود الدينيات ، فأي حرج على من أنشأ ملحا وردت في المنار " مقامات " . للتنبيه ، لا للتموين ، ونحا بها منحى التهذيب ، لا الأكاذيب ، وهل هو في ذلك إلا بمنزلة من انتدب لتعليم ، وهدى إلى صراط مستقيم مقامات الحريري " تحقيق سلفستر دساسي " باريس – دار الطباعة الملكية ١٨٢٢ ص ١١ – ١٢ . فهو يقول إنه لم يعرف أحد من علماء الأمة إلى زمنه أنه حرم أمثال تلك القصص التي وضعت عن الحيوانات ككتاب كليلة ودمنة وغيره ؛ لأن المراد بها الوعظ والفائدة وصورة الخير في جزئياتها غير مرادة وما سمعنا بعده أيضا أن أحدا من العلماء حرم قراءة مقاماته ، ولكن اجتهاد بعض المغرورين بالحظوة عند العوام يتجرءون على تحريم ما لم يحرمه الله ورسوله ولا حرم مثله أحد من علماء الملة ، وهم مع هذا يتبرءون بألسنتهم من دعوة الاجتهاد واسم الاجتهاد ويشنعون على من يقول إنه يمكننا أن نعرف الأحكام بأدلتها الشرعية ، فهم يعترفون بأنهم ليسوا أهلا للاستدلال ولا لمعرفة حكم بدليله ، ويدعون أنهم مقلدون لبعض الأئمة المجتهدين رضوان الله عليهم ، فليأتونا بنص من أولئك الأئمة على تحريم ما حرموه إن كانوا صادقين .

(٣١٢/١)

ثم نقول من باب الدليل قد فسر الحرام في بعض كتب الأصول بأنه خطاب الله المقتضي للترك اقتضاء جازما ، فليأتونا بخطاب الله المقتضي بتحريم تمثيل الوقائع الوعظية والتهذيبية ، أما أصول المحرمات في الكتاب ، فقد بينها الله تعالى بالإجمال في قوله : سورة الأعراف الآية ٣٣ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

أفلا يخشى أولئك المتجرئون أن يكونوا من الذين يقولون على الله ما لا يعملون ، الذين قال فيهم أيضا : سورة النحل الآية ١١٦ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ .

وقال صلى الله عليه وسلم صحيح البخاري الإيمان (٥٢)،صحيح مسلم المساقاة (١٥٩٩)،سنن الترمذي البيوع (١٢٠٥)،سنن النسائي البيوع (٤٤٥٣)،سنن أبو داود البيوع (٣٣٢٩)،سنن ابن ماجه الفتن (٣٩٨٤)،مسند أحمد بن حنبل (٢٧٠/٤)،سنن الدارمي البيوع (٢٥٣١). إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس . الحديث ، وهو في الصحيحين والسنن كلها من حديث خيار الآل والصحب علي وولده الحسين والعبادلة الثلاثة وعمار والنعمان بن بشير رضي الله عنهم ، فإذا كان الحرام بينا فكيف يخفى منه مثل هذا الحكم على جميع المسلمين في هذه القرون الطويلة ، ولا يهتدي إليه إلا أولئك المضيقون في هذا العام ؟

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٣١)

(٣١٣/١)

إننا لا نري وجها ما لهذا التحريم ، ولو سلمنا أن في القصة الممثلة كلاما يصح أن يعد غيبة أو كذبا فإنا نعلم أن في كثير من كتب الحديث والفقة والوعظ أحاديث موضوعة ، ولم يقل أحد أن ذلك يقتضي تحريم تأليف تلك الكتب وقراءتها وطبعها ، وفي كتب الحديث طعن في الرجال فهل نحرم علم أصول الحديث ، إلا إنه ليحزننا أن يكون لأمثال هؤلاء المفتاتين المتنطعين كلمة تسمع في مدينة دمشق الفيحاء التي هي أجدر البلاد بأن تكون ينبوعا لحياة الدين والعلم والارتقاء في سورية وجزيرة العرب كلها ، وما آفتها إلا نفر من المتنطعين قد جعلوا الدين عقبة في طريق الارتقاء العلمي والعملي ، فنسأل الله تعالى أن يلهمهم الرشد ، ويهديهم طريق القصد ، وأن يبصر العامة كالخاصة في تلك المدينة الزاهرة بحقيقة أمرهم حتى لا تتبع كل ناعق منهم .

(٣١٤/١)

والثانية في حكم تمثيل بعض الصحابة ، وهذا نصها مع سؤالها :
السؤال : هل يجوز تمثيل بعض الصحابة على شكل رواية أدبية خلقية تظهر محاسن ذلك الصحابي الممثل لأجل الاتعاظ لسيرته ومبادئه العالية مع التحفظ والتحري لضبط سيرته دون إخلال بها من أي وجهة كانت أم لا .
الجواب : لا يوجد دليل شرعي يمنع تمثيل حياة الصحابة أو أعمالهم الشريفة بالصفة المذكورة في السؤال انظر ص / ٢٣٤٨ / من الجزء السادس من فتاوى رشيد . .

(٣١٥/١)

والثالثة في حكم التمثيل العربي وتمثيل قصص الأنبياء وهذا نصها انظر جـ" ٤ " ص ١٤١٨ فتاوى رشيد . .
التمثيل العربي : اشتغال المرأة المسلمة به وتمثيل قصص الأنبياء المنار ج ٢٠ " ١٩١٧ " ص ٣١٠ – ٣١٦ . من صاحب الإمضاء بمصر محمد محمد سعفان طالب بمدرسة القضاء الشرعي بسم الله الرحمن الرحيم : إلى فضيلة مولانا وراشدنا السيد رشيد رضا . جمعتني النوادي بطائفة من المتعلمين الذين قلما يخلو مجلسهم من البحث وبأية مناسبة دار بيننا ذكر التمثيل العربي ، وبسطنا على بساط بحثنا المنار ج ٢٠ " ١٩١٧ " ص ٣١٠ – ٣١٦ . المرأة المسلمة والتمثيل ، تمثيل روايات الأنبياء عليهم السلام عموما وخاتمهم خصوصا فقر رأي فريق منا على جواز ذلك كله إذ لا تتم أدوار التمثيل
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٣٢)
وفصوله إلا بالمرأة ، فإذا جوزنا التمثيل جوزنا ظهور المرأة المسلمة على مسارح التمثيل ،وأي مانع يمنع تمثيل روايات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عموما وخاتمهم خصوصا وهو لم يخرج عن كونه درس وعظ على طريقة التأثير النافع الذي ينشده مشاهير الوعاظ ، وقل من يصادفه أو يجد له أثرا ، ومنع فريق آخر ذلك وعده نوعا من التقليد الإفرنجي الذي يستحوذ على بعض البسطاء فيعدونه مفتاح تمدن الأمة في حين أنه شر عليها وعلى أخلاقها الذاتية ، فهذا ما كان من الفريقين أما أنا كاتب هذه السطور فقد أعلنت الحيدة حتى أسترشد برشدكم أو أستنير بفتيا منكم والسلام .

(٣١٦/١)

الجواب : قلت ، هدانا الله وإياك بحجة الصواب في الحكم ، وعصمنا أن نقفو ما ليس لنا به علم : إن بعض الأندية جمعك بطائفة من المتعلمين الباحثين ، وأنهم ذكروا " التمثيل العربي " فاختلفوا في جواز اشتغال المرأة المسلمة به ، وفي جواز تمثيل قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عامة وخاتمهم خاصة ، فقالت طائفة منهم بجواز الأمرين ، وعللوا الأول " بأن أدوار التمثيل وفصوله لا تتم إلا بالمرأة فإذا جوزنا التمثيل جوزنا ظهور المرأة المسلمة على مسارح التمثيل ، " وعللوا الثاني بأن " درس وعظ على طريقة التأثير النافع الذي ينشده مشاهير الوعاظ وقل من يصادفه أو يجد له أثرا " وقالت طائفة أخرى بمنع الأمرين وعدوه من التقليد الإفرنجي الضار ، الذي يغر به الأغرار وقلت إنك وقفت تستفتي المنار ، فهاك ما أفهمه في المسألتين بالاختصار .

لم يأت فريق المجيزين بشيء من العلم ، يدل على ما جزموا به من الحكم ، فإن سلمنا لهم أن التمثيل لا يتم إلا بالمرأة لا نسلم لهم أن جوازه يستلزم جواز اشتغال المرأة المسلمة به ، بل نسألهم ماذا يعنون بهذا التمام ؟ ولماذا لا يستغنى فيه بالمرأة غير المسلمة التي تستبيح من أعماله ما لا يباح للمسلمة ؟ وبأي حجة جعلوا القول بجواز التمثيل الذي ينقصه وجود المرأة المسلمة أصلا بنوا عليه القول بجواز اشتغالها بالتمثيل ، وهل يعدو التمثيل المطلق أن يكون مباحا أو مستحبا بشرط خلوه من فعل الحرام وذرائع الفساد ، واشتماله على الوعظ النافع والإرشاد ؟ أوليس الصواب أن يقال –والأمر كذلك– إن التمثيل الذي يتوقف على قيام المرأة المسلمة ببعض أعماله على الوجه المعروف في دور التمثيل بمصر غير جائز ؛ لأن ما توقف على غير الجائز فهو غير جائز ، أو لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ؟

(٣١٧/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٣٣)

اشتغال المرأة المسلمة بالتمثيل

اشتغال المرأة المسلمة بالتمثيل يشتمل على منكرات محرمة ، منها :

ظهورها على أعين الرجال متبرجة كاشفة ما لا يحل كشفه لهم من أعضائها كالرأس والنحر وأعالي الصدر والذراعين والعضدين ، وتحريم هذا مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة ، فلا حاجة إلى ذكر النصوص فيه .

ومنها الاشتراك مع الرجال الممثلين في أعمال تكثر في التمثيل وإن لم تكن من لوازمه في كل قصة كالمعانقة والمخاصرة والملامسة بغير حائل .

ومنها : غير ذلك من المنكرات التي تشتمل عليها بعض القصص دون بعض كالتشبه بالرجال ، وتمثيل وقائع العشق والغرام المحرم بما فيه من الأعمال المحرمة لذاتها أو لكونها ذريعة إلى المحرم

لذاته .

ولا أنكر أنه يمكن للكاتب العالم بأحكام الشرع وآدابه أن يكتب قصة تمثيلية يودع بعض فصولها أعمالا شريفة وأقوالا نافعة إذا مثلتها امرأة مسلمة تبرز في دار التمثيل غير متبرجة بزينة ولا مبدية لشيء مما حرم الله إبداءه من بدنها ، ولا آتية بشيء من أعمال الفساد ولا من ذرائعه ، فإن تمثيلها يكون بهذه الشروط مباحا أو مستحبا ، مثال ذلك أن تؤلف قصة في الترغيب في الحروب للدفاع عن الحقيقة وحماية البلاد عند وجوبها باعتداء الأعداء عليها ويذكر فيها ما روي عن الخنساء – رضي الله عنها– في حث أبنائها على القتال بالنظم والنثر فمن ذا الذي يتجرأ على القول بتحريم ظهور امرأة تمثل الخنساء في مثل تلك الحال ، التي هي مثال الفضيلة والكمال ؟ ولكن إمكان وضع مثل هذه القصة وهو من الممكنات التي لم تقع لا يبنى عليه القول بإطلاق جواز ما هو واقع من التمثيل المشتمل على ما ذكرنا ، وما لم نذكر من المنكرات المحرمة والمكروهة شرعا .

(٣١٨/١)

وأما تمثيل قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقد عللوه بأنه درس وعظ مؤثر ، يعنون أن كل ما كان كذلك فهو جائز ، وهذه الكلية المطوية ممنوعة ، وتلك المقدمة الصريحة غير متعينة فإن هذه القصة قد توضع وضعا منفرا ، فلا تكون وعظا مؤثرا ، وإن من الوعظ المؤثر في النفوس ما يكون كله أو بعضه باطلا ، وكذبا وبدعا ، أو مشتملا على مفسدة أو ذريعة إليها ، ويشترط في جواز الوعظ أن يكون حقا لا مفسدة فيه ولا ذريعة إلى مفسدة ، وبناء على هذا الأصل ننظر في هذه المسألة من وجوه :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٣٤)

أحدها : أن العرف الإسلامي العام يعد تمثيل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إهانة لهم أو مزريا بقدرهم ، ومما أعهد من الوقائع في ذلك أن بعض النصارى كانوا أرادوا أن يمثلوا قصة يوسف عليه السلام في بعض المدن السورية فهاج المسلمون لذلك ، وحاولوا منعهم بالقوة ، ورفع الأمر إلى الأستانة فصدرت إرادة السلطان عبد الحميد بمنع تمثيل تلك القصة وأمثالها ، فإن قيل إن بعض مسلمي مصر كأولئك المتعلمين القائلين بالجواز لا يعدون ذلك إهانة ولا إزراء إذ لا يخفى على مسلم أن إهانة الأنبياء أو الإزراء بهم أقل ما يقال فيه إنه من كبائر المعاصي ، وقد يكون كفرا صريحا وردة عن الإسلام ، نقول إنما العبرة في العرف بالجمهور الذي تربى على آداب الإسلام وأحكامه لا بالأفراد القلائل ، ومن غلبت عليهم التقاليد الإفرنجية ، حتى صاروا يفضلونها على الآداب الإسلامية ، كذلك القاضي الأهلي الذي حكم ببراءة أستاذ مدرسة أميرية غازل امرأة محصنة وتصباها ، وكاشفها بافتتانه بجمالها حتى هجره الرقاد ، وواصله السهاد .

(٣١٩/١)

فشكت المحصنة هذه الوقاحة إلى زوجها فرفع الزوج الأمر إلى قاضي العقوبات طالبا تعزير ذلك العادي المفتات ، فكان رأي القاضي أن مغازلة المحصنات الحسان وتصبيهن ، يحتمل ذلك الكلام الذي يفسدهن على أزواجهن ، ولا يقتضي سجنا ولا غرامة ، ولا تأنيبا ، ولا ملامة ؛ لأنه إظهار لحب الحسن والجمال ، وهو من ترقي الذوق وآيات الكمال ، ولكن ما رآه هذا القاضي المتفرنج حسنا وكمالا ، رآه السواد الأعظم من المسلمين نقصا قبيحا ، وأنكره عليه في الجرائد حتى منعتها مراقبة المطبوعات من التمادي في الإنكار ، واستأنف الزوج الحكم فنقضه الاستئناف ، وحكم بأن كلام ذلك الأستاذ جريمة منافية للآداب ، ولو حاول بعض أجواق التمثيل تمثيل قصة أحد الرسل الكرام –عليهم الصلاة والسلام– لرأوا من إنكار العلماء والجرائد ما لا يخطر ببال أولئك الأفراد الذين يرون جوازه ، ولو وقع مثل ذلك في بلد لم تذلل أهله سيطرة الحكام لما كان إلا مثارا للفتنة ولتصدى الناس لصد الممثلين بالقوة ، بل يغلب على ظني أن أكثر الناس يعدون تمثيل الأمراء والسلاطين ، وكبار رجال العلم والدين ، مما يزري بمقامهم ، ويضع من قدرهم ، وأن أحدا من هؤلاء الكبراء لا يرضى لنفسه ذلك .

(٣٢٠/١)

الوجه الثاني : إن أكثر الممثلين لهذه القصص من سواد العامة ، وأرقاهم في الصناعة لا يرتقي إلى مقام الخاصة ، فإن فرضنا أن جمهور أهل العرف لا يرون تمثيل الأنبياء إزراء بهم على إطلاقه أفلا يعدون من الإزراء والإخلال بما يجب لهم من التعظيم أن يسمى (السي فلان) أو (الخواجة فلان) إبراهيم خليل الله أو موسى كليم الله أو عيسى روح الله أو محمدا خاتم رسل الله ؟ فيقال له في دار التمثيل : يا رسول الله ما قولك في كذا . . . . . فيقول كذا . . . . . ولا يبعد بعد ذلك أن يخاطبه بعض الخلعاء بهذا اللقب في غير وقت التمثيل على سبيل الحكاية أو من باب التهكم والزراية ، كأن يراه بعضهم يرتكب إثما فيقول له : مدد يا رسول الله! ألا إن أباحة تمثيل هؤلاء الناس للأنبياء قد تؤدي إلى مثل هذا ، وكفى به مانعا لو لم يكن ثم غيره .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٣٥)

الوجه الثالث : تمثيل الرسول في حالة أو هيئة تزري بمقامه ولو في أنفس العوام وذلك محظور ، وإن كان تمثيلا لشيء وقع ، مثال ذلك أن يمثل بعض هؤلاء الممثلين المعروفين يوسف الصديق عليه السلام بهيئة بدوي مملوك تراوده سيدته عن نفسه وتقد قميصه من دبره ، ثم يمثله مسجونا مع

المجرمين ويتجلى النظر في هذا الوجه ببيان مسألة من أعظم المسائل يغفل عنها أمثال أولئك الباحثين الذين ذكرهم المستفتي ، وهي أن الرسل –عليهم الصلاة والسلام– بشر ميزهم الله تعالى بما خصهم به من الوحي ، وهداية الخلق إلى الحق ، وقد كانت بشريتهم حجابا على أعين الكافرين حال دون إدراك خصوصيتهم ، فأنكروا أن يكون الرسول بشرا مثلهم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق .

(٣٢١/١)

وروي عن المسيح –عليه السلام– أن النبي لا يهان إلا في وطنه وقومه ، وقال بعض العلماء في المعنى : أزهد الناس في الولي أهله وجيرانه ، أي لأنهم قلما يرون منه إلا ما هو مشارك لهم فيه من الصفات والعادات وأما ما يمتاز به من دقائق الورع والتقوى والمعرفة بالله تعالى فمنه ما هو سلبي لا يفطنون له ، ومنه ما هو خفي لا يدركونه ، ولذلك احتيج في إيمان أكثر الناس بالرسل قبل الارتقاء العقلي إلى الآيات الكونية ، وبعده إلى الآيات العلمية ، (كالقرآن الحكيم من الأمي) والذين يؤمنون بالرسل من بعدهم يسمعون من أخبار آياتهم وخصائصهم وفضائلهم أكثر مما يسمعون من أخبار عاداتهم وصفاتهم البشرية ، وبذلك يكون تعظيمهم وإجلالهم لهم غير مشوب بما يضعف الإيمان بهم من تصور شئونهم البشرية ، على أن الواجب أن يعرفوا منها ما يحول دون الغلو في التعظيم والإطراء الذي يدفع به الغلاة الأنبياء إلى مقام الربوبية والإلهية ، والتفريط في ذلك كالإفراط .

فتمثيل أحوال الأنبياء وشئونهم البشرية بصفة تعد زراية عليهم وازدراء بهم أو مفضية إلى ضعف الإيمان والإخلال بالتعظيم المشروع مفسدة من المفاسد التي يحظرها الشرع ، فكيف إذا أضيف إليها كون التمثيل في حد ذاته يعد في العرف العام تنقيصا أو إخلالا ما بما يجب من التكريم وكون الممثلين من عوام الناس ، وقد علمت ما في هذا وذاك ؟

(٣٢٢/١)

الوجه الرابع : إن من خصائص القصص التمثيلية الكذب ، وإن الكذب على الأنبياء ليس كالكذب على غيرهم ، فإذا جاز أن يسند إلى أسماء لا مسميات لها كلام تقصد به العظة والفائدة كما يحكون مثل ذلك عن ألسنة الطير والوحش ، وهو ما احتج به الحريري في فاتحة مقاماته على جواز وضعه لها ، وإذا صح أن يقاس على ذلك إسناد مثل ذلك الكلام إلى أناس معروفين من الملوك وغيرهم

فيما لا ضرر فيه ولا إفساد في التاريخ ولا غيره من الحقائق ، إذا جاز ما ذكر وصح القياس فلا يظهر جواز مثله في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، على أن في المسألة نصا لا محل للقياس مع مورده ، قال صلى الله عليه وسلم : صحيح البخاري الجنائز (١٢٢٩)،صحيح مسلم مقدمة (٤)،مسند أحمد بن حنبل (٢٥٢/٤). إن كذبا علي ليس ككذب على أحد ، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٣٦)

رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما من حديث سعيد بن زيد ، وروى عجزه –وهو من كذب علي إلخ– متواترا ، وروى أحمد من حديث عمر مرفوعا مسند أحمد بن حنبل (٤٧/١). من كذب علي فهو في النار وهو مطلق لم يقيد بالتعمد ، وإسناده صحيح وقياس الكذب على غيره من إخوانه الرسل عليه الصلاة والسلام جلي ، فهو أقرب من قياس الكذب على الرسل على الكذب على العجماوات الذي احتج به الحريري ، وأشار إلى اتفاق العلماء على جوازه الكذب عليهم يشمل ما يحكى عنهم من أقوال لم يقولوها ، وما يسند إليهم من أعمال لم يعملوها .

(٣٢٣/١)

فإن قيل : إنه يمكن وضع قصة لبعض الرسل يلتزم فيها الصدق في كل ما يحكى عنه أو يسند إليه ، قلنا : إن النقل الذي يعتد به عند المسلمين هو نقل الكتاب والسنة ، ولا يوجد قصة من قصص الأنبياء في القرآن يمكن فيها ذلك إلا قصة يوسف ، وكذا قصة موسى وقصة سليمان مع ملكة سبأ إذا جعل التطويل فيهن في غير الحكاية عنهم ، والأولى هي التي يرغب فيها الممثلون ويرجى أن يقبل على حضور تمثيلها الكثيرون ، وفيها من النظر الخاص ما بيناه في الوجه الثالث ، أما السنة فليس في أخبارها المرفوعة ولا الموقوفة ما يبلغ أن يكون قصة تصلح للتمثيل إلا وقائع السيرة المحمدية الشريفة ، والعلماء بها لا يكاد أحد منهم يقدم على جمع طائفة منها وجعلها قصة تمثيلية . وإذا فتح هذا الباب ووجد منهم من يدخله على سبيل الندرة لا يلبث أن يسبقه إليه كثير من الجاهلين بالسنة المتقنين لوضع هذه القصص بالأسلوب الذي يرغب فيه الجمهور فيضعون من قصص الأنبياء المشتملة على الكذب ما يكون أروج عند طلاب الكسب بالتمثيل فيكون وضع الصحيح ذريعة إلى هذه المفسدة .

فعلم من هذه الوجوه أن جواز تمثيل قصة رسول من رسل الله عليهم السلام يتوقف على اجتناب جميع ما ذكر من المفاسد وذرائعها بحيث يرى من يعتد بمعرفتهم وعرفهم من المسلمين أنه لا يعد إزراء بهم ، ولا منافيا لما يجب من تعظيم قدرهم صلوات الله وسلامه عليهم وعلى من اهتدى بهم .

(٣٢٤/١)

قرار لجنة الفتوى بالأزهر

كما صدرت فتوى مستفيضة من اللجنة المختصة بالفتوى في مجلة الأزهر في عددها الصادر في رجب عام ١٣٧٤ في حكم تمثيل الأنبياء قد يكون في مبررات القول بمنع تمثيلهم ما يصلح مبررا للقول بمنع تمثيل الصحابة وهذا نص المقصود منه :

التمثيل

التمثيل في المسرح

تشخيص الأفراد الذين تتألف منهم القصة أو الرواية التي يراد عرضها على النظارة تشخيصا يحكيها طبق

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٣٧)

أصلها الواقع أو المتخيل ، أو هو بعبارة موجزة ترجمة حية للقصة وأصحابها .

وقد تلتقط صورة للمثلين في المسرح على شريط خاص يسمونه " الفلم " ليعرض على النظارة في شاشة السينما .

(٣٢٥/١)

هل يمكن تمثيل الأنبياء ؟

لندع القصص المكذوبة على أنبياء الله جانبا ، ولنفترض أن التمثيل لا يتناول إلا القصص الحق الذي قدمنا شذرات منه عاجلة ، ثم نتساءل :

١ – كيف يمثل آدم أبو البشر وزوجه وهما يأكلان من الشجرة ؟ وما هي هذه الشجرة ؟ أهي شجرة الحنطة ؟ أم هي شجرة التين ؟ أم هي النخلة ؟ . . . وعلى أي حال نمثلهما وقد طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ؟ وهل نمثل الله تعالى وقد ناداهما سورة الأعراف الآية ٢٢ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ؟ أو نترك تمثيله تعالى وهو ركن في الرواية ركين ؟ سبحانك سبحانك نعوذ بك من سخطك ونقمتك ومن هذا الكفر المبين ؟ ؟

٢ – وكيف يمثل موسى وهو يناجي ربه ؟ وكيف يمثل وقد وكز المصري فقتله ؟ بل كيف يمثل وقد أحاط به فرعون والسحرة ، ورماه فرعون بأنه مهين ، ولا يكاد يبين ؟ وكيف تمثل العقدة ، التي طلب من الله أن يحلها من لسانه ؟ وما مبلغ كفر النظارة والممثلين إذا أفلتت – ولا بد أن تفلت– منهم فلتة مضحكة أو هازلة حينما يتمثلون الرسولين وقد أخذ أحدهما برأس الآخر وجره إليه ؟ وما مبلغ

التبديل والتغيير لخلق الله الفطري ليطابق هذا الخلق الصناعي وقد عملت فيه أدوات الأصباغ والعلاج عملها ؟

٣ – وكيف يمثل يوسف الصديق وقد همت به امرأة العزيز ، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ؟ وما تفسير الهم في لغة الفن ؟

(٣٢٦/١)

---

٤ – وكيف يمثل أنبياء الله وأقوامهم يرمونهم بالسحر تارة ، وبالكهانة والجنون تارة أخرى ؟ بل كيف يمثلون حينما كانوا يرعون الغنم " وما من نبي إلا رعاها " ؟ بل كيف يمثلون وقد آذاهم المشركون ولم يستح بعضهم أن يرمي القذر والنجس على خاتم النبيين وهو في الصلاة والكفار يتضاحكون ؟ سيقول السفهاء من النظارة –وما أكثرهم– مقالة المستهزئين الكافرين من قبل سورة الفرقان الآية ٤١ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ؟ وسيغضب فريق لأنبياء الله ورسوله فيقاتلون السفهاء وينتقمون منهم وتقوم المعارك الدينية لا محالة سورة الشعراء الآية ٢٢٧ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ

(٣٢٧/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٣٨)

تمثيل الأنبياء تنقيص لهم

لسنا بحاجة بعد هذا إلى بيان أن من قصص الأنبياء ما لا يستطاع تشخيصه ، وأن ما يستطاع تشخيصه من قصصهم فهو تنقيص لهم ، وزراية بهم ، وحط من مقامهم ، وانتهاك لحرماتهم وحرمات الله الذي اختارهم لرسالته واصطفاهم لدعوته . . . لا ريب في ذلك كله ولا جدال . . . وهذا كله في القصص الحق الذي قصه الله علينا ورسوله ، وأما القصص الباطل –وما أكثره– فهو زور على زور وكفر على كفر ، وهو البلاء والطامة . . وما نظن أن أحدا يستطيع أن يجادل في هذه الحقائق الناصعة . . وأكبر علمنا أن أول من يخضع لها ويؤمن بها هو أهل الفن أنفسهم فإنهم أرهف حسا وأشد إدراكا لمقتضيات التمثيل وملابساته .

على أنا لو افترضنا محالا ، أو سلمنا جدلا بأن تمثيل الأنبياء لا نقيصة فيه ولا مهانة ، فلن نستطيع بحال أن نتجاهل أنه ذريعة إلى اقتحام حمى الأنبياء وابتذالهم ، وتعريضهم للسخرية والمهانة ، فالنتيجة التي لا مناص منها ولا مفر : أن تشخيص الأنبياء تنقيص لهم أو ذريعة إلى هذا التنقيص لا محالة .

(٣٢٨/١)

سد الذرائع

وسد الذرائع ركن من أركان الدين والسياسة . . فقد أجمع العلماء أخذا من كتاب الله وبيان ورسوله على أن من أعمال الناس وأقوالهم ما حرمه الله تعالى ؛ لأنه يشتمل على المفسدة من غير وساطة : كالغضب والقذف والقتل بغير حق ، وأن من الأعمال والأقوال ما حرمه الله سبحانه ؛ لأنه ذريعة إلى المفسدة ووسيلة إليها ، وإن لم يكن هو في نفسه مشتملا على المفسدة . . ومن ذلك مناولة السكين لمن يسفك بها دما معصوما ، فالمناولة في نفسها عارية عن المفسدة ، ولكنها وسيلة إليها ، ومن ذلك سب معبودات المشركين وهم يسمعون ، فهو في نفسه جائز ، ولكنه منع لجره إلى مفسدة ، وهي إطلاق ألسنة المشركين بسب الله تعالى ، ولهذا نهانا الله سبحانه عن هذا السب فقال : سورة الأنعام الآية ١٠٨ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ

ومن هذا القبيل تفضيل بعض الأنبياء على بعض ، هو نفسه جائز ، فقد فضل الله بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات ، ولكنه يمنع حينما يجر إلى الفتنة والعصيبة . . وقد تخاصم مسلم ويهودي في العهد النبوي ، ولطم المسلم وجه اليهودي ؛ لأنه أقسم بالذي اصطفى موسى على العالمين ، وأقسم المسلم بالذي اصطفى محمدا على العالمين . . فلما بلغت الخصومة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين غضب حتى عرف الغضب في وجهه ، وقال : صحيح البخاري الخصومات (٢٢٨٠)،صحيح مسلم الفضائل (٢٣٧٣)،سنن الترمذي تفسير القرآن (٣٢٤٥)،سنن أبو داود السنة (٤٦٧١)،مسند أحمد بن حنبل (٢٦٤/٢). لا تخيروني على موسى . ثم أثنى عليه بما هو أهله ونهاهم أن يفضلوا

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٣٩)

(٣٢٩/١)

بين أنبياء الله تعالى سدا لذريعة الفتن وحرصا على وقارهم صلوات الله وسلامه عليهم . . . وإذا كانت الدول تشدد في سد الذرائع وترى ذلك ركنا من أركان السياسة والأمن والنظام والمعاملات الدنيوية ، فإنه في العقائد أخلق ، وفي مقام النبوة أوجب وأحق .

(٣٣٠/١)

مفاسد تمثيل الأنبياء

ومفاسد تمثيل الأنبياء كثيرة نكتفي منها بهذه الأمثلة :

١ – تشكيك المؤمنين في عقائدهم وتبديد ما وقر في نفوسهم من تمجيد هذه المثل العليا ، إذ أنهم قبل رؤية هذه المشاهد يؤمنون حقا بعظمة الأنبياء ورسالتهم ، ويتمثلونهم حقا في أكمل مراتب الإنسانية وأرفع ذراها –إذا هم بعد العرض قد هانت في نفوسهم تلك الشخصيات الكريمة ، وهبطت من أعلى درجاتها إلى منازل العامة والأخلاط ، وقد تقمصهم الممثلون في صور وأشكال مصطنعة مما يتقلص معه ظل الدين والأخلاق .

٢ – إثارة الجدل والمناقشة والنقد والتعليق حول هذه الشخصيات الكريمة وممثليها من أهل الفن والمسرح تارة ، ومن النظارة تارة أخرى ، وها نحن أولا نرى صفحات للفن والمسرح ومجادلات في التعليق والنقد ، وأنبياء الله ورسله مثل كلام الله عز وجل ، فوق النقد والتعليق .

٣ – التهاب المشاعر ، وتحزب الطوائف ، ونشوب الخصام والقتال بين أهل الأديان كما وقع بين المسلم واليهودي في العصر النبوي ، وما أحوجنا إلى الأمن والاستقرار وإطفاء الفتن وتسكينها لا إثارتها وإشعالها .

٤ – الكذب على الله ورسله ؛ لأن التمثيل أو التخيل ليسا إلا لترجمة للأحوال والأقوال والحركات والسكنات ، ومهما يكن فيها من دقة وإتقان فلا مناص من زيادة أو نقصان ، وذلك يجر طوعا أو كرها إلى الكذب والضلال ، والكذب على الأنبياء كذب على الله تعالى ، وهو كفر وبهتان مبين والعياذ بالله .

(٣٣١/١)

هذه أمثلة من مفاسد تمثيل الأنبياء . . فماذا تفيد الإنسانية من هذا التمثيل إلا الضلال والنكال ، وإذا كان الله جلت قدرته قد أعجز الشياطين عن أن يتشبهوا بالأنبياء توقيرا وإعظاما لهم –عليهم الصلاة والسلام– كما يدل على ذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : صحيح البخاري العلم (١١٠)،صحيح مسلم الرؤيا (٢٢٦٦)،سنن الترمذي الرؤيا (٢٢٨٠)،سنن ابن ماجه تعبير الرؤيا (٣٩٠١)،مسند أحمد بن حنبل (٢٣٢/٢). من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي وسبق أن قلنا : إن الأنبياء أخوة يمس كل واحد منهم ما يمس أخاه ، نقول : إذا كان الله سبحانه قد حال بين الشياطين وبين التمثيل بالأنبياء مع أنه أعطاهم القدرة على التشكيل كما يهوون ، فكيف يستبيح الإنسان لنفسه أن يكون أخبث من الشيطان

بتمثيل الأنبياء .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٤٠)

ثم ماذا يكون الشأن إذا اجترأ إنسان على التمثيل بالنبي محمد أو غيره واهتاج الناس ، وأثار شعورهم استياء من الجرأة على قداسة النبوة وخاصة في نفوس المتدينين ؟

إن حقا محتوما علينا أن نجل الأنبياء ، وأن نجل آل الأنبياء وأصحاب الأنبياء عن التمثيل والتشخيص ، واحتراما وإجلالا للأنبياء أنفسهم . . لأن حرمتهم مستمدة من حرمة الأنبياء ، كما أن حرمة الأنبياء مستمدة من حرمة الله عز وجل ، وهذا بعض حقهم على الإنسانية جزاء ما صنعوا لها من جميل وأدوا إليها من إحسان .

خلاصة البحث

وجملة القول أن أنبياء الله تعالى ورسله معصومون بعصمة الله لهم من النقائص الخلقية والخلقية ، وأن تمثيلهم تنقيص لهم أو ذريعة إلى التنقيص لا محالة ، وكلاهما مفسدة أو مؤد إلى المفسدة التي من شعبها إثارة العصبيات والفتن التي لا يعلم مداها إلا الله تعالى .

للفن ميدان فسيح

(٣٣٢/١)

وأن في الأدب والتاريخ وتصوير الفضائل ومكارم الأخلاق لميدانا فسيحا للفن والتمثيل ، فليتجه إليها الفن ما شاء له الاتجاه ، وليبتكر ما شاء له الابتكار ، وليدع أنبياء الله ورسله محفوفين-كما حفهم الله تعالى- بالجلال والوقار ، وليعمل على أن يكون مفتاحا للخير مغلاقا للشر ، فطوبى لمن كان كذلك ، والويل ثم الويل لمن يثير غضب الله وسخطه وانتقامه وغيرته لأنبيائه .

في قصص الأنبياء كفاية

سورة يوسف الآية ١١١ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وأن العبرة لا تزال ماثلة في مواطنها واضحة في معالمها ، ينتفع بها في القرآن الكريم ، وصادق الأخبار ، ولو شئنا لأطلنا ، ولكن في هذا بلاغا .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٤١)

النتيجة

من أجل ما قدمنا تقرر في ثبات واطمئنان أنه لا ينبغي ، ولا يحل بحال أن يشخص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في المسرح ولا على شاشة السينماء . . والله نسأل أن يجمع قلوبنا على محبته وتوقير أنبيائه ورسله ، وأن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين

والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

١٠ من جمادي الآخرة سنة ١٣٧٤ هـ الموافق ٣ من فبراير سنة ١٩٥٥ م

عبد اللطيف السبكي

مدير التفتيش وعضو جماعة كبار العلماء

طه محمد الساكت

حافظ محمد الليثي

عبد الكريم جاويش

مفتش العلوم الدينية والعربية

(٣٣٣/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٤٢)

كما صدرت فتوى من لجنة الفتوى بالأزهر نشر في مجلة الأزهر في عددها الصادر بتاريخ محرم سنة ١٣٧٩ هـ عن حكم تمثيل الشخصيات الإسلامية هذا نصه :

حكم تمثيل الشخصيات الإسلامية ، ومن لم يثبت إسلامهم ، ولهم عون أكيد للنبي الكريم في دعوته .

السؤال : ما حكم الشريعة الإسلامية فيمن يمثل الشخصيات الآتية على شاشة التليفزيون :

١ – الصحابة ، وهل منهم من يجوز ظهور من يمثله علما بأن بلالا قد ظهر من يمثله في فيلم ظهور الإسلام وخالد بن الوليد في فيلم خالد بن الوليد .

٢ – بنات النبي صلى الله عليه وسلم .

٣ – أبا طالب ممن لم يثبت إسلامهم ، وكان لهم عون أكيد للنبي صلى الله عليه وسلم في دعوته ، وكذلك التابعين وتابع التابعين .

٤ – مسلمين ومسلمات لم تثبت صحبتهم للرسول ، وعلى الأخص طالب بن أبي طالب ؟

الجواب

إن التمثيل في ذاته وسيلة ثقافية سواء كان على المسارح أو الشاشة أو التلفزيون فإن كثيرا من وقائع التاريخ ، وأحداث السياسة ومواقف الأبطال في ساحات الجهاد ، والدفاع عن الأوطان ينبغي أن يتجدد ذكرها وينادى بها لتكون فيها القدوة الحسنة للأجيال الحديثة ، وخير وسيلة لإحياء تلك الذكريات أن يكون القصص عنها بتمثيلها تمثيلا واقعيا غير أن التمثيل قد يتجاوز الأهداف الجدية ، ويتخذ وسيلة للترفيه الممنوع ، وبث الدعاية نحو أغراض غير كريمة ، وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ حول شخصيات من السابقين ، والتاريخ يكون مشوبا بما يحتاج إلى تمحيص من العصبيات .

وبما أن السابقين من الصحابة –رضي الله عنهم– لهم مقام كريم ، وشأن خاص بين جماعة المسلمين ، وبما أن تمثيلهم على المسارح أو الشاشة قد ينحرف بهم إلى ما يمس بشخصياتهم أو عن تاريخهم الحق لما يتعرضون له أحيانا من أكاذيب القصاصين أو أهواء المتعصبين لبعض ضد البعض الآخر من جراء الفتن والخلافات التي قامت حولهم في أزمانهم وانقسام الناس في تبعيتهم إلى طوائف وأشياع بسبب الدسائس بينهم فإن اللجنة إزاء هذه الاعتبارات تفتي بما يأتي :

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٤٣)

أولا : عدم جواز ظهور من يمثل كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين ومعاوية وأبنائهم –رضي الله عنهم جميعا– لقداستهم ولما لهم من المواقف التي نشأت حولها الخلافات وارقسام الناس إلى طوائف مؤيدين ومعارضين . . أما من لم ينقسم الناس في شأنهم كبلال وأنس وأمثالهما فيجوز ظهور من يمثل شخصياتهم بشرط أن يكون الممثل غير متلبس بما يمس شخصية من يمثله .

ثانيا : عدم جواز ظهور من يمثل زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وبناته ؛ لأن حرمتهم من حرمته عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الله تعالى في شأن نسائه سورة الأحزاب الآية ٣٢ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ وبناته بذلك أولى .

ثالثا : من لم تثبت صحبته من الرجال المسلمين ، وكذلك التابعين وأتباعهم لا مانع من ظهور من يمثل شخصياتهم متى روعي في التمثيل ما من شأنه ألا يخل بكرامة المسلم ، وأما النساء المسلمات فيجب الاحتياط في تمثيلهن أكثر مما يحتاط في تمثيل الرجال المسلمين الذين لم تثبت صحبتهم ، وعلى المرأة التي تقوم بالتمثيل ألا يوجد مع تمثيلها اختلاط بأجنبي عنها من الرجال ، ولا يصحبه كشف ما يحرم كشفه من جسمها ، ولا يكون معه تكسر في صوتها ، ولا حركات مثيرة للغرائز ، ولو مع ستر الجسم ، إذا كان الأمر كذلك فلا حرمة في التمثيل خصوصا إذا كان التمثيل لغرض علمي يعود على الأفراد والأمة بالفائدة .

وأما إن صحبه اختلاط بالرجال الأجانب أو كشف ما لا يحل كشفه من جسمها أو وجد معه تكسر في صوتها أو حركات مثيرة للغرائز بجسمها ولو مع ستره أو كان لباسها يحدد مفاتن جسمها فإن التمثيل حينئذ يكون محرما على من تقوم بهذا التمثيل .

رابعا : من لم يثبت إسلامه كأبي طالب وغيره ممن له عون أكيد في دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ونصرته لا مانع من ظهور من يمثله إذا روعيت صلة عودته للنبي عليه الصلاة والسلام بحيث لا يكون في تمثيله ما يخدش مقامه تقديرا لما كان منه نحو الرسول عليه السلام من مناصرة وعون أكيد .

(٣٣٦/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٤٤)

قصص الأنبياء في السينما

وصدر بحث للأستاذ محمد علي ناصف نشر في مجلة الأزهر في عددها الصادر بتاريخ المحرم عام ١٣٤٢ بعنوان " قصص الأنبياء في السينما " هذا نصه :

اعترضت مشيخة الأزهر على فكرة إنتاج فيلم سينمائي يتناول حياة يوسف عليه السلام ، وحاول الأستاذ محمد التابعي في مقالين بجريدة الأخبار أن يثبت :

أولا : أن رأي رجال الدين في هذا الموضوع لم يتطور ، ولم يختلف عن آراء لهم قديمة .

ثانيا : أنهم ناقضوا أنفسهم فلم يحتجوا على حديث نشرته صحيفة " الأهرام " في عام ١٩٥٥ م جاء فيه أن " سيسل دي ميل " يبحث عن ممثل يسند إليه القيام بتسجيل " صوت الله " باللغة العربية في الطبعة التي ستوزع على البلاد الإسلامية في فيلم " الوصايا العشر " الذي يخرجه ويبدو لي أن الأستاذ التابعي على قدر اتصاله بالمشتغلين بصناعة السينما ليس لديه الوقت لمشاهدة إنتاجهم ؟ وإلا كان حكمه – وهو الناقد الأريب– أن صناعة السينما عندنا لم تتطور هي الأخرى حتى تتطور الآراء بالنسبة إليها ، وحتى يطمئن ويثق رجال الدين والدنيا في مهارة القائمين بها وفي ائتمانهم على إخراج موضوع جدي عن حياة أحد الأنبياء ، لقد عاصر الأستاذ التابعي صناعة السينما في مصر خلال الثلاثين سنة الأخيرة ، ولعله لا يعترض كثيرا حين أذكر أن تسعين في المائة من الإنتاج الحالي يهبط في مستواه الفني عن أول فيلم أخرجه " ستديو مصر " مثلا وإذا كانت هذه حال السينما عندنا فيجب أن نتردد ونتريث طويلا عن طلب إقحام قصص الأنبياء والرسل في سوق يضرب فيها الفوضى والجهل والارتجال بأوفر سهم .

أن الأفلام الدينية : لا يجب الترخيص بموضوعاتها بمثل البساطة التي ترخص بها لموضوعات الأفلام الأخرى لأسباب كثيرة .

(٣٣٧/١)

أولها : مكانة مصر في العالم الإسلامي ، واعتبار ما يصدر عنها مثلا يحتذى ، ولقد سمعت من أحد الدبلوماسيين أن بعض الأفلام المصرية التي عرضت في إندونيسيا كان لتفاهتها أسوأ الأثر في نفوس الذين شاهدوها ، لدرجة اضطرت معها سفارتنا هناك إلى التدخل والنصح باتباع سياسة معينة في هذا الشأن ، فما بالك إذا كانت هذه الأفلام تعالج موضوعات لها قداستها وجلالها .

(٣٣٨/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٤٥)

أفلام دينية يروج لها أعداء الإسلام

إن بعض الأفلام الدينية التي رخصنا بصنعها ، ولا تزال تعرض حتى الآن لا يرغب أعداء المسلمين في أكثر من الحصول على حق توزيعها ، ولست أشك في إخلاص معظم منتجي هذه الأفلام ، ولكن الإخلاص وحسن النية لا يعالج بهما القصور الفني ، ولقد حشدنا كل الإخلاص والنيات الحسنة في فيلم " خالد بن الوليد " مثلا : ولكني أعتقد أننا نلنا من شخصية خالد في هذا الفيلم ما عجز عن نيله الروم والفرس ، وقد يقال : إن قصة الفيلم مكتوبة في أسلوب وهيكل رائعين ، ولكن الكتابة الممتازة لا تكفي وحدها ، فمسرحيات " شكسبير " هي هي بنصها على مسرح " الأولد فيك " وعلى مسرح " الانشراح " في بغداد ، ولكن الفارق بين الأداءين هو نفس الفارق بين ترجمة حياة ينتجها للسينما كل من ستديو " مترو جولدوين " وستديو " شبرا " والتمثيل الممتاز لا يكفي كذلك وحده ولا يكفي الإخراج ، أو التصوير . . إلخ . . فإن العمل السينمائي يتألف من عشرات الحلقات المتصلة التي يجب أن تكون جميعها قوية متماسكة ، وفي مستوى متقارب . . ونحن للأسف لم نصل بعد إلى الدرجة التي ننتج فيها فيلما خطيرا تصل نسبة الكمال فيه إلى درجة عالية ، ولذلك يجب أن تقتصر تجاربنا على الموضوعات العادية ، ولا نقحم الدين في هذه التجارب .

(٣٣٩/١)

إن أفلام " الوصايا العشر " و " الرداء " و " كوفاديس " التي ضرب الأستاذ التابعي المثل بها قد تكلف الواحد منها بين ستة ملايين و ١٣ مليونا من الدولارات وعبئت من أجلها أقوى الطاقات الفنية ، ولا يزال أناس يتصدون بالقول إنما نصنع أفلاما ممتازة على مستوى الأفلام العالمية ، والدليل على ذلك أن أصحاب هذه الأفلام لا يجدون متفرجين لها حتى في بلادنا ويطالبون الحكومة بأن توفر لهم جمهورا بقوة القانون ، والدليل الآخر أن فيلما واحدا من هذه الأفلام لم ينل جائزة من

الدرجة الثالثة في أي مهرجان دولي أو شبه دولي .
ويقول فريق أكثر اعتدالا : إن علينا أن نستعين بالخبراء الأجانب في إخراج أفلام عن ظهور الإسلام وفتوحاته وحضارته وأبطاله ، وهذا رأي غير مدروس ، فقد ثبت بالتجربة أن العمل الفني عن دين ما يجب أن يضطلع به رجل يعتنق هذا الدين ويؤمن به في قرارته ، ولقد كنت في الولايات المتحدة عند عرض فيلم " الوصايا العشر " والذي لا يعرفه أكثر الناس أن النقاد اليهود قابلوا الفيلم بجفوة ، ووصفوه بأنه جنسيا أكثر منه دينيا ونقموا على مخرج الفيلم اختياره لتمثيل دور فرعون نجما محبوبا " يول برينز " أكثر من الذي قام بدور موسى " شارلتون هستون " ولو أن " سيسل دي ميل " كان يهوديا لتلافى هذا النقد ، أو لما كان عمله موضع شبهة .
وشبيه بذلك ما قرأته أخيرا عن رفض مدينة سلبي بمقاطعة " يور كشير " الإنجليزية تمثالا ضخما للسيد المسيح
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٤٦)

(٣٤٠/١)

من صنع المثال اليهودي " إبشتاين " بحجة أن ملامح التمثال تدل على القسوة والفظاعة ، إنني أول من يمني النفس بكتابة قصة عمر رضي الله عنه للسينما ، ولكن في الوقت ذاته أعتقد أن قصورنا الفني لن يحقق في الوقت الحالي مثل هذه الأمنية ، وحينما نستطيع أن نخرج أفلاما عن أمجادنا الدينية في نفس المستوى الذي يخرج فيه الغرب أمثال هذه الأفلام عن أمجاده ، فإن التردد والاعتراض يكونان وقتئذ خطأ كبيرا .
من أجل ذلك أعتقد أن مشيخة الأزهر كانت موفقة في رأيها الخاص في قصة " يوسف الصديق " كما كانت كذلك غير متناقضة مع نفسها حينما لم تبادر فتعترض على حديث نشر في " الأهرام " عام ١٩٥٥ أن سيسل دي ميل " يبحث عن ممثل يسند إليه القيام بتسجيل " صوت الله " باللغة العربية في الطبعة التي ستوزع من فيلم " الوصايا العشر " في البلاد الإسلامية ؛ لأنه ونحن الآن في عام ١٩٥٩ لم يعرض الفيلم المذكور بعد في أي بلد إسلامي ، وأعتقد أنه لن يعرض لي أبدا في جمهوريتنا لأسباب أخرى غير الدين ، وأغلب الظن أن " حديث الأهرام " المشار إليه لم يكن صحيحا لأنني –للمصادفة– لازمت " مستر ديميل " خلال السنوات الثلاث التي أنتج فيها هذا الفيلم ، ووقفت على خطته ورأيه في هذا الشأن . . ١ هـ .

(٣٤١/١)

وقصارى القول أن من جرم تمثيل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين نظرا إلى ما لهم من مكانة عالية عند الله بوأهم إياها في محكم كتابه ، وبينها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في صحيح سنته مع ما هو الشأن في التمثيل من اللهو والمجون ، وما عليه أكثر الممثلين من الاستهتار والولع بالخيال الكاذب ، وعدم تحري الحقائق التاريخية وما عرف عنهم من مجاراة رواد المسارح وعشاق التمثيل تحقيقا لرغباتهم ، وإرضاء لأهوائهم ، وإشباعا لميولهم وغرائزهم المنحرفة ، أملا في زيادة الكسب بكثرة الوافدين إليهم ، ففي تمثيلهم الصحابة مدعاة إلى انتقاصهم والحط من قدرهم ، وذريعة إلى السخرية منهم والاستهزاء بهم ، وفي هذا منافاة للكرامة التي أكرمهم الله بها ، ومناقضة للثناء الذي أثنى به عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكفى بهذا مانعا من الدخول لهم هذا المدخل الكريه .

ومن أجاز من العلماء تمثيل الصحابة فإنما بنى فتواه على ما جاء في السؤال من أن القصد إظهار مكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب مع التحري للحقيقة وضبط السيرة ، وعدم الإخلال بشيء من ذلك بوجه من الوجوه رغبة في العبرة والاتعاظ ، ومن عرف حال الممثلين ، وما لهم من أغراض وحال الوافدين إلى المسارح ، وما يهدفون إليه عرف أن هذا النوع من التصوير للتمثيل مجرد فرض وتقدير يأباه واقع الممثلين وروادهم ، وما هو شأنهم في حياتهم وأعمالهم ، هذا ما تيسر جمعه وإعداده ، والله الموفق ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم ، ، ، ،

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو ... عضو ... نائب الرئيس ... رئيس اللجنة

عبد الله بن سليمان بن منيع ... عبد الله بن عبد الرحمن بن غديان ... عبد الرزاق عفيفي ...

إبراهيم بن محمد آل الشيخ

(٣٤٢/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٤٧)

قرارات هيئة كبار العلماء

وبعد اطلاع الهيئة على ما أعدته اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على ذلك وتداول الرأي فيه قررت الهيئة بالإجماع ما يلي :

١ - إن الله سبحانه وتعالى أثنى على الصحابة وبين منزلتهم العالية ومكانتهم الرفيعة ، وفي إخراج حياة أي واحد منهم على شكل مسرحية أو فيلم سينمائي منافاة لهذا الثناء الذي أثنى الله -تعالى- عليهم به وتنزيل لهم من المكانة العالية التي جعلها الله لهم وأكرمهم بها . .

٢ - إن تمثيل أي واحد منهم سيكون موضعا للسخرية والاستهزاء به ويتولاه أناس غالبا ليس

للصلاح والتقوى مكان في حياتهم العامة والأخلاق الإسلامية مع ما يقصده أرباب المسارح من جعل ذلك وسيلة إلى الكسب المادي ، وأنه مهما حصل من التحفظ فسيشتمل على الكذب والغيبة كما يضع تمثيل الصحابة رضوان الله عليهم في أنفس الناس وضعا مزريا فتتزعزع الثقة بأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وتخف الهيبة التي في نفوس المسلمين من المشاهدين ، وينفتح باب التشكيك على المسلمين في دينهم والجدل والمناقشة في أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويتضمن ضرورة أن يقف أحد الممثلين موقف أبي جهل وأمثاله ويجري على لسانه سب بلال وسب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وما جاء به من الإسلام ، ولا شك أن هذا منكر ، كما يتخذ هدفا لبلبلة أفكار المسلمين نحو عقيدتهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم .

٣ – ما يقال من وجود مصلحة ، وهي إظهار مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب مع التحري للحقيقة وضبط السيرة وعدم الإخلال بشيء من ذلك بوجه من الوجوه رغبة في العبرة والاتعاظ ، فهذا مجرد فرض وتقدير فإن من عرف حال الممثلين وما يهدفون إليه عرف أن هذا النوع من التمثيل يأباه واقع الممثلين ورواد التمثيل وما هو شأنهم في حياتهم وأعمالهم . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٤٨)

(٣٤٣/١)

---

٤ – من القواعد المقررة في الشريعة أن ما كان مفسدة محضة أو راجحة فإنه محرم وتمثيل الصحابة على تقدير وجود مصلحة فيه ، فمفسدته راجحة . فرعاية للمصلحة وسدا للذريعة وحفاظا على كرامة أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، يجب منع ذلك . .

(٣٤٤/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٤٩)

عبد الفتاح محمد الحلو

تراجم الفقهاء

شغل الفقه الإسلامي عقول أبناء هذه الأمة منذ هداها الله –عز وجل– إلى دينه ، فقد كان الصحابة –رضوان الله عليهم– يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يعرض لهم ، وكان الوحي يتنزل عليه من السماء بالقول الفصل والحكم القاطع ، وحين انقطع الوحي ، ولحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، كان صحابته رضوان الله عليهم قد فقهوا في دينهم ، وكان بعضهم

كعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب مرجعا مهما في كثير من المعضلات التي تحدث في الأمة ، وهكذا كان العلماء يتسلم الراية بعضهم من بعض ، وينظرون فيما يجد في حياتهم من مسائل على هدى من سبقهم ، ويعملون الفكر استنباطا من كتاب الله وسنة رسوله ، حتى بنوا هذا الصرح الشامخ من الدراسات الفقهية ، الذي واكب الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل ، ووضع لها القوانين والأحكام الضابطة ، وقد أدى اختلاف النظر ، وتوسع رقعة البلاد الإسلامية ، إلى نشأة المذاهب الفقهية ، وتعدد مدارس الفقه ، وتبع كل مذهب فريق من رجال الفكر على مر العصور ، يمحصون قول صاحب المذهب ، ويستدلون له ، وقد يخالفه بعضهم في بعض المسائل ، وقد أثرى هذا الجهد الرائع حصيلة الفقه الإسلامي ، وملأ جوانبه نقاشا ودراسة ، مما أتاح له علاج المشكلات ، والإفتاء في جميع النوازل التي وقعت .

وإذا كانت كتب الفقه في المذاهب المختلفة قد قامت بتسجيل ذلك كله ، وتشعبت مناهجها في تفصيل

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٥٠)

ذلك من المختصرات إلى الكتب المبسوطة ، ومن الكتب التي تعتمد الرأي الراجح إلى الكتب التي تثير مسائل الخلاف وتناقشها ، فإن كتب تراجم الفقهاء أضافت جهدا لا يقل عن ذلك في خدمة الفقه الإسلامي ، والتعريف به على مر العصور .

(٣٤٥/١)

القيمة العلمية للتراجم

إن تراجم الفقهاء تكشف عن حياتهم الخاصة وحياتهم العلمية ، فهي تسجل نسب الفقيه ومولده وموطنه ، وما عرض له في حياته من ظروف أعانت على رسم شخصيته ، والإفصاح عن نوازعه ، وما لقيه في حياته من يسر أو عسر ، ووفاته ، كما تكشف عن أساتذته الذين أخذ عنهم علمه ، ورحلاته العلمية ، والرجال الذين لقيهم ، والكتب التي قرأها على شيوخه ، وحلقات العلم التي تصدرها ، وما أتيح له من التدريس والفتوى والقضاء ، والطلاب الذين أخذوا عنه ، والمناقشات التي شارك فيها ، والمؤلفات التي كتبها ، ومنزلته بين الفقهاء على مر التاريخ .

وهذا كله يسهم في تكوين فكرة كاملة عن الفقيه ، وتتيح لنا رؤية صحيحة لعلمه ، وتقويما سليما لأفكاره ، كما تكشف لنا عن المصدر الأصلي لكل قول في المسائل الفقهية التي ندرسها ، وبذلك نستطيع أن نتتبع التسلسل الزمني للأقوال في المسألة الواحدة ، فنعرف السابق من اللاحق والتابع من المتبوع ، كما نستطيع أن نضع المسألة في الزمن الذي نبتت فيه المشكلة فنتعرف على الظروف الحضارية والبيئية التي واكبت المشكلة ، لنرى إلى أي مدى أمكن لفقهائنا أن يستنبطوا الاستنباط

الصحيح ، وأن يوفقوا إلى الحكم السليم .
وكتب تراجم الفقهاء تزيل اللبس الذي يقع في أسمائهم ، وتكشف عن كناهم وألقابهم ، وربما أدى اللبس في أسماء بعض الفقهاء إلى عزو قول إلى من لم يقله ، أو نفيه عن صاحبه ، أو اتهام من هو بريء من التهمة ، فكان لزاما على الفقيه أن يتعرف إلى وجه الحق في ذلك عن طريق كتب التراجم .
وتعرض كتب تراجم الفقهاء فيما تعرض مثلا عليا عاش عليها الفقهاء ، ونهجا قويما في حياتهم العامة وحياتهم العلمية ، وسلوكا رائعا في مواقفهم ممن يريدون طمس الحق ، أو تزوير العدالة ، أو الخروج عن أحكام الشرع ، وفي ذلك من القدوة ما ينشئ الأجيال على معان كريمة ، وأسس راسخة قوية .

(١/٣٤٦)

معالم مناهج الفقهاء
ولا تكتفي بعض كتب تراجم الفقهاء بإيراد ما سبق الحديث عنه فحسب ، وإنما تضيف إلى ذلك معالم لمنهج الفقيه في فقهه ، وتثير من المسائل الفقهية والجدلية ما لا غنى عنه لدارس الفقه الإسلامي ، وما لا تجده في كتب الفقه المختصرة منها والمبسوطة ، بل إن بعض كتب تراجم الفقهاء
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٥١)
تضم بين دفتيها رسائل في مسائل بعينها ، ضاعت أصولها ، وحفظتها لنا هذه الكتب .
ويدل هذا الذي تقدم على مبلغ الفائدة التي يجنيها الفقيه والمتفقه من الرجوع إلى هذه التراجم ودراستها ، بل إن المثقف المسلم لا يستطيع التعرف إلى صورة كاملة للفكر الإسلامي عبر قرونه المتطاولة إلا إذا عاد إلى كتب التراجم هذه ينبشها ، ويلتقط اللمحة ، والفكرة إثر الفكرة ، حتى يكتمل تصوره لهذا الفكر في مراحله المختلفة ، ولا أجد في نفسي اطمئنانا إلى كاتب يتصدر للفكر الإسلامي ، وهو مبتوت الصلة بهذا التراث العظيم ، بعيد عما فيه من ثروة فكرية ، ونماذج للفكر الإنساني الرفيع ، فلا بد من عودة إلى تراثنا في هذا الجانب نستلهمه ونفيد منه ، ونيسر قراءته للناس .
أما عن جهود العلماء في تسجيل تراجم الفقهاء ، فالحديث عنها يطول ، وسأقصر حديثي هنا على ما عرفته من المصنفات لأئمة المترجمين للفقهاء من أتباع المذاهب الأربعة ، وهي على الترتيب الزمني : الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة .

(٣٤٧/١)

ولقد كان الشافعية أسبق رجال المذاهب الفقهية إلى تدوين تراجم رجالهم ، وتلاهم في هذا الحنابلة ، وتبعهم المالكية أو واكبوهم ، ثم جاء الحنفية في آخر المطاف ليسجلوا تراجم رجالهم ، ولا ينقص هذا ما ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١ / ٢٨) من أن الشيخ الإمام أبا بكر الحسن بن محمد بن الحسن الزبيدي النحوي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ قد ألف كتابا في أخبار الفقهاء المتأخرين من أهل قرطبة ، وأن أبا عمر وأحمد بن محمد قد صنع منتخبا له ، فربما كان كتاب الزبيدي في تراجم الفقهاء من المذاهب المختلفة ؛ ذلك أننا لا نعرف الشيء الكثير عن المذهب السائد في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري ، ولا نستطيع القول بأن المذهب المالكي فرض سلطانه على الجزيرة في هذه الفترة المبكرة من حياتها الفقهية .

(٣٤٨/١)

مصنفات الشافعية

ونبدأ بذكر مصنفات الشافعية في تراجم أهل مذهبهم :

القرن الخامس :

ففي القرن الخامس الهجري تصدى لهذا العمل رجال هم الإمام أبو حفص عمر بن علي المطوعي ، المتوفى نحو سنة ٤٤٠ هـ ، حيث صنف للإمام أبي الطيب سهل الصعلوكي كتابا سماه " المذهب في ذكر

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٥٢)

شيوخ المذهب " طبقات الشافعية الكبرى (الحلبي) ١ / ٢١٦ . والإمام الطيب الطبري القاضي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، الذي صنف مختصرا ذكر فيه مولد الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وعد في آخره جماعة من أتبلعه المرجع السابق . والإمام أبو عاصم العبادي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ ، حيث ألف كتابه الطبقات المرجع السابق . ، والإمام أبو إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ هـ المرجع السابق . وكتابه في تراجم الفقهاء يضم إلى الشافعية رجال المذاهب الأخرى (المالكية والحنابلة ، والحنفية ، والظاهرية) والحافظ أبو محمد عبد الله بن يوسف الجرجاني المتوفى سنة ٤٨٩ هـ ، حيث ألف كتابه الطبقات المرجع السابق . والقاضي أبو محمد عبد الوهاب بن محمد الشيرازي المتوفى سنة ٥٠٠ هـ ، صاحب كتاب تاريخ الفقهاء المرجع السابق . .

القرن السادس :

وفي القرن السادس الهجري ألف المحدث أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي المعروف بفندق المتوفى سنة ٥٦٥ هـ كتابا سماه وسائل الألمعي في فضائل الشافعي المرجع السابق . ثم جمع الشيخ الإمام أبو النجيب السهروردي المتوفى سنة ٥٦٣ هـ مجموعات في تراجم الشافعية المرجع السابق ١ / ٢١٧ . .

القرن السابع :

(٣٤٩/١)

وفي القرن السابع الهجري ألف الشيخ ابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣هـ كتابه ، ولكن المنية عاجلته والكتاب مسودة ، فأخذه الإمام أبو زكريا النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ ، واختصره وزاد أسام قليلة جدا ، ومات أيضا وكتابه مسودة ، فبيضه الحافظ أبو الحجاج المزي المتوفى سنة ٧٤٢ هـ المرجع السابق . . كذلك ألف الشيخ عماد الدين بن باطيش المتوفى سنة ٦٥٥ هـ ، كتابه في تراجم الشافعية المرجع السابق . .

القرن الثامن :

وحفل القرن الثامن الهجري بمؤلفات ضخمة في تراجم الشافعية ، فقد ألف تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ في طبقات الشافعية ثلاثة كتب : الطبقات الصغرى ، وطبقات الفقهاء

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٥٣)

(٣٥٠/١)

الشافعيين المعروف بالطبقات الوسطى ، وموسوعته الضخمة طبقات الشافعية الكبرى مقدمة التحقيق لطبقات الشافعية الكبرى ٢٣ – ٣٠ . وألف جمال الدين عبد الرحيم بن حسن الأسنوي المتوفى سنة ٧٧٢ هـ ، كتابا في طبقات الشافعية ، فرغ من تأليفه سنة ٧٦٩ هـ ، ورتبه على حروف الاشتهار ، وذكر في كل حرف فصلين ، أوله في رجال الشرح الكبير والروضة ، والثاني في الزائد عليهما ، ونقل من طبقات التفليسي لموسوي عمر بن بندار المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ، وهي في مجلد ضخم ألفه

قبل الأسنوي كشف الظنون ١١٠١، الدرر الكامنة (الهند) ٢ / ٣٥٤ . ثم صنف الحافظ ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ، كتابه في طبقات الشافعية كشف الظنون ١١٠١، الدرر الكامنة ١ / ٣٧٣ . ، وصنف محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ كتابه المطالب العلية في مناقب الشافعية فهرس مخطوطات جامعة الدول العربية، قسم التاريخ . ، وألف شمس الدين محمد بن عبد الرحمن العثماني قاضي صفد المتوفى سنة ٧٨٠ هـ كتابا في طبقات الشافعية كشف الظنون ١١٠١ . ، كما ألف القاضي شرف الدين أبو عبد الله محمد بن قطب الدين بن عبد الرحمن المتوفى في حدود سنة ٨٠٠ هـ كتابه الكافي في معرفة علماء مذهب الشافعي فهرس التاريخ بدار الكتب المصرية . ، وصنف سراج الدين عمر بن علي المعروف بابن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ هـ ، كتابا سماه العقد المذهب في طبقات حملة المذهب ، من زمن الشافعي إلى سنة ٧٨٠ هـ ، ورتبه على ست وثلاثين طبقة كشف الظنون ١١٠١ الضوء اللامع ٦ / ١٠١ فهرس دار الكتب المصرية .

القرن التاسع :

كذلك حظي القرن التاسع الهجري بمؤلفات كثيرة في تراجم الشافعية ، فقد ألف الفيروزآبادي صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧ هـ كتابه المرقاة الأرفعية كشف الظنون ١١٠١ . ، وجمع الشيخ شهاب الدين بن أرسلان بن أحمد بن حسين الشافعي الرملي المتوفى سنة ٨٤٤ هـ في ذلك كتابا كشف الظنون ١١٠١ الضوء اللامع ١ / ٢٨٢ . ، ثم صنف القاضي تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن شهبة الدمشقي الأسدي المتوفى سنة ٨٥١ هـ مصنفا رتبه على تسع وعشرين طبقة ، وذيل عليه الشريف عز الدين حمزة بن أحمد الدمشقي الحسيني المتوفى سنة ٨٧٤ هـ كشف الظنون ١١٠١ الضوء اللامع ١١ / ٢١، ٣ / ١٦٣ فهرس دار الكتب المصرية . ، ثم ألف رضي الدين محمد بن أحمد بن عبد الله العزي العامري المتوفى سنة ٨٦٤ هـ كتابه بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين فهرس جامعة الدول العربية . ، وفي أخريات القرن التاسع ألف القاضي قطب الدين محمد بن محمد الخيضري المتوفى سنة ٨٩٤ هـ كتابا سماه اللمع الألمعية لأعيان الشافعية كشف الظنون ١١٠١ الضوء اللامع ٩ / ١١٧ – ١٢٤ . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٥٤)

القرن العاشر :

أما القرن العاشر فلم يحظ إلا بمجموع في ست ورقات ، كتبه كمال الدين أبو المعالي محمد بن

أحمد الشافعي المقدسي المتوفى سنة ٩٠٦ هـ فهرس جامعة الدول العربية . .

القرن الثاني عشر :

وفي القرن الثاني عشر الهجري صنف أبو بكر بن هداية الله الحسيني الملقب بالمصنف المتوفى سنة ١٠١٤ هـ كتابا في طبقات الشافعية انظر مقدمة التحقيق لطبقات الشافعية . .

وآخر من نعرف ممن ألف في طبقات الشافعية شيخ الإسلام عبد الله الشرقاوي المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ ، وقد جمع في كتابه تراجم متأخري الشافعية من سنة ٩٠٠ إلى سنة ١١٢١ هـ فهرس دار الكتب المصرية . .

(٣٥٢/١)

مصنفات الحنابلة

هذه جهود علماء الشافعية في التعريف برجال مذهبهم أما الحنابلة ، فإن أقدم مصنف نعرفه لهم في ذلك ظهر في القرن السادس الهجري .

القرن السادس :

فقد صنف القاضي أبو الحسين محمد بن محمد الحسين أبي يعلى الحنبلي الفراء الشهيد سنة ٥٢٦ هـ صاحب المجرد في مناقب الإمام أحمد ، كتابا في ذلك انتهى فيه إلى سنة ٥١٢ هـ ، ثم ذيله الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد المعروف بابن النقيب وبابن رجب المتوفى سنة ٧٩٥ هـ .

القرن الثامن :

وللشيخ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السابق الذكر كتاب في تراجم رجال المذهب وصل فيه إلى سنة ٧٥٠ هـ ، ورتبه على الوفيات ، ثم ذيله العلامة يوسف بن حسن بن أحمد الحنبلي المقدسي بكتاب مرتب على الحروف ، سماه الجوهر المنضد في طبقات أصحاب أحمد ، وقد فرغ من تأليفه سنة ٧٨١ هـ ، وذيله أيضا الشيخ تقي الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح الراميني الأصل المقدسي الدمشقي الصالحي المتوفى سنة ٨٠٣ هـ كشف الظنون ١٥٩٣ . .

القرن العاشر :

وفي القرن العاشر الهجري صنف أبو اليمن مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي المتوفى سنة ٩٢٨ هـ كتابه المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد ، وقد اختصر هذا الكتاب جميل

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٥٥)

الشطي من أهل دمشق كما اختصر بعض تراجم الحنابلة من غيره ، وتوجد نسخة من كتابه هذا في

المكتبة السعودية بحي دخنة بالرياض .

القرن الرابع عشر :

وقد صنع عثمان بن بشر النجدي المتوفى سنة ١٢٨٨ هـ فهرسا لطبقات الحنابلة لابن رجب وجعل تراجمها على حروف المعجم مقدمة عنوان المجد صفحة ٢ (مطابع القصيم بالرياض ١٣٨٥ هـ) .

(٣٥٣/١)

وللشيخ محمد بن عبد الله بن علي بن عثمان بن حميد العامري النجدي المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ كتاب " السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة " ومنه نسخة بدار الكتب المصرية بالقاهرة (المكتبة التيمورية) وله أيضا " النعت الأكمل بتراجم أصحاب الإمام أحمد بن حنبل " ذكره في السحب الوابلة الأعلام للزركلي ٧ / ١٢١، ١٢٢، ١٠ / ٣١٢ . .

القرن الثالث عشر :

وللشيخ عبد القادر بن أحمد بن مصطفى ، ابن بدران الدمشقي المتوفى سنة ١٣٤٦ هـ كتاب في طبقات الحنابلة لم يكمل تذكرة أولي النهى والعرفان ٣ / ١٩٢ (مؤسسة النور بالرياض) . ، كما أن إبراهيم بن ضويان المتوفى سنة ١٣٥٣ هـ وهو من أهل الرس في منطقة القصيم ، ألف في تراجم الحنابلة كتاب " كشف النقاب في تراجم الأصحاب " أخبرني بهذا الشيخ عبد الله بن عثمان النجران من علماء الرياض وذكر أن الكتاب مخطوط . .

وقد ذيل محمد بن قاسم العاصمي القحطاني النجدي كتابه " الدرر السنية في الأجوبة النجدية " بجزء خاص في تراجم أصحاب تلك الرسائل والأجوبة ، هو الجزء الثاني عشر ، وجل هؤلاء فقهاء حنابلة .

وللشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ المولود سنة ١٣٣٢ هـ كتاب علماء الدعوة ، وقد طبع بمصر سنة ١٣٨٦ هـ ، وكتاب مشاهير علماء نجد ، وقد طبع بإشراف دار اليمامة سنة ١٣٩٢ هـ ، وعلماء الدعوة (الدعوة إلى التوحيد (التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب) ، وعلماء نجد حنابلة .

وللشيخ محمد بن عبد العزيز بن عثيمين (معاصر) كتاب " تسهيل السابلة في تراجم علماء الحنابلة " ذكر لي هذا الشيخ عبد الله بن عثمان الزجران، وقال : إن الكتاب لا يزال مخطوطا . . هذا وقد اشتمل كتاب " تذكرة أولي النهى والعرفان " للشيخ إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن ، وهو كتاب في تاريخ نجد للسنوات القريبة على تراجم كثيرة مفصلة لعلماء الحنابلة في هذه الديار ، وقد طبع في مؤسسة النور بالرياض في أربعة أجزاء .

مصنفات المالكية

القرن السادس :

وكان القاضي عياض بن موسى اليحصبي المالكي المتوفى سنة ٥٤٤ هـ سابق الحلبة في تسجيل تراجم المالكية ، فقد ألف في ذلك كتابه ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٥٦)

مذهب مالك ، جمع فيه المالكية وأحسن ، وهو تأليف غريب لم يسبق إليه .

القرن الثاني :

ثم ألف ابن فرحون برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد المدني المتوفى سنة ٧٨٩ هـ كتابه في طبقات المالكية ، وسماه الديباج المذهب في علماء المذهب كشف الظنون ١١٠٦ . .

القرن الحادي عشر :

وذيله بدر الدين محمد بن يحيى القرافي المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ بكتابه المسمى بتوشيح الديباج وحلية الابتهاج المرجع السابق ٥٠٧، ١١٠٦ . ، كما ذيله أحمد بابا بن أحمد التنبكتي المتوفى سنة ١٠٣٦ هـ وسمى كتابه نيل الابتهاج .

مصنفات الحنفية

أما علماء الحنفية فقد تأخر بهم القصد إلى القرن الثامن للهجرة ، وظلت تراجمهم مضمنة في كتب التاريخ العامة وتواريخ البلدان وطبقات الأدباء واللغويين والفقهاء ، ثم نشطوا لهذا الأمر ، فحفلت القرون : الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثالث عشر ، بمؤلفات كثيرة ، ترجمت لعلماء المذهب وتضمنت خيارهم ، واشتملت على مسائلهم .

القرن الثامن :

ففي القرن الثامن ألف نجم الدين إبراهيم بن علي بن أحمد الطرطوسي المتوفى سنة ٧٥٨ هـ كتاب وفيات الأعيان من مذهب النعمان ، وجمع صلاح الدين عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن المهندس المتوفى سنة ٦٧٩ هـ تاريخا كبيرا لفقهاء الحنفية ، يذكر ابن حجر أنه تعب عليه ، فإنه طالع كتبا كثيرة ببلاد متفرقة الدرر الكامنة ٢ / ٣٨٧، ٣٨٨، كشف الظنون ١٠٩٩ . ثم جاء أبو محمد محي

الدين عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي المتوفى سنة ٧٧٥ هـ فأخرج كتابه الجواهر المعنية في طبقات الحنفية الدرر الكامنة ٣ / ٦ الفوائد البهية ٩٩، كشف الظنون ٦١٦، ٦١٧، ١٠٩٧ معجم المطبوعات ٣٣ . .

القرن التاسع :

وفي القرن التاسع ألف صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر بن دقمان القاهري المتوفى سنة ٨٠٩ هـ كتاب " نظم الجمان في طبقات أصحاب إمامنا النعمان " الضوء اللامع ١ / ١٤٥ الطبقات السنية ١ / ٢٦٠ كشف الظنون ١٠٩٨، ١٩٦١ . ، ويذكر حاجي خليفة أنه في ثلاث مجلدات ، الأولى في مناقب أبي حنيفة والثانية والثالثة في أصحابه ، وجاء بعد ابن دقمان مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي الشافعي المتوفى سنة ٨١٧ هـ ، فألف كتاب " المرقاة الوفية في طبقات

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٥٧)

الحنفية " تاج العروس (الكويت) ١ / ٤٣ البدر الطالع ٢ / ٢٨٠ الضوء اللامع ١٠ / ٧٩، كشف الظنون ١٠٩٨، ١٦٥٧ . . ولتقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ بتذكرة تاج التراجم ٣، كشف الظنون ٢٦٩ . ، جمع منها قاسم بن قطلو بغا مادة كتابه تاج التراجم ، وصنف القاضي بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ كتابا في طبقات الحنفية الجواهر المضيئة ٢ / ١٦٥، الضوء اللامع ١٠ / ١٣١، كشف الظنون ١٠٩٨ ، كما صنف زين الدين أبو العدل قاسم بن قطلو بغا السوروني الجمال المتوفى سنة ٨٧٩ هـ كتابا مختصرا أسماه تاج التراجم ويذكر ابن الشحنة في هوامشه على أن الإمام مسعود بن شيبه عماد الدين السندي وابن سابق جمعا طبقات أصحاب أبي حنيفة كشف الظنون ١٠٩٩ . ، ولابن الشحنة هذا وهو أبو الفضل محمد بن محمد الثقفي الحلبي المعروف بابن الشحنة الصغير المتوفى سنة ٨٩٠ هـ ، كتاب طبقات الحنفية في عدة مجلدات البدر الطالع ٢ / ٢٦٣ الضوء اللامع ٩ / ٢٩٥ كشف الظنون ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ . .

القرن العاشر :

أما القرن العاشر فقد زخر بعدد كبير من كتب تراجم الحنفية ؛ فقد ألف شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون الصالحي الدمشقي المتوفى سنة ٩٥٣ هـ كتاب " الغرف العلية في تراجم متأخري الحنفية " شذرات الذهب ٨ / ٢٩٨، كشف الظنون ١٠٩٨، ١٢٠٢ الكواكب السائرة ٢ / ٥٢ . ، وألف شمس الدين بن آجا محمد بن محمد كتابا " في طبقات الحنفية ثلاث مجلدات " كشف الظنون ١٠٩٨ . ، واختصر إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحلبي المتوفى سنة ٩٥٦ هـ كتاب صلاح الدين عبد الله بن محمد المهندس الذي سبقت الإشارة إليه ، كما اختصر الجواهر المضيئة المرجع السابق ٦١٧، ١٠٩٩ . ، وألف محمد بن عمر حفيد آق شمس الدين المتوفى سنة ٩٥٩ هـ كتابا في طبقات الحنفية المرجع السابق ١٠٩٨ . ، وجمع المولى علي بن أمر الله الجنائي المتوفى سنة ٩٧٩ هـ مختصر على إحدى وعشرين طبقة كتب فيه المشاهير ، بدأ فيه بالإمام أبي حنيفة ، وختم بابن كمال باشا ريحانة الألبا (الحلبي) ٢١ / ٢٤٩، ٢٦٩ العقد المنظوم ٢ / ٣٧٥، ٣٨٨، كشف الظنون ١٠٩٩ . ، وألف محمود بن سليمان الرومي الكفوي المتوفى سنة ٩٩٠ هـ كتاب كتائب أعلام الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار الأعلام ٨ / ٤٩ الفوائد البهية ٣ . ، كما صنف قطب الدين محمد بن علاء الدين أحمد بن محمد النهرواني (النهروالي) الهندي الحنفي المتوفى سنة ٩٩٠ هـ كتابا في طبقات الحنفية في أربعة مجلدات ، ثم احترق مع كتبه ، ثم كان في صدد تجديدها ولم يمهل البدر الطالع ٢ / ٥٧، ريحانة الألبا ١ / ٤٠٧، شذرات الذهب ٨ / ٤٢٠، كشف الظنون ١٠٩٨ . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٥٨)

القرن الحادي عشر :

وجاء القرن الحادي عشر الهجري فألف تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي المصري الحنفي المتوفى سنة ١٠٠٥ هـ كتابه " الطبقات السنية في تراجم الحنفية " ، وهو أكبر موسوعة في تراجم الحنفية ، وقد أوعى فيه وأجاد كما يقول حاجي خليفة انظر مقدمة تحقيق الطبقات السنية ١٣ – ١٦ . ، ثم ألف نور الدين علي بن سلطان (محمد سلطان) الهروي القاري المتوفى سنة ١٠١٤ هـ كتاب الأثمار الجنية في أسماء الحنفية البدر الطالع ١ / ٤٤٥ خلاصة الأثر ٣ / ١٨٥ الفوائد البهية ٣، ٨ . .

القرن الثالث عشر :

وفي القرن الثالث عشر الهجري شغل أبو الحسنات محمد بن عبد الحي اللكنوي الهندي المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ بهذا الأمر ، ورأى أنه لو جمع رجال المذهب في كتاب فسيصير المجموع أكبر ، لا ينتفع به إلا الأندر ، ففرقهم في أكثر من كتاب ، فصنع لرجال الهداية كتاب " مقدمة الهداية " ، وجعل له ذيلا سماه " مذيلة الدراية " ، وأفرد لتراجم شراح الجامع الصغير وأرباب المتون المشهورة وأصحاب الكتب المعروفة رسالة سماها " النافع الكبير " ، وذكر من له أو لكتابه ذكر في شرح الوقاية كما ذكر شراح الوقاية ومحشى شرح الوقاية وشراح النقابة في مقدمة شرحه لشرح الوقاية المسمى " بالسعاية في كشف ما في شرح الوقاية " ، ثم اطلع على كتاب الكفوي ولخص منه تراجم الفقهاء دون حذف ما يتعلق بها ، ثم حذف الفوائد الفقهية وزاد بعد ذلك عليها ، وسمى عمله هذا " الفوائد البهية في تراجم الحنفية " ، فرغ منه سنة ١٢٩٢ هـ الفوائد البهية ٣، ٤، ٣٤٨، معجم المطبوعات ١٥٩٥ . .

هذا مبلغ ما وصل إليه علمنا من كتاب تراجم الفقهاء ، ولعل ما لم يصل إلينا كثير حافل بالتراجم العلمية ، والفوائد والنكت الفقهية ، وهذا الذي عرفناه من كتب تراجم الفقهاء ، كثير منه نعرفه بالاسم فقط أما أصوله فقد عدت عليها العوادي ، وفقدناها فيما فقدنا من تراثنا العظيم .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٥٩)

(٣٥٩/١)

ولا يتيسر لنا معرفة القيمة الحقيقية للبقية بين أيدينا إلا بدراستها ، والتعرف إلى منهجها ، ولعل لنا عودة إلى هذا الأمر ، يتاح لنا فيها أن ندرس كتب التراجم في كل مذهب من المذاهب الأربعة على حدة ، حتى نميز المعالم المشتركة ، والخصائص التي يتفرد بها كل كتاب ؛ لنستطيع بعد ذلك أن نسجل وصفا تحليليا لتراجم الفقهاء المسلمين ، وعسى أن يكون في هذا ما يدفع إلى قراءة هذا التراث ودرسه والإفادة منه ، والله من وراء القصد .

(٣٦٠/١)

عبد الفتاح محمد الحلو

كلية اللغة العربية بالرياض

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٦٠)

الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو

١ – تخرج من كلية العلوم سنة ١٩٦١ م .

٢ – نال درجة الدكتوراه في الأدب العربي منها سنة ١٩٧٤ م .

٣ – يعمل بمعهد المخطوطات – جامعة الدول العربية ، وهو الآن معار إلى كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالرياض .

٤ – ألف كتاب شعراء هجر عن شعراء المنطقة الشرقية من المملكة في القرون الأربعة الأخيرة .

٥ – حقق من الكتب الأدبية : التمثيل والمحاضرة للثعالبي ، وديوان ابن المقرب ، وريحانة الألبا للشهاب الخفاجي ، ونفحة الريحانة للمحبي ، ودمية القصر للباخرزي .

٦ – حقق في اللغة الجزأين الثالث والعشرين من كتاب تاج العروس للزبيدي .

٧ – حقق من كتب تراجم الفقهاء طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي (بالاشتراك والطبقات السنية في تراجم الحنفية للتميمي) .

٨ – يتابع نشر بعض بحوثه في المجلات العلمية والأدبية .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٦١)

مجلة البحوث الإسلامية

محمد الصباغ

أبو داود

حياته وسننه

الإشراف الفني

جمال النهري

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٦٢)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

فإن الشريعة المطهرة تقوم على المصدرين الخالدين : كتاب الله وسنة رسوله وفيهما الهدى والفلاح . من تمسك بها لم يضل ، ولا يدعهما إعراضا عنهما إلا زائغ هالك .

وقد حفظهما الله عز وجل من عدوان المعتدين ، وتحريف المغرضين ، فتكفل الله سبحانه بحفظ الذكر الحكيم سورة الحجر الآية ٩ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ، وهيأ للسنة رجالا يذبون عنها افتراء المفترين وينقونها عن الزيف والدخيل حتى استبان الصحيح من السقيم واتضحت معالم الطريق . ووصلت إلينا كتب السنة متواترة لأصحابها بعد أن استغرقوا وسعهم وبذلوا جهدهم ولم يدعوا وسيلة من وسائل التثبت والتيقن إلا سلكوها . فجزاهم الله خير الجزاء وأحسن مثوبتهم في دار كرامته .

وإن مما يحق لنا أن نفخر به أعظم الفخر تلك الإنجازات العظيمة التي حققها أولئك العلماء في ميدان التحقيق والتنقيح حتى غدت قواعد المصطلح مثلا يحتذى .

ومن أهم كتب السنة الكتب الستة ، وهي : الصحيحان وسنن النسائي وسنن أبي داود وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه .

وقد أصبح لهذه الكتب من المنزلة الرفيعة ما جعل بعض العلماء يطلق عليها اسم الصحاح " كشف الظنون " ١ / ١٠٠٤ . ، ولم يزاحم هذه الكتب إلا مسند أحمد وموطأ مالك وسنن الدارمي ، ولكل منها مزية . . . ومهما يكن من أمر فقد غدت هذه الكتب التسعة من أشهر كتب السنة ومصادر لفهم الدين

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٦٣)

أصوله وفروعه ومن أجل ذلك فقد حظيت بعناية المسلمين على مر العصور دراسة وشرحا واستنباطا وتخريجا واختصارا وفهرسة . . . .

(٣٦٢/١)

وبحثي المتواضع هذا محاولة في دراسة " سنن أبي داود " وبيان منزلة هذا الكتاب وذكر خصائصه والتعريف بمؤلفه .

ويقع في بابين :

الأول : في حياته .

الثاني : في سننه .

وأرجو أن يكون كلامي تذكيرا لأهل العلم بواجب خدمة هذه الكتب وحثا لأولي الأهلية على القيام بهذا الواجب ، ولعل من أهم مجالات الخدمة التي نتطلبها تخريج أحاديث هذه الكتب وتحقيق الحكم عليها .

وأنا أعرف أن ذلك مطلب ليس يسيرا ولا هينا ، ذلك لأن الحديث الواحد قد يكون مرويا بأسانيد متعددة ، فإذا كان سنده في كتاب ضعيفا فليس يبعد أن يكون واردا في كتاب آخر معتمدا بسند قوي

.

من أجل ذلك ينبغي أن نقرر أن هذا الحديث بهذا السند يستحق هذا الحكم ، والذي يخفف من الحرج أمران :

أولهما : عندما نحكم على حديث بأنه ضعيف بسبب ضعف سنده لا نكون قد أخطأنا .

هذا والمشكلة تكون كبيرة عندما ندخل في الدين ما ليس منه أما أن نحكم على حديث بالضعف بسبب ضعف سنده فهذا أمر طبيعي ، ويبقى هذا الحكم ساريا حتى نقف على طريق آخر صحيح له . وإذا بذل المرء جهده ومستطاعه كان مأجورا إن شاء الله ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

وثانيهما : أنه مما يخفف من الحرج والمشقة أننا إذا جرينا على هذا النهج في الكتب الأخرى نستطيع بوساطة الفهارس العديدة أن نتبين بسهولة بالغة إن كان هذا الحديث مثلا مرويا في كتاب آخر بسند صحيح .

وأحسب أن العقل الإلكتروني يساعد في هذا المجال إن استخدام مساعدة فعالة .

وأنا أسأل الله أن يشرفني بالانضواء تحت لواء الخادمين لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم المدافعين عنها العاملين بها إنه سبحانه خير مسؤول .

سورة البقرة الآية ٢٠١ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الرياض في ٢٠ صفر سنة ١٣٩٤ هـ .

محمد بن لطفي بن عبد اللطيف بن ياسين الصباغ

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٦٤)

(٣٦٣/١)

الباب الأول

أبو داود

حياته

عصره

ولد أبو داود في مطلع القرن الثالث الهجري وتوفي في أواخره .

والقرن الثالث هو العصر العلمي الذهبي في تاريخنا كله ، وقد أتيح للمؤلف رحمه الله أن يشهد نضج الحضارة الإسلامية في هذا القرن ، كما أتيح له أن يعيش هذا العصر الذي ازدحم بالعبقريات والموهوبين الأفذاذ في شتى شؤون الفكر .

ويكفينا للدلالة على ذلك أن نذكر من أعلام هذا القرن الأسماء الآتية :

ففي الحديث :

كان البخاري ومسلم ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل والترمذي والنسائي .

وفي الفقه :

كان الربيع والمزني صاحبا الشافعي وداود الظاهري وغيرهم .

وفي الشعر :

كان علي بن الجهم وابن الرومي والبحتري وابن المعتز .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٦٥)

وفي العلم بالأدب :

كان المبرد وابن قتيبة والجاحظ وثعلب والفراء ، وغيرهم كثير . وهكذا . .

ولا شك في أن أبا داود كان واحدا من هؤلاء العمالقة الأفذاذ في هذا العصر .

وكانت الحضارة قد بدأت تؤتي ثمارها وتنضج نضجا رائعا ترك أطيب الأثر في حياة المسلمين والدنيا كلها .

وما نزال معجبين بهذه الحضارة التي أينعت ثمارها وامتدت ظلالها في هذا القرن فكان هذا التراث العظيم الذي ما زالت الأجيال وستبقى تعيش مفيدة من مائدته .

ولد أبو داود سنة ٢٠٢ في ظل الخليفة العباسي العالم المأمون ، وإن استعراض أسماء الخلفاء الذين جاءوا إلى سدة الخلافة خلال حياة أبي داود ليشعرنا بفخامة العصر الذي كان فيه .

فبعد المأمون (ت ٢١٨) جاء للخلافة للمعتصم (ت ٢٢٧) ثم الواثق (ت ٢٣٢) ثم المتوكل (ت ٢٤٧) ثم المنتصر (ت ٢٤٨) ثم المستعين (ت ٢٥٢) ثم المعتز (ت ٢٥٥) ثم المهتدي (ت ٢٥٦) ثم المعتمد على الله (ت ٢٧٩) .

وهذا الأخير حجر عليه أخوه الموفق واستبد بالأمر دونه ، ولم يصبح خليفة ، وللموفق مع أبي داود أخبار سنذكر طرفا منها فيما بعد .

ومن المعروف أن اضطراب شؤون الدولة العباسية قد بدأ بمقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ ، فلقد أراد أن يكفكف من غلواء العسكريين الأتراك الذين بدأ تسلطهم أيام المعتصم فلم يفلح .

وإن عصرا هذا وزنه لا نستطيع أن نلم بجميع الجوانب فيه بكلمة مستعجلة .

ويكفينا أن نذكر بشأنه الأمور المقررة الآتية :

١ – التناحر بين أفراد الأسرة الحاكمة كان على أشده .

٢ – سيطرة العناصر الأعجمية عموما والتركية خصوصا كان أمرا واضحا .

٣ – الثورات في أطراف الدولة الإسلامية .

٤ – الثورة في قلب الدولة وفي العراق بصورة خاصة .

٥ – الصراع النصراني – الإسلامي في الحدود الشمالية الغربية .

٦ – تسلط رجال الفرق الضالة على بعض الخلفاء وممارسة لون من الاستبداد الفكري ومقاومة العلماء وسجنهم .

٧ – قيام نزعات فكرية متعددة ، وبعضها هدام خطير .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٦٦)

ولولا أن الحياة الاجتماعية كانت تسير بوجه عام على سنن الإسلام العظيم ، وأن الحياة الفكرية والعلمية كانت تقوم بمهمتها في الهداية والإرشاد وإقامة الحجة على أحقية الإسلام ، لكانت الحياة السياسية تلقى لونا قاتما بعض الشيء على هذا العصر الموار .

(٣٦٥/١)

اسمه . نسبه . نسبته

هو أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدي السجستاني .

وعمران هذا ذكر ابن عساكر وابن حجر أنه قتل مع علي بن أبي طالب بصفين . وأبو داود عربي صميم من الأزد انظر في " أمراء البيان " لمحمد كرد علي ص ٥٠٣ تحقيقا في هذا الموضوع . ، والأزد قبيلة معروفة في اليمن جاء في " القاموس " : الأزد أبو حي باليمين ، ومن أولاده الأنصار كلهم . .

والسجستاني نسبة إلى البلد سجستان ، وهي بكسر السين وفتحها ، والكسر أشهر ، والجيم مكسورة فيهما انظر " تهذيب الأسماء واللغات " للنووي القسم الأول ٢ / ٢٢٤ . ، ولم يذكر ياقوت في " معجم البلدان " إلا كسر السين انظر " معجم البلدان " لياقوت ٣ / ١٩٠ . .

وقد ذكرت الكتب التي ترجمت له أنها بلد يتاخم أطراف مكران والسند ، وقررت أنه ما وراء هراة انظر " تذكرة الحفاظ " للذهبي ص ٥٩١ . ، وذكر ياقوت أنها ناحية كبيرة وولاية واسعة وأنها جنوبي هراة ، ووصف حسن جوها وثمراتها وسكانها وعاداتهم انظر " معجم البلدان " ٣ / ١٩٠ – ١٩٢ . وقد وهم من زعم أن سجستان قرية من قرى البصرة انظر " وفيات الأعيان " و " تذكرة الحفاظ " و " معجم البلدان " . .

وذكر الأستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله في مقدمته لكتاب " موارد الظمآن " أن سجستان هي بلاد الأفغان الآن انظر " موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان " للهيثمي ص ١٨ ، ٣ / ١٩١ –

١٩٢ . وهي في الحقيقة القسم الجنوبي من بلاد الأفغان .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٦٧)
ويقال له السجستاني والسجزي وهي نسبة على غير القياس قال فيها المنذري : وهو من عجيب التغيير في النسب " مختصر المنذري لسنن أبي داود " ١ / ١٢ . .
وقيل : السجزي نسبة إلى سجز وهي سجستان " تهذيب الأسماء واللغات " للنووي ٢ / ٢٢٤ . .

نشأته
ولد أبو داود سنة ٢٠٢ هـ كما ذكرنا وتلقى العلم على علماء بلده ، ثم ارتحل وطوف بالبلاد في طلب العلم وتحصيل الرواية فزار العراق والجزيرة والشام ومصر وكتب عن علماء هذه البلاد جميعا . قال الخطيب : (وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والجزريين) " تاريخ بغداد " ٩ / ٥٥ . .
وليس من شك في أن هذه الرحلات قد وسعت من أفقه وأطلعته على ألوان الثقافة في عصره في كل أنحاء العالم الإسلامي .
والبلاد التي سكنها كثيرة نذكر منها ما وصل إليه علمنا وهي :
سجستان التي كانت بلده والتي نسب إليها ، وخراسان ، والري " تهذيب الأسماء واللغات " ٢ / ٢٢٤ . وهراة " تهذيب تاريخ ابن عساكر " ٦ / ٢٤٤ والكوفة التي دخلها سنة ٢٢١ كما ذكر الخطيب – " تاريخ بغداد " ٩ / ٥٥ . ، وبغداد التي قدم إليها مرات ، وآخر مرة زارها كانت سنة ٢٧١ هـ ، وطرسوس التي أقام بها عشرين سنة " تهذيب الأسماء " ٢ / ٢٢٤ . ودمشق التي سمع الحديث فيها كما يذكر ابن عساكر " تهذيب ابن عساكر " ٦ / ٢٤٤ . ، ومصر أيضا ، والبصرة التي انتقل إليها بطلب من الأمير أبي أحمد الموفق الذي جاء إلى منزله في بغداد واستأذن عليه ورجاه أن يتخذ البصرة وطنا ليرحل إليه طلبة العلم من أقطار الأرض فتعمر بسببه فإنها قد خربت وهجرت وانقطع الناس عنها لما جرى عليه من فتنة الزنج .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٦٨)
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٦٩)
وهذا الخبر يدل على أن شهرة أبي داود قد طبقت الآفاق ، فالناس يعرفون له قدره وفضله وشهرته ، وأحست الدولة بذلك فطلبت إليه أن يرحل إلى البصرة البلدة المنكوبة لتعود إليها الحياة ولتعمر من جديد .

(٣٦٧/١)

وفي هذا دلالة على طبيعة حضارتنا ومنزلة العلم والعلماء فيها ، فإن سكنى مثل أبي داود فيها كان العلاج لرد العمران إلى بلد مخرب مهجور . وهكذا فقد وفق الله أبا داود أن يكون شخصية علمية مرموقة في عصره كان لها أكبر الأثر على الناس في عصره والعصور التي تلت .

(٣٦٨/١)

علمه

كان أبو داود أحد حفاظ الإسلام ، وكان من أوسع العلماء معرفة بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفقهه وعلله ومتونه ورجاله .

ويبدو أن علماء عصره كانوا يعرفون مكانته العلمية الكبرى ويقدرونه حق قدره ؛ يدل على ذلك عدد من الأخبار :

منها ما ذكروا من أن أحمد بن حنبل روى عنه حديثا ، وكان أبو داود شديد الاعتزاز به .

ومنها ما ذكروا من أن سهل بن عبد الله التستري جاء إلى أبي داود . فقيل : يا أبا داود هذا سهل جاءك زائرا ، فرحب به وأجله .

فقال له سهل : يا أبا داود لي إليك حاجة .

قال : وما هي ؟

قال : حتى تقول قد قضيتها مع الإمكان .

قال : قد قضيتها مع الإمكان .

قال : أخرج إلي لسانك الذي حدثت به أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبله ، فأخرج إليه لسانه فقبله " مختصر المنذري " ١ / ٧ – ٨ و " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧٢ و " وفيات الأعيان " ٢ / ٤٠٤ . .

وكان علمه متعدد الجوانب ، فهو – مع تخصصه في الحديث – فقيه عظيم ، وقد عده الشيخ أبو الحسن الشيرازي في طبقات الفقهاء من جملة أصحاب أحمد بن حنبل ، وكذا أبو يعلى في .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٧٠)

وأبو داود ناقد كبير ، وليس هذا غريبا على إمام من أئمة الحديث ، لأن هذا العلم يربي في أتباعه حاسة النقد ، وقد استطاع أن يبلغ مستوى راقيا من رهافة الحس ودقة النقد ، وسنرى في دراستنا لكتاب " السنن " نماذج من نقده العميق ، ولكنني هنا أود أن أشير إلى مجال سبق إليه أبو داود

ويحسب بعض الباحثين أنه جديد وأن الأقدمين لم يعرفوه ، وذلك هو نقد الكتابة وتقدير عمرها بالنسبة إلى الحبر القديم والحديث ، يدل على ذلك خبر جاء في كتاب " الميزان " للحافظ الذهبي وهو :

(٣٦٩/١)

(قال زكريا بن يحيى الحلواني : رأيت أبا داود السجستاني قد جعل حديث يعقوب بن كاسب وقايات أي أغلفة يغلف بها الكتب . على ظهور كتبه ، فسألته عنه فقال : رأينا في مسنده أحاديث أنكرناها ، فطالبناه بالأصول ، فدافعنا ، ثم أخرجها بعد ، فوجدنا الأحاديث في الأصول مغيرة بخط طري ؛ كانت مراسيل فأسندها وزاد فيها) " الميزان " للذهبي ٤ / ٤٥١ . .

وتقدير العمر بالنسبة للحبر أمر يتصل بتقدير العمر بالنسبة إلى الورق ولا أستبعد أن تكون هناك حوادث من هذا القبيل في حياة صاحبنا العلمية ، والله أعلم .

ومما يدل على مكانته العلمية ثناء العلماء عليه وسنذكر بعضه في الفقرة الآتية :

(٣٧٠/١)

ثناء العلماء عليه

كان الثناء عليه من قبل المعاصرين له والذين جاءوا من بعده منصبا على ناحيتين :

سعة علمه ودقة تحقيقه .

وكرم أخلاقه وتقواه .

فلقد كان – رحمه الله – مثلا عاليا في صفتي المحدث القوي وهما العدالة والضبط .

وسنورد شذرات من أقوالهم .

١ – قال أبو بكر الخلال : .

أبو داود سليمان بن الأشعث ، الإمام المقدم في زمانه رجل لم يسبقه إلى معرفته بتخريج العلوم ، وبصره بمواضعها أحد في زمانه ، رجل ورع مقدم " تاريخ بغداد " ٩ / ٥٧ و " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧٢ و " تهذيب ابن عساكر " ٦ / ٢٤٤ . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٧١)

٢ – وقال أحمد بن محمد بن ياسين الهروي :

سليمان بن الأشعث أبو داود السجزي ، كان أحد حفاظ الإسلام لحديث رسول الله وعلمه وعلله

وسنده ، في أعلى درجة النسك والعفاف والصلاح والورع ، كان من فرسان الحديث .

٣ – وقال إبراهيم الحربي :

ألين لأبي داود الحديث كما ألين لداود النبي عليه السلام الحديد .

٤ – وهذه الكلمة رويت أيضا عن أبي بكر الصغاني .

٥ – وقال موسى بن هارون الحافظ هو الحافظ موسى بن هارون الحمال البغدادي البزاز توفي سنة ٢٩٤ هـ ، (وانظر " تذكرة الحفاظ " ٦٦٩) . :

خلق أبو داود في الدنيا للحديث ، وفي الآخرة للجنة . ما رأيت أفضل منه " طبقات الشافعية " ٢ / ٢٩٣ ، " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧٢ ، " تهذيب ابن عساكر " ٦ / ٢٤٤ . .

٦ – وقال علان بن عبد الصمد :

كان من فرسان هذا الشأن " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧٢ ، " تهذيب الأسماء واللغات " ٢ / ٢٢٤

. . ٧ – وقال أبو حاتم بن حبان هو أبو حاتم محمد بن حبان البستي الشافعي صاحب " الصحيح " توفي سنة ٣٥٤ هـ . :

كان أحد أئمة الدنيا فقها وعلما وحفظا نسكا وورعا وإتقانا ، جمع وصنف وذب عن السنن " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧٢ ، و " الخلاصة " للخزرجي ص ١٢٧ . .

---

٨ – وقال أبو عبد الله بن منده هو أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن منده الحافظ المتوفى سنة ٣٩٦ هـ . :

الذين أخرجوا وميزوا الثابت من المعلول والخطأ من الصواب أربعة : البخاري ومسلم ، وبعدهما أبو داود والنسائي " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧٢ . .

٩ – وقال الحاكم :

أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧٢ . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٧٢)

١٠ – وقال محمد بن مخلد :

كان أبو داود يفي بمذاكرة مائة ألف حديث وأقر له أهل زمانه بالحفظ " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧٢ . .

١١ – وقال ابن ماكولا :

هو إمام مشهور " تهذيب ابن عساكر " ٦ / ٢٤٤ . .

١٢ – ١٣ – وكان إبراهيم الأصبهاني وأبو بكر بن صدقة هو الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن

محمد بن عبد الله بن صدقة البغدادي توفي سنة ٢٩٣ . يرفعان من قدره بما لا يذكران أحدا في زمانه مثله " تهذيب ابن عساكر " ٦ / ٢٤٤ و " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧١ . .

١٤ – وقال الذهبي هو الإمام الحافظ مؤرخ الإسلام الناقد محمد بن عثمان الذهبي الشافعي الدمشقي توفي سنة ٧٤٨ هـ . :

وبلغنا أن أبا داود كان من العلماء حتى إن بعض الأئمة قال : كان أبو داود يشبه بأحمد بن حنبل في هديه ودله وسمته ، وكان أحمد يشبه في ذلك بوكيع ، وكان وكيع يشبه في ذلك بسفيان ، وسفيان بمنصور ، ومنصور بإبراهيم ، وإبراهيم بعلقمة ، وعلقمة بعبد الله بن مسعود . وقال علقمة : كان ابن مسعود يشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم في هديه ودله " تذكرة الحفاظ " ص ٥٩٢ . .

ولم يرض السبكي في " طبقاته " أن يمضي بالسلسلة إلى نهايتها ، بل اختار الوقوف عند ابن مسعود " طبقات الشافعية " ٢ / ٢٩٦ . .

ونقل ابن العماد عن الذهبي أيضا قوله في أبي داود :

كان رأسا في الحديث ، رأسا في الفقه ، ذا جلالة وحرمة وصلاح وورع حتى إن كان يشبه بأحمد " شذرات الذهب " ٢ / ١٦٧ . .

(٣٧٢/١)

---

١٥ – وقال ابن الجوزي هو عبد الرحمن بن علي إمام مشهور كثير التصنيف توفي سنة ٥٩٧ . :

كان عالما حافظا عارفا بعلل الحديث ، ذا عفاف وورع وكان يشبه بأحمد بن حنبل " المنتظم " ٥ / ٩٧ . .

وسيمر بنا عند الكلام على " السنن " مزيد من الثناء على أبي داود وشهادات أهل العلم بفضله .

(٣٧٣/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٧٣)

أساتذته

إن الحديث عن أساتذته لا يتسع له صدر هذا المقال لأن عددهم كبير ، وقد ذكر ابن حجر أن شيوخه في " السنن " وغيرها من كتبه نحو من ٣٠٠ نفس " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧٢ . .

وقد ألف العلماء في شيوخه المؤلفات ، وكل كتب الرجال التي تحدثت عن رجال الكتب الستة تحدثت عن أساتذة أبي داود وسنورد أسماء بعضهم فيما يلي .

فمنهم : أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وعثمان بن أبي شيبة ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو عمرو الحوضي ، ومسلم بن إبراهيم ، وسليمان بن حرب ، وأبو الوليد الطيالسي ، وموسى بن إسماعيل المنقري التبوذكي ، وعبد الله بن مسلمة القعنبي ، وهناد بن السري ، ومخلد بن خالد ، وقتيبة بن سعيد ، ومسدد بن مسرهد ، ومحمد بن بشار ، وزهير بن حرب ، ومحمد بن المثنى ، وعمرو بن محمد الناقد ، وسعيد بن منصور ، وحميد بن مسعدة ، وحفص بن عمر وهو أبو عمر الضرير ، وتميم بن المنتصر ، وحامد بن يحيى ، وإسحاق بن إسماعيل الطالقاني .

ولن نستطيع أن نترجم لهؤلاء جميعا وقد تعمدت أن أذكر المشهورين لتغني شهرتهم عن التعريف بهم .

وليس غريبا أن يكون عدد من أساتذته عمالقة علماء أفذاذا لأن طبيعة العصر الذي كان فيه أبو داود تقتضي أن يكون هناك نماذج من هذا النوع ، كما سبق أن أشرت إلى ذلك عند حديثي عن عصره . وكثرة الأساتذة أمر معروف معهود في تاريخنا الفكري انظر كلامي في فائدة تعدد الأساتذة في مقدمة " الباعث على الخلاص " ص ٩٢ ، ٩٣ . .

(٣٧٤/١)

وينبغي أن نخص واحدا من أساتذته بإشارة لا بد منها وهو الإمام أحمد بن حنبل ، فقد تكرر ذكره كثيرا في أخبار أبي داود ، وقد اتصل به ورافقه ، وعرض عليه " سننه " فاستجادها ، وكان يسأله أبو داود كثيرا عن أمور الدين وشؤون الحديث ، وقد بلغ من اهتمام أبي داود بأجوبة شيخه أحمد أن ألف كتابا جمع فيه الأسئلة التي ألقيت على الإمام أحمد وأجوبته عليها . وقد طبع هذا الكتاب بعنوان " مسائل أحمد " .

وذكر العلماء في ترجمة أبي داود كثيرا من هذه الأسئلة التي كان أبو داود نفسه يتوجه بها إلى الإمام أحمد ، أو الأسئلة التي كانت تطرح عليه بحضوره . فمن ذلك ما ذكره أبو يعلى أن أبا داود قال :

سمعت أحمد سئل عن القراءة في فاتحة الكتاب : (ملك) أو (مالك) ؟ يعني : أيهما أحب إليك ؟ قال : (مالك) أكثر ما جاء في الحديث " طبقات الحنابلة " ١ / ١٦١ . فهذا سؤال سمعه فحفظه ورواه .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٧٤)

ونجده يصرح أحيانا بأنه هو الذي سأل الإمام أحمد كما في المثال الآتي :

قال أبو داود : قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل : أرى رجلا من أهل السنة مع رجل من أهل البدعة أترك كلامه ؟

قال : لا ، أو تعلمه أن الرجل الذي رأيته معه صاحب بدعة . فإن ترك كلامه فكلمه ، وإلا فألحقه به .

قال ابن مسعود : " المرء بخدنه " " طبقات الحنابلة " ١ / ١٦٠ و " المنهج الأحمد " ١ / ١٧٥ . .

وكثيرا ما يذكر في كتابه " السنن " مثل هذه الأسئلة التي كان يتوجه بها إلى الإمام أحمد انظر فصل تعليقات أبي داود في دراستنا هذه . .

وقد ينقل قوله دون أن يكون هذا القول جوابا لسؤال سائل كما ذكر أبو يعلى :

قال أبو داود : سمعت أبا عبد الله يقول : من قال إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر " طبقات الحنابلة " ١ / ١٦١ . .

وهذا كثير الورود في " السنن " أيضا .

(٣٧٥/١)

ويظهر أن إعجابه البالغ بأحمد وحبه الكبير له كان يحمله على أن يتشبه به حتى رأينا بعض العلماء يذكر تشبهه بأحمد ، وهذا مشاهد عند الطلبة المعجبين بأستاذهم ، فتراهم يقلدونه حتى في نبرات صوته وسلوكه ، مظهره .

(٣٧٦/١)

تلاميذه

روى عنه خلق كثير من العلماء الأئمة ؛ نذكر المشهورين منهم ، من أمثال الإمام أحمد بن حنبل الذي روى عنه حديثا واحدا كان أبو داود يعتز بذلك جدا " تاريخ بغداد " ٩ / ٥٥ ، و " الخلاصة " ص ١٢٧ . .

ومنهم الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، والإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ، والإمام أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال ، ومنهم إسماعيل بن محمد الصفار ، وأبو بكر بن داود الأصفهاني ، وحرب بن إسماعيل الكرماني ، وأبو عوانة الاسفراييني ، وزكريا الساجي ، وأبو بشر محمد بن أحمد الدولابي ، ومحمد بن نصر المروزي ، وأبو بكر محمد بن يحيى الصولي .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٧٥)

ومن تلامذته رواة السنن عنه وعددهم تسعة ذكر الذهبي " طبقات الحفاظ " ٥٩١ . والسبكي " طبقات الشافعية " ٢ / ٢٩٣ . سبعة منهم . وزاد ابن حجر راويين هما أبو الطيب أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الأشناني ، وأبو عيسى إسحاق بن موسى بن سعيد الرملي وراقه . أما الرواة السبعة الذين ذكرتهم معظم المصادر فهم :

- أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي .
- وأبو بكر محمد بن بكر بن عبد الرازق بن داسة التمار .
- وأبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي .
- وأبو الحسن علي بن الحسن بن العبد الأنصاري .
- وأبو أسامة محمد بن عبد الملك الرؤاسي .
- وأبو سالم محمد بن سعيد الجلودي .
- وأبو عمرو أحمد بن علي بن الحسن البصري .

(٣٧٧/١)

وضعه الاجتماعي والمنزلي

كان الرجل يتمتع بمنزلة اجتماعية مرموقة ، وقد اكتسب شهرة قليلة النظير ، وشاع كتابه في حياته ، وكان الطلبة يؤمون منزله من كل مكان .

وكانت له مخالطة طيبة للعلماء في كل الأمصار ، ويكفينا في الدلالة على ذلك ما ذكرناه في مبحث أساتذته ، كما كانت له صلة قائمة على الاحترام مع الحكام ، ويكفينا في الدلالة على ذلك أن يقوم رجل الدولة الأول الموفق بزيارته وأن يطلب منه ما يطلب لعمارة البصرة كما أشرنا . وكان الرجل متزوجا وله أولاد من أشهرهم ابنه عبد الله .

ويبدو أنه كان حريصا أشد الحرص على أن يطلب أولاده العلم في وقت مبكر ، ولذلك فقد كان يأخذهم معه ليحضروا مجالس العلم وليسمعوا .

نقل ياقوت عن ابن عساكر خبرا يرويه عن الحسن بن بندار قال : (كان أحمد بن صالح يمتنع (الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٧٦)

على المرد من رواية الحديث لهم تعففا وتنزها ونفيا للمظنة عن نفسه . وكان أبو داود يحضر مجلسه ويسمع منه ، وكان له ابن أمرد يحب أن يسمع حديثه ، وعرف عادته في الامتناع عليه من الرواية ، فاحتال أبو داود بأن شد على ذقن ابنه قطعه من الشعر ليتوهم أنه ملتح ، ثم أحضره المجلس وأسمعه جزءا .

فأخبر الشيخ بذلك ، فقال لأبي داود : أمثلي يعمل معه هذا ؟

فقال له : أيها الشيخ لا تنكر علي ما فعلته واجمع أمردي هذا مع شيوخ الفقهاء والرواة فإن لم يقاومهم بمعرفته فاحرمه حينئذ من السماع عليك .
قال : فاجتمع طائفة من الشيوخ ، فتعرض لهم هذا الأمرد مطارحا ، وغلب الجميع بفهمه ، ولم يرو له الشيخ مع ذلك من حديثه شيئا . وحصل له ذلك الجزء الأول " معجم البلدان " ٣ / ١٩٢ طبعة بيروت سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .) .
وذكروا في بعض أخباره ما ينبئ عن اتخاذه بعض الخدم ، ومنهم أبو بكر بن جابر خادمه الذي روى حديث مقابلة الموفق له .

(٣٧٨/١)

أخلاقه وصفاته
كان أبو داود رجلا كبيرا ذا خلق كريم . كان صالحا عابدا ورعا ، وكان ذكيا مجدا دؤوبا كثير الاحتمال لمشاق الارتحال وطلب العلم ، وكان يقظا شديد الانتباه يعرف الناس على حقيقتهم ولا تنطلي عليه وسائل الخداع ، وكان أبيا كريم النفس ، وكان جريئا في الحق أمينا على رسالة العلم قائما بحق الدين . وسأورد فيما يلي أخبارا تدل على صراحته في الحق وجرأته في قوله ، لا يخاف في ذلك لومة لائم ، وسيمر بنا أيضا في دراسة " السنن " أمثلة عديدة على ذلك في موضوع جرح الرجال .
وقد خصصت هذا الخلق بالبيان لأنه الخلق الذي أعتقد أنه من أهم صفات العلماء ، ولأن الناس يعانون الكثير من فقد الخلق في حياتهم وعند نفر من العلماء ، ويشهدون كم تجر المجاملة التي يتصف بها كثير من الناس من الولايات على الدين والعلم والحق .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٧٧)
والعلماء يمثلون القيادة الفكرية للأمة ، والقوة الموجهة التي تحول بين الجماهير والانحراف والفساد ، فإذا فقدوا فضيلة الصراحة في الحق والجرأة في إلقاء الكلمة المؤمنة الصادقة كان إيذاء ذلك شديدا . وكانت عاقبة ذلك دمارا للأمة ولكل معاني الخير فيها .
فمن أجل ذلك رأيت أن أضرب بعض الأمثلة على أصالة هذا الخلق العظيم في سيرة هذا الإمام العظيم : ذكر أبو يعلى (أن محمد بن علي الآجري قال :
قلت لأبي داود : أيهما أعلى عندك : علي بن الجعد أو عمرو بن مرزوق ؟
قال : عمرو أعلى عندنا . علي بن الجعد وسم بميسم سوء قال : " وما يسؤوني أن يعذب الله معاوية "
وقال : " ابن عمر ذاك الصبي ") طبقات الحنابلة " ١ / ١٥٩ . .

فأبو داود يعلن رأيه بصراحة ، ويجرح علي بن الجعد ويذكر سبب الجرح وهو وقوعه في الصحابة ، إذ أن كلمته في معاوية تدل على شيء من الكراهية لبعض الصحابة أو عدم اهتمام على أقل تقدير ، وذلك عندما يقرر أنه لا يسؤوه أن يعذب الله معاوية رضي الله عنه ، وكذلك فإن قوله عن ابن عمر إنه صبي فيه ما يدل على قلة احترام للصحابة وعلى التهوين من شأنهم .

ومن الأمثلة الرائعة على جرأته في الحق ومواجهته الحكام بما يعتقد سواء وافق رغبتهم أم لم يوافق ما رواه خادمه أبو بكر بن جابر الذي قال :

كنت معه ببغداد ، فصلينا المغرب إذ قرع الباب ، ففتحته فإذا خادم يقول : هذا الأمير أبو أحمد الموفق يستأذن . فدخلت إلى أبي داود فأخبرته بمكانه ، فأذن له ، فدخل ، وقعد ، ثم أقبل عليه أبو داود وقال :

ما جاء بالأمير في مثل هذا الوقت ؟

فقال : خلال ثلاث .

فقال : وما هي ؟

قال : تنتقل إلى البصرة فنتخذها وطنا ليرحل إليك طلبة العلم من أقطار الأرض فتعمر بك ، فإنها قال خربت ، وانقطع عنها الناس لما جرى عليها من محنة الزنج .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٧٨)

فقال : هذه واحدة . هات الثانية .

قال : وتروي لأولادي كتاب " السنن " ؟

فقال : نعم . هات الثالثة .

قال : وتفرد لهم مجلسا للرواية ، فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة .

فقال : أما هذه فلا سبيل إليها ، لأن الناس شريفهم ووضيعهم في العلم سواء .

قال ابن جابر : فكانوا يحضرون بعد ذلك ويقعدون وبينهم وبين الناس ستر فيسمعون مع العامة – .

ومن الأمثلة التي تدل على جرأته وقوله الحق دون مراعاة لقرابة أو صلة موقفه من ابنه أبي بكر عبد الله صاحب التصانيف .

فقد قال عنه : " ابني عبد الله كذاب " – " الميزان " ٢ / ٤٣٣ .

ملابسه

يبدو أن الرجل كان يخترع في كيفية خياطة الملابس ما يتلاءم وحياته ، فهو قد وقف نفسه على العلم ، فكل ما يساعده من اللباس على حمل كتب واصطحابها فهو اللباس الجيد ، لأن العلم أضحى عنده هو كل شيء ؛ ذكروا أنه كان له كم واسع وضيق ، ولما سئل قال : الواسع للكتب والآخر لا نحتاج إليه – " وفيات الأعيان " ٢ / ٤٠٤ و " تهذيب ابن عساكر " ٦ / ٢٤٤ . . وما سأله السائل عنه إلا لأنه شيء غريب لم يؤلف .

(٣٨١/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٧٩)

أقواله

كان الرجل حكيما ، وليس ذلك بمستغرب على من اجتمعت فيه هذه الأوصاف التي أشرنا إليها آنفا ، وصاحب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم جدير بأن تفيض الحكمة على لسانه .

وقد ذكرت الكتب التي ترجمت له بعض هذه الجمل المأثورة الجميلة . فمن ذلك قوله :

" الشهوة الخفية حب الرئاسة . – .

وقوله :

خير الكلام ما دخل الأذن بدون إذن " تذكرة الحفاظ " ص ٥٩١ . .

وقوله :

من اقتصر على لباس دون ومطعم دون أراح جسده – " تهذيب ابن عساكر " ص ٦ / ٤٤ . .

وهذه الأقوال وغيرها مما يدل على حكمة رصينة انتهى إليها المؤلف بعد علم ونظر وتمرس بالحياة الفاضلة .

ومما يدل على سيرته وعلى بصره بالعلم العملي وفقهه الحق في الدين قوله متحدثا عن كتابه السنن " جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث ، ذكرت الصحيح وما يشبهه وما يقاربه . ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أحاديث أحدها قوله صلى الله عليه وسلم : صحيح البخاري بدء الوحي (١)،صحيح مسلم الإمارة (١٩٠٧)،سنن الترمذي فضائل الجهاد (١٦٤٧)،سنن النسائي الطهارة (٧٥)،سنن أبو داود الطلاق (٢٢٠١)،سنن ابن ماجه الزهد (٤٢٢٧)،مسند أحمد بن حنبل (٢٥/١). الأعمال بالنيات .

وقوله صلى الله عليه وسلم سنن الترمذي الزهد (٢٣١٧)،سنن ابن ماجه الفتن (٣٩٧٦). من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

والثالث قوله صلى الله عليه وسلم صحيح البخاري الإيمان (١٣)،صحيح مسلم الإيمان (٤٥)،سنن

الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٥)،سنن النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠١٦)،سنن ابن ماجه المقدمة (٦٦)،سنن الدارمي الرقاق (٢٧٤٠). لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه .

(٣٨٢/١)

والرابع قوله صلى الله عليه وسلم صحيح البخاري الإيمان (٥٢)،صحيح مسلم المساقاة (١٥٩٩)،سنن الترمذي البيوع (١٢٠٥)،سنن النسائي البيوع (٤٤٥٣)،سنن أبو داود البيوع (٣٣٢٩)،سنن ابن ماجه الفتن (٣٩٨٤)،مسند أحمد بن حنبل (٢٧١/٤)،سنن الدارمي البيوع (٢٥٣١). الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات .

(٣٨٣/١)

وفاته

توفي أبو داود رحمه الله يوم الجمعة ١٥ شوال من سنة ٢٧٥ بالبصرة ، ودفن إلى جانب قبر سفيان الثوري بعد أن قدم خدمات جليلة لدينه وأمته وللثقافة الإسلامية .

(٣٨٤/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٨٠)

كتبه

١ – المراسيل :

وقد طبع في القاهرة سنة ١٣١٠ هـ .

ومخطوطاته موجودة في تركيا ومصر وغيرهما ، وقد ذكرها سزكين في " تاريخ التراث العربي " – انظر " تاريخ التراث العربي " ص ٣٨٨ . .

٢ – مسائل الإمام أحمد :

وهي مرتبة على أبواب الفقه ، يذكر فيها أبو داود السؤال الموجه لأحمد وجوابه عليها ، وهو كتاب جليل من الناحية الفقهية ينقل لنا بدقة وأمانة آراء الإمام أحمد بن حنبل ، وطبع في القاهرة بتحقيق

السيد رشيد رضا ، وأعيد تصويره في بيروت مؤخرا .

وقد ذكرته معظم الكتب التي ترجمت لأبي داود أو عنيت بإحصاء تراثنا الإسلامي انظر " هدية العارفين " ١ / ٣٩٥ . ، وذكر ابن حجر أن أبا عبيد محمد بن علي بن عثمان الآجري الحافظ هو راوي المسائل عنه " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧٠ . .

٣ – الناسخ والمنسوخ :

ذكر ابن حجر أن راوي هذا الكتاب عنه " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧٠ . أبو بكر أحمد بن سليمان النجار . ونقل السيوطي عن هذا الكتاب " تحذير الخواص " ص ١٩١ . وذكره إسماعيل البغدادي بعنوان " ناسخ القرآن ومنسوخه " " هدية العارفين " ١ / ٣٩٥ . " .

٤ – إجاباته عن سؤالات أبي عبيد محمد بن علي بن عثمان الآجري :

قال ابن كثير : ولأبي عبيد الآجري عنه " أسئلة في الجرح والتعديل والتصحيح والتعليل " كتاب مفيد " مختصر علوم الحديث " لابن كثير ص ٤١ . وذكرها سزكين بعنوان : " سؤالات أجاب عنها أبو داود في معرفة الرجال وجرحهم وتعديلهم " وذكر أنها موجودة في كوبريلي وباريس " تاريخ التراث العربي " لسزكين ص ٤١٧ . . وذكر أن ابن حجر استخدم هذه الرسالة كثيرا في " تهذيب التهذيب " تاريخ التراث العربي " لسزكين ص ٤١٧ . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٨١)

٥ – رسالته في وصف كتاب " السنن " :

وحققتها ونشرتها في مجلة أضواء الشريعة في الرياض العدد الخامس سنة ١٣٩٤ هـ ثم نشرتها مفردة دار العربية في بيروت ، وقد سبق أن نشرت في مصر سنة ١٣٦٩ ومخطوطتها في المكتبة الظاهرية في دمشق " فهرس مخطوطات الظاهرية " للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ص ١٦١ . .

٦ – كتاب الزهد :

وتوجد منه نسخة بالقرويين بفاس كما أشار إلى ذلك الأستاذ سزكين " تاريخ التراث العربي " ص ٣٨٨ . .

٧ – تسمية الإخوة الذين روي عنهم الحديث :

وهي رسالة من ثماني ورقات محفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق ، وهي من رواية السلفي ، ومكتوبة بخط مغربي كما ذكر ذلك الأستاذ ناصر الدين الألباني " فهرس مخطوطات الظاهرية " ص ١٦١ . وذكر الأستاذ أكرم العمري هذه الرسالة بعنوان " تسمية الإخوة من أهل الأمصار " وقال

:

(وقد استفاد أبو داود في تصنيف رسالته " تسمية الإخوة " مما قرأه في كتاب علي بن المديني بخطه ، كما استفاد من طريقته في تنظيم المادة ، فنجده يرتب الإخوة الذين روي عنهم الحديث على المدن ، وقد اكتفى أبو داود بتجريد الأسماء ولم يقتصر على ذكر الصحابة ، بل ذكر من تلاهم أيضا " " بحوث في تاريخ السنة " ص ٦٥ . .

وذكر الأستاذ العمري في تعليقه في الصفحة نفسها " بحوث في تاريخ السنة " ص ٦٥ . أن الرسالة تقع في ٧ ورقات وأن الورقة ٢٤ سطرا وأنها مكتوبة بخط ناعم ، وذكر سزكين أنها مكتوبة في القرن السادس الهجري " تاريخ التراث العربي " ص ٣٨٨ . .

٨ – أسئلة لأحمد بن حنبل عن الرواة والثقات والضعفاء :

قال الأستاذ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني :

(رتبت أسماؤهم على أسماء بلادهم ، ثقات مكة ، ثقات المدينة . . . ، وينتهي بضعفاء المدينة .) " فهرس مخطوطات الظاهرية " ص ١٦١ . وهي نسخة ناقصة من أولها ، وموجودة في الظاهرية " فهرس مخطوطات الظاهرية " ص ١٦١ . .

٩ – كتاب القدر :

وذكر ابن حجر في " تهذيب التهذيب " باسم " الرد على أهل القدر " وذكر أن راوي هذا الكتاب عنه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يعقوب المتوثي البصري " تهذيب التهذيب " ٤ / ١٧٠ . .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٨٢)

وقال سزكين : اقتبس منه ابن حجر في كتابه " الإصابة " " تاريخ التراث العربي " ص ٣٨٩ . .

١٠ – كتاب البعث والنشور :

ذكره بروكلمان وذكر أنه موجود في دمشق " تاريخ الأدب العربي " ٣ / ١٨٩ . .

١١ – المسائل التي حلف عليها الإمام أحمد :

ذكره سزكين وقال : إنه موجود في دمشق " تاريخ التراث العربي " ص ٣٨٨ . .

١٢ – دلائل النبوة :

ذكره إسماعيل البغدادي " هدية العارفين " ١ / ٣٩٠ . وابن حجر في " تهذيب التهذيب " " تهذيب التهذيب " ١ / ٦ . .

١٣ – التفرد في السنن :

ذكره إسماعيل البغدادي " هدية العارفين " ١ / ٣٩٠ . .

١٤ – فضائل الأنصار :
ذكره ابن حجر في مقدمة كتابه " تقريب التهذيب " " تقريب التهذيب " ١ / ٧ . .
١٥ – مسند مالك :
ذكره ابن حجر في مقدمة كتابه " تقريب التهذيب " " تقريب التهذيب " ١ / ٧ . .
١٦ – الدعاء : ذكره ابن حجر في مقدمة " تهذيب التهذيب " " تهذيب التهذيب " ١ / ٦ . .
١٧ – ابتداء الوحي : ذكره ابن حجر في مقدمة " تهذيب التهذيب " " تهذيب التهذيب " ١ / ٦ . .
١٨ – أخبار الخوارج : ذكره ابن حجر في مقدمة " تهذيب التهذيب " " تهذيب التهذيب " ١ / ٦ .
.

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٨٣)
الباب الثاني :
سنن أبي داود
هذا الكتاب من أهم كتب الإسلام كما أسلفنا ، وهو أحد الكتب الستة التي تقبلتها الأمة بقبول حسن ، وسنحاول في هذا الباب دراسته والتعرف لأهم خصائصه وشروحه ومختصراته ، ومن ثم نتعرف إلى منزلته .
اسم الكتاب
الاسم المعروف به هو " السنن " ويبدو " أن المؤلف نفسه سماه بهذا الاسم ، نستدل على ذلك من قوله في رسالته إلى أهل مكة : (فإنكم سألتم أن أذكر لكم الأحاديث التي في كتاب " السنن " أهي أصح ما عرفت في الباب ؟) انظر " رسالة أبي داود " بتحقيقنا ص ٢٢ نشر دار العربية بيروت .
.
وقوله في الرسالة المذكورة أيضا : (وإن من الأحاديث في كتابي " السنن " ما ليس بمتصل ، وهو مرسل . . .) " رسالة أبي داود " ص ٣٠ . .
وكذلك فإن العلماء على مر العصور كانوا يدعون كتابه بالسنن .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٨٤)
ومن المفيد أن نتعرف إلى مدلول كلمة " السنن " :
السنن جمع سنة وهي لغة : الطريقة المسلوكة المتبعة . والسنة عند جمهور العلماء ترادف الحديث وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره وصفته ، وقد ذهب بعضهم إلى أن هناك فرقا بين الكلمتين ، وهو أن السنة هي الواقع العملي لمجتمع الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه

وسلم والصحابة ، ويتضح هذا التفريق في مثل قول عبد الرحمن بن مهدي عندما سئل عن سفيان بن عيينة ومالك والأوزاعي .

فقال : الأوزاعي إمام في السنة وليس بإمام في الحديث ، وسفيان إمام في الحديث وليس بإمام في السنة ومالك إمام فيهما .

وقد فرق بعضهم بين الكلمتين تفريقا قريبا من هذا فذهب إلى أن الحديث قول النبي وفعله وتقريره ووصفه .

أما السنة فهي التي تعني حكما تشريعيا سواء روي فيه كلام أم لا .

وهناك استعمال خاص للسنن وهو أوثق صلة بموضوع بحثنا ، وقد ذكره الكتاني في كتابه القيم " الرسالة المستطرفة " فقال :

(٣٨٨/١)

وهي في اصطلاحهم الكتب المرتبة على الأبواب الفقهية من الإيمان والطهارة والصلاة والزكاة ، وليس فيها شيء من الموقوف ، لأن الموقوف لا يسمى في اصطلاحهم سنة ، ويسمى حديثا) " رسالة المستطرفة " ص ٣٢ . .

وهكذا فإن كتب السنن ينبغي أن تتوافر فيها الأمور الآتية :

١ – أن تكتفي بذكر الأحاديث وألا يذكر فيها شيء من الآثار .

٢ – أن تكون هذه الأحاديث متعلقة بالأحكام .

٣ – أن ترتب الأحاديث على أبواب الفقه " الحديث النبوي " ص ١٩٩ . .

ومن هنا يتضح لنا لماذا سمي كتابه السنن ، فذلك لأنه جمع أحاديثه من وجهة فقهية فلم يضمنه غير أحاديث الفقه والتشريع ، مما ورد في الأخلاق والأخبار والزهد ونحو ذلك " تاريخ الأدب العربي " ٣ / ١٨٦ . . قال في " رسالته إلى أهل مكة " :

(وإنما لم أصنف في كتاب السنن إلا الأحكام ، ولم أصنف كتب الزهد وفضائل الأعمال وغيرها) " رسالة أبي داود " ص ٣٤ . .

ونقل بعضهم ممن لا علم لديهم ولا تحقيق عن القرطبي أنه سمى كتاب أبي داود في تفسيره " مصنف أبي داود " ، وما أظنه إلا أنه يريد بذلك كتابه وليست تلك تسمية جديدة .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٨٥)

وقد يطلقون على كتاب أبي داود ونحوه لفظ الصحاح ، قال حاجي خليفة ينقل عن ابن السبكي قوله في " سنن أبي داود " :

(وهي من دواوين الإسلام ، والفقهاء لا يتحاشون من إطلاق لفظ الصحاح عليها وعلى سنن

الترمذي ، ولا سيما سنن أبي داود) " كشف الظنون " ٢ / ١٠٠٤ و " طبقات الشافعية " . .
وقد جاء في كلام لأبي داود نقله محمد بن صالح الهاشمي ما قد يفيد أنه سماه " المسند " قال أبو داود : (أقمت بطرسوس عشرين سنة أكتب المسند ، فكتبت أربعة آلاف حديث) " تهذيب الأسماء واللغات " للنووي ٢ / ٢٢٤ وقد سبق أن ورد هذا الخبر ص ٢٢٨ وسيرد ص ٢٣٨ . ولعله لا يريد بالمسند الاسم الخاص المصطلح عليه .

(٣٨٩/١)

هل هو أول من صنف السنن
ذهب بعضهم إلى أن أبا داود هو أول من صنف في السنن قال الأستاذ الكتاني : (وهو أول من صنف في السنن ، وفيه نظر يتبين مما يأتي) " الرسالة المستطرفة " ص ١١ . .
ومهما يكن من أمر فإن من المؤكد أن أبا داود كان من السابقين إلى التأليف في هذا المجال ؛ ذلك لأن مجرد اختلاف العلماء في كونه أول من صنف في السنن يدل بوضوح على سبقه في ذلك الصدد .
ومن الصعب دائما الجزم بالأوليات ، ويغلب على من يتشدد ويذهب مذهبا معينا في الجزم يغلب عليه أنه يقع في الغلط .
ويذهب الخطابي إلى أن أبا داود لم يسبق إلى الإجادة في جمع السنن فقال : (فأما السنن المحضة فلم يقصد واحد منهم جمعها واستيفاءها ولم يقدر على تخليصها واختصار مواضعها من أثناء تلك الأحاديث الطويلة ومن أدلة سياقها على حسب ما اتفق لأبي داود) " معالم السنن " ١ / ١١ . .
وقال الخطابي أيضا : (وقد جمع أبو داود في كتابه هذا من الحديث في أصول العلم وأمهات السنن وأحكام الفقه ما لا نعلم متقدما ما ، سبقه إليه ولا متأخرا لحقه فيه) " معالم السنن " ١ / ١٣ . .

(٣٩٠/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٨٦)
ثناء العلماء على السنن
لن أستطيع الحصر ولا الاستقصاء لو أردت أن أذكر كل ما قيل في الثناء على هذا الكتاب العظيم ولذلك فسأكتفي بإيراد بعض الكلمات لأشهر العلماء :

* قال أبو ذكريا الساجي :

كتاب الله أصل الإسلام ، وكتاب " السنن " لأبي داود عهد الإسلام . " تهذيب ابن عساكر " ٦ / ٢٤٤ " طبقات الشافعية " للسبكي . .

* وقال محمد بن مخلد :

لما صنف أبو داود " السنن " وقرأه على الناس صار كتابه لأهل الحديث كالمصحف يتبعونه ، وأقر له أهل زمانه بالحفظ فيه تهذيب الأسماء واللغات " ٢ / ٢٢٤ . .

* وقال ابن الأعرابي وأشار إلى النسخة وهي بين يديه :

لو أن رجلا لم يكن عنده من العلم إلا المصحف الذي فيه كتاب الله ثم هذا الكتاب لم يحتج معهما إلى شيء من العلم البتة . " معالم السنن " ١ / ١٢ . .

وعلق الخطابي على كلمة ابن الأعرابي هذه فقال :

(وهذا – كما قال – لا شك فيه ، لأن الله تعالى أنزل كتابه تبيانا لكل شيء وقال : سورة الأنعام الآية ٣٨ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ فأخبر سبحانه أنه لم يغادر شيئا من أمر الدين لم يتضمن بيانه الكتاب ، إلا أن البيان على ضربين :

بيان جلي تناوله الذكر نصا ، وبيان خفي اشتمل عليه معنى التلاوة ضمنا ؛ فما كان من هذا الضرب كان تفصيل بيانه موكولا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو معنى قوله سبحانه سورة النحل الآية ٤٤ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ فمن جمع بين الكتاب والسنة فقد استوفى وجهي البيان ، وقد جمع أبو داود في كتابه هذا من الحديث في أصول العلم وأمهات السنن وأحكام الفقه ما لا نعلم متقدما سبقه إليه ولا متأخرا لحقه فيه " معالم السنن " ١ / ١٢ – ١٣ .) .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٨٧)

وقال الخطابي أيضا :

(كتاب السنن لأبي داود كتاب شريف لم يصنف في علم الدين كتابه مثله ، وقد رزق القبول من الناس كافة فصار حكما بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم فلكل فيه ورد ومنه شرب ، وعليه معول أهل العراق وأهل مصر وبلاد المغرب وكثير من مدن أقطار الأرض . فأما أهل خراسان فقد أولع أكثرهم بكتابي محمد بن إسماعيل ومسلم بن الحجاج وهما البخاري ومسلم . ومن نحا نحوهما في جمع الصحيح على شرطهما في السبك والانتقاد ، إلا أن كتاب أبي داود أحسن رصفا وأكثر فقها) " معالم السنن " ١ / ١٠ – ١١ . .

وقال الخطابي أيضا :

(اعملوا أن الحديث عند أهله على ثلاثة أقسام : حديث صحيح ، وحديث حسن ، وحديث سقيم . فالصحيح عندهم ما اتصل سنده وعدلت نقلته ، والحسن منه ما عرف مخرجه واشتهر رجاله ، وعليه مدار أكثر الحديث وهو الذي يقبله أكثر العلماء ، ويستعمله عامة الفقهاء ، وكتاب أبي داود جامع لهذين النوعين من الحديث ، فأما السقيم منه فعلى طبقات شرها الموضوع ثم المقلوب – أعني ما قلب إسناده – ثم المجهول ، وكتاب أبي داود خلي منها برئ من جملة وجوهها ، فإن وقع فيه شيء من بعض أقسامها لضرب من الحاجة تدعوه إلى ذكره فإنه لا يألو أن تبين أمره ويذكر علته ويخرج من عهدته . وحكي لنا عن أبي داود أنه قال : ما ذكرت في كتابي حديثا اجتمع الناس على تركه " . وكان تصنيف علماء الحديث – قبل زمان أبي داود – الجوامع والمسانيد ونحوهما ، فتجمع تلك الكتب إلى ما فيها من السنن والأحكام أخبارا وقصصا ومواعظ وآدابا ، فأما السنن المحضة فلم يقصد واحد منهم جمعها واستيفاءها ولم يقدر على تخليصها واختصار مواضعها من أثناء تلك الأحاديث الطويلة ومن أدلة سياقها على حسب ما اتفق لأبي داود ، ولذلك حل هذا الكتاب عند أئمة الحديث وعلماء الأثر محل العجب فضربت فيه أكباد الإبل ودامت إليه الرحل) " معالم السنن " ١ / ١١ . .

(٣٩٢/١)

---

* وقال أبو حامد الغزالي عن " سنن أبي داود " :

" إنها تكفي المجتهد في أحاديث الأحكام " .

* وقال ابن القيم :

(لما كان كتاب " السنن " لأبي داود رحمه الله من الإسلام بالموضع الذي خصه الله به ، بحيث صار حكما

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٨٨)

بين أهل الإسلام ، وفصلا في موارد النزاع والخصام ، فإليه يتحاكم المنصفون ، وبحكمه يرضي المحققون ، فإنه جمع شمل أحاديث الأحكام ، ورتبها أحسن ترتيب ونظمها أحسن نظام ، مع انتقائها أحسن انتقاء ، واطراحه منها أحاديث المجروحين والضعفاء) " تهذيب ابن القيم " ١ / ٨ . .

(٣٩٣/١)

تأليفه

ألف : أبو داود كتابه " السنن " في وقت مبكر ، وعني بتأليفه وترتيبه عناية بالغة ، وأعاد النظر فيه مرات متعددة . هذا أمر لا شك فيه .

أما كونه ألفه في وقت مبكر فيدلنا على ذلك ما ذكره مترجمو أبي داود من أن المؤلف روى كتابه " السنن " ببغداد ونقله عن أهلها ، ويقال : إنه صنفه قديما وعرضه على أحمد بن حنبل فاستجاده واستحسنه ، والإمام أحمد متوفى سنة ٢٤١ هـ .

وقد يمكننا هذا النص أن نفهم أنه ألف الكتاب قبل أن يأتي بغداد ، ولعله ألفه في طرسوس ، لأنه جاء في أخباره أنه ألف المسند بطرسوس ومكث في ذلك مدة طويلة يبذل جهده في الاختيار والانتقاء والتبويب والترتيب . قال محمد بن صالح الهاشمي " تهذيب الأسماء واللغات " للنووي ٢ / ٢٢٤ . .

(قال أبو داود : أقمت بطرسوس عشرين سنة أكتب المسند ، فكتبت أربعة آلاف حديث ، ثم نظرت فإذا مدار الأربعة آلاف على أربعة أحاديث لمن وفقه الله) ثم ذكر الأحاديث .

وواضح أنه يريد بالمسند كتابه " السنن " لأن قريبا من هذا النص نقله عنه ابن داسة مصرحا فيه بذكر السنن انظر خبر ابن داسة فيما يأتي ص ٢٣٨ وقد سبق أن وردت هذه الأحاديث ص ٢٢٨ . ، وعدد أحاديث كتاب " السنن " قريب من هذا الرقم .

ومما يؤكد لنا أن تأليفه كان في وقت مبكر من حياته النظر في مجموع أخباره فهناك ما يدل على أن الرجل بذل به عناية فائقة وأنفق في ذلك مدة طويلة وأنه عرض هذا الكتاب بعد تمامه على الإمام أحمد المتوفى سنة ٢٤١ فإذا كان أبو داود قد ولد سنة ٢٠٢ واستغرق مدة عشر سنوات في تأليفه وافترضنا أنه عرضه عليه قبل وفاته بخمس سنوات ، فيكون عمر المؤلف عند ذلك بضعا وعشرين سنة ، أي في وقت النشاط والقدرة . وهذا وقت مبكر جدا .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٨٩)

وأما كونه عني به عناية بالغة فهذا أمر تدل عليه دلائل كثيرة كلها تقطع بأن المؤلف بذل مجهودا كبيرا وأنه نظر فيه ونقحه وقرأه مرات وكان يزيد فيه وينقص .

(٣٩٤/١)

من هذه الدلائل ما ذكره راوي هذا الكتاب الإمام الحافظ أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي الذي قال بعد أن روى الحديث ٩١١ ما يلي : (هذا الحديث لم يقرأه أبو داود في العرضة الرابعة) " سنن أبي داود " ١ / ٣٣١ . وقال صاحب " عون المعبود " في شرح ذلك : (أي لما حدث وقرأ أبو داود هذا الكتاب في المرة الرابعة لم يقرأ هذا الحديث) " عون المعبود " ١ / ٣٤٣ . .

ومن هذه الدلائل قول علي بن الحسن بن العبد : (سمعت كتاب السنن من أبي داود ست مرار . بقيت من المرة السادسة بقية) انظر " رسالة أبي داود " بتحقيقنا ص ١٣ . وفي تتمة الخبر أنه قرأها في السنة التي مات فيها وهي سنة ٢٧٥ هـ .

أي أن المؤلف ظل يقرأ الكتاب ويذيعه في الناس مدة تقرب من أربعين سنة فلا عجب أن يكون واحد كعلي بن الحسن قد سمع منه هذا ست مرات .

ومن هذه الدلائل ما نقله أبو بكر بن داسة عن أبي داود حيث يقول :

(كتبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة ألف حديث ، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب – يعني كتاب السنن – جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث ذكرت فيها الصحيح وما يشبهه ويقاربه ، وما فيه وهن شديد بينته ، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربع أحاديث :

أحدها : قوله (صلى الله عليه وسلم) : صحيح البخاري بدء الوحي (١)،صحيح مسلم الإمارة (١٩٠٧)،سنن الترمذي فضائل الجهاد (١٦٤٧)،سنن النسائي الطهارة (٧٥)،سنن أبو داود الطلاق (٢٢٠١)،سنن ابن ماجه الزهد (٤٢٢٧)،مسند أحمد بن حنبل (٢٥/١). الأعمال بالنيات .

والثاني : قوله (صلى الله عليه وسلم) : سنن الترمذي الزهد (٢٣١٧)،سنن ابن ماجه الفتن (٣٩٧٦). من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

(٣٩٥/١)

والثالث : قوله : (صلى الله عليه وسلم) : صحيح البخاري الإيمان (١٣)،صحيح مسلم الإيمان (٤٥)،سنن الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٥)،سنن النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠١٦)،سنن ابن ماجه المقدمة (٦٦)،سنن الدارمي الرقاق (٢٧٤٠). لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه .

والرابع : قوله : (صلى الله عليه وسلم) : الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتبهات .

ومما يدل على عنايته وإجادته لهذا الكتاب تعليق الذهبي على كلام أبي داود الذي نقله ابن داسة والمتضمن وعدا بتبيين الضعيف الظاهر . قال الذهبي : (وقد وفى بذلك فإنه بين الضعيف الظاهر ، وسكت عن الضعيف المحتمل) طبقات السبكي " ٢ / ٢٩٣ . .

(٣٩٦/١)

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٩٠)

رواياته

نتوقع أن يكون هذا الكتاب قد روي من طرق كثيرة ، غير أن الرواة الذين ذكرهم العلماء تسعة وقد أوردنا أسماءهم في كلامنا على تلامذته .

والحق أن هؤلاء الرواة الذين عرفناهم – وغيرهم كثير ممن لم نقف على أسماءهم – قد أدوا خدمة جليلة لكتاب أبي داود ، وللسنة بوجه عام ، فجزاهم الله عن ذلك خير الجزاء .

وقد انتهيت من بحثي إلى كتاب " السنن " متواتر إلى صاحبه دون شك . وأن أولئك الدساسين الذين يريدون أن يشككوا المسلمين بكتب ثقافتهم الدينية وبالأصول الإسلامية قوم دفعهم إلى ذلك التعصب الأعمى والحقد الدفين .

ذكر العلماء أن الروايات عن أبي داود بكتابه " السنن " كثيرة جدا وهذا أمر طبيعي ، لأن رجلا ظل يقرئ كتابه مدة تقرب من أربعين سنة لا بد أن يكون عدد الذين رووه عنه كبيرا ، لا سيما أن أبا داود – كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في ترجمة حياته – محدث مشهور يقصده الناس لعلمه وفضله حتى إن الدولة رأت في سكناه بالبصرة سببا لإحياء المدينة الميتة وعمارة القرية الخربة . ومن عادة المؤلفين أنهم دائما في تنقيح مستمر لكتبهم ، يقدمون ويؤخرون ويزيدون وينقصون ، وكلما نظروا في أثر من آثارهم رأوا أنه بحاجة إلى تعديل .

ومن أجل ذلك لكان كلام الحافظ ابن كثير عن روايات سنن أبي داود هو الكلام الطبيعي الذي جاء نتيجة لما ذكرنا . قال في " مختصر علوم الحديث " :

(الروايات عند أبي داود بكتابه السنن كثيرة جدا ، ويوجد في بعضها من الكلام بل والأحاديث ما ليس في الأخرى) " الباعث الحثيث " ص ٤١ . .

ولذلك كان أبو داود يحذف بعض الأحاديث ويزيد بعضا في محاولات تنقيح الكتاب وإحكام تربيته ، وقد مر معنا كلام اللؤلؤي الذي يذكر فيه أن أبا داود في المرة الرابعة لم يقرأ حديثا – ذكره –

ويحسن بنا أن نتعرف إلى أصحاب هذه الروايات وهم :

١ – أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي :

وهذه النسبة تتصل بالمهنة ، فهي نسبة إلى اللؤلؤ لأنه كان يبيعه وقد توفي " تذكرة الحفاظ " ٣ / ٨٤٥ . سنة ٣٣٣ هـ .

(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٩١)

وروايته من أصح الروايات لأنها من آخر ما أملى أبو داود فقد سمع السنن مرات عديدة كانت

آخرهن في السنة التي توفي فيها أبو داود : سنة ٢٧٥ هـ .
وقد روى عن اللؤلؤي هذه السنن القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي أبو عمر ، وهو ممن ترجم له الخطيب " تاريخ بغداد " ١٢ / ٤٥١ . وذكر أنه من أهل البصرة وعدد أساتذته فذكر منهم اللؤلؤي وعبد الفاخر بن سلامة الحمصي ومحمد بن أحمد الأثرم وعلي بن إسحاق الماربيني ويزيد بن إسماعيل الخلال ومحمد بن الحسين الزعفراني الواسطي ، وأثنى عليه الخطيب " تاريخ بغداد " ١٢ / ٤٥١ . فقال : (" كان ثقة أمينا ، ولي القضاء بالبصرة ، وسمعت منه بها " سنن أبي داود ") وذكر أنه ولد سنة ٣٢٢ وتوفي سنة ٤١٤ هـ .
وقد روى عن القاسم الهاشمي هذه السنن الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ والخطيب البغدادي إمام ثقة ذائع الصيت انظر ترجمته في " طبقات الشافعية " ٣ / ١٢ و " وفيات الأعيان " و " معجم الأدباء " ١ / ٢٤٨ . .
ورواية الخطيب هي التي اعتمدت بالنسبة للشائع مع نسخ أبي داود برواية اللؤلؤي .

(٣٩٨/١)

ومن المفيد أن نذكر أن ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ قد ألف كتابه " الإشراف على معرفة الأطراف " " ومخطوطته موجودة في مصر في دار الكتب المصرية (انظر " تحفة الأشراف " ١ / ٤ تعليق رقم ٥) . الذي جمع فيه أطراف" سنن أبي داود " معتمدا على رواية اللؤلؤي " عون المعبود " ٤ / ٥٤٨ . . أما المزي المتوفى سنة ٧٤٢ هـ فقد جمع في كتابه " تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف " أطراف أحاديث " سنن أبي داود " من الروايات الأربعة وهي روايات : اللؤلؤي ، وابن داسة ، وابن العبد ، وابن الأعرابي ، بحيث يورد حديث السنن ثم يقول : أخرجه أبو داود في باب كذا ، فإن كان ذلك الحديث موجودا في رواية اللؤلؤي يسكت عنه ولا يقول : إن هذا الحديث من رواية اللؤلؤي سواء كان ذلك الحديث في باقي الروايات الثلاثة موجودا أم لا . وإن لم يكن الحديث من رواية اللؤلؤي ، بل من رواية الثلاثة الآخرين أو من رواية واحد منهم فيقول بعد إخراجه : حديث أبي داود في رواية ابن داسة مثلا أو رواية ابن العبد مثلا أو في رواية ابن الأعرابي مثلا أو في رواية هؤلاء الثلاثة أو اثنين منهم " عون المعبود " ٤ / ٥٤٨ . .
٢ – أبو بكر محمد بن بكر بن عبد الرازق بن داسة التمار :
المتوفى سنة ٣٤٦ هـ . وروايته مشهورة ولا سيما في بلاد المغرب وتقارب رواية اللؤلؤي .
والاختلاف بينهما غالبا بالتقديم والتأخير " المنهل العذب المورود " لمحمود خطاب السبكي ١ / ١٩ و " عون المعبود " ٤ / ٥٤٧ . .
(الجزء رقم : ١، الصفحة رقم: ٢٩٢)